ميزان الجلاد
رواية
أسامة عبد الظاهر
ساحر الكتب

# البداية

## شبه الجزيرة العربية

## ١٩٣٢م

في شتاءِ عام ١٩٣٢م بدأت بعثةُ المستكشف البريطاني (هاري فيلبي) في عبور صحراء الرّبع الخالي. جوٌّ رهيبٌ لم يعهذه الرجل الإنجليزي ولا أفرادُ بعثته، حتّى مرافقوه المحليّون كان يبدو عليهم القلقُ من مرافقة ذلك الرجل المخبول، إلا إنّه كان عبورًا ملحميًا كما كان مخططًا له، يحمل معه رائحةَ الخطر والموت والمجهول. كان الهدفُ هو البحثَ عن مدينة (وبار)، المدينة المفقودة التي تحدّثت عنها الحكاياتُ القديمة، وحذّر العرب ذريتهم من البحث عنها؛ نظرًا لخطورةِ المنطقة وجفافِها الشديد وقلةِ عدد البشر الذين داسوها بأقدامهم، فقد كانت من أندرِ بقاع العالم حياةً، ولأنّ الصحراء لا تفرق بين الإنجليزي وبين البَدوي فقد نفثت غضبَها في وجوههم جميعًا، كادت تلك الرحلة الشاقة أن تقضي على بعثة (هاري فيلبي) كلها، فقد كان عدوُّهم هذه المرةَ هو الربع الخالي وما أدراكَ ما الربع الخالي!، صندوق أسرار الشّرق المغلق، أرض المعذبين والأقوام الغابرة، كان على أفرادِ البعثة أن يسيروا أكثرَ من ٣٧٥ ميلًا في صحراء لا يوجد بها قطرةُ مياه واحدة، الأمرُ الذي جعل (هاري فيلبي) يستسلمُ في النهاية مرغَمًا تحت ضغوط مرافقيه قائلًا:

لقد هزمنا الربعَ الخالي.

هذه فقط هي الرواياتُ الرسمية التي سُجّلت في الأوراق والكتب، لكن هناك روايةٌ لم يزوها أحدٌ من قَبل، وبقيت طيّ الكتمان، ففي إحدى النقاط أثناء سيرِ تلك البعثة قررَ الجميعُ أخذ راحةٍ للبحث عن الماء واستكشاف المكان، وانتشروا في بقاع مختلفة، وفي أثناء حفر أحدِ أفراد البعثة في الرمال اصطدم جاروفُه الصغير بشيءٍ صُلب، ظنّه في البداية حجرًا، إلا إنّه عندما أخرجه فوجئ بخوذةٍ من الخوذات التي كانت تستخدَم في الحروب، كانت المفاجأة من نصيبه وحدَه، وكذلك الرعب أيضًا، فقد وجدَ رأسًا بشريًا داخلها، مفصولًا عن جسده الذي عُثر عليه على بُعد أمتار قليلة، كان الرأس محترقًا متفحّمًا أسودَ اللون كأنه خرجَ لتوّه من أتونٍ مشتعل، فاغر الفكّ في مشهد مرعب، تحولت عظامه إلى اللونِ الأسود القاتم، وتوالتِ المفاجآت على الرجل عندما بدأ يقرأ الكتابة المنقوشة على الخوذة، فأصيبَ بالذهول لفورهِ، فقد كانتِ الخوذة تخص أحدَ جنود الجيش البريطاني، لم يفهمِ الرجل كيف وصل جنديٌ بريطاني لذلك المكان الذي ربما لم يطأه أحدٌ من البشر منذ مئات السنين، وبفحص الجسد الذي مازال يرتدي زيّه العسكري المتهالك، وجدَ شارةً معدنية تشير إلى رتبته العسكرية واسمِه، ميجور بالجيش البريطاني يُدعى (جورج آرثر)، في جيبه الأيمن ورقةٌ بالية كُتبت باللغة الإنجليزية بخطّ اليد، حاولَ الرجل قراءة الجملِ المتقطّعة التي مازالت صامدةً أمام ذلك الجوّ الرهيب، لكنها لم توصله

لشيءٍ، ونظرًا لفضوله الكبير فقد قرّر إخفاءَ الأمر عن (هاري فيلبي) نفسه؛ حتى لا ينسبَ السّبق لنفسه؛ لذا فقد استمرّ في البحث سريعًا قبل أن يلاحظه أحدٌ من أعضاء البعثة أو الأدلّاء المرافقين، وتوالث عليه المفاجآث تترى كالماء المنهمر، وكأنّه أمام خزانةٍ من المعلومات فُتِحت له فجأةً، فقدِ اكتشف بعد البحث أن البقعةَ التي يقف فيها إنّما هي مقبرةٌ جماعية لفيلق كامل من الجنود البريطانيين، كلُّهم يحملون نفسَ صفات الجسد الأول الذي عثر عليه، بلا رأس، بل واكتشفَ أنّ سياراتهم وأسلحتهم دُفنث معهم تحتَ الرمال، وكأن هذا المسكين قد نبشَ شيئًا محرّمًا، ففي الليل عندما قررَ التسلل لاستكمال بحثه المنفرد الذي سيضعُه في الصفوف الأولى للمُستكشفين، جمع كلّ ما استطاع من الشّارات المعدنية التي تحمل أسماءَ الجنود وخبّأها في كيس قماشي صغير، إلا إنّ ما جعله يفزع ويجفل أنه لاحظَ ظلالًا سوداء تتحرّك في سرعة خاطفة كالبرق فوقَ الرمال الناعمة دون أن تتركَ أثرًا عليها، تظهر تحتَ نور القمر بوضوح، مما جعلَه يعود سريعًا لخيمتِه لاهثَ الأنفاس مضطربَ القلب، ليظلّ محدقًا طوال الليل في فتحةِ الخيمة المغلقة من الداخل؛ ظنًّا منه أن هناك من يتبعه.

في الصباح، كان اليأس قد أصاب (هاري فيلبي) فقرّر أن يعود خوفًا من الهلاك بعد أن حذّره الجميع من الاستمرار دون مياه، قائلًا لهم في أسفٍ: لقد هزمنا الربع الخالي.

وبالطبع عادتِ البعثة إلى (الرياض) خاويةَ الوفاض،

إلا مِن بعض الشارات المعدنية التي يُخفيها ذلك الرجل، بدأ على الفور في عمل اتصالاته بأحد زملائه في لندن، وأعطاه اسمَ الميجور (جورج آرثر) للبحث عنه في سجلات الجيش البريطاني، ولم ينتظرِ النتائج، بل شدّ الرحال بنفسه سريعًا إلى لندن، وعندما وصلَ كانتِ المفاجأة الكبرى في انتظاره، المعلومة التي أخرسته تمامًا عن النطق عندما قال له صديقُه في الجمعية الجغرافية الملكية: هذا الرجل كان يخدم في المُستعمرة المصرية، بالتّحديد في منطقة تسمى (مديرية الغربية)، وانقطعت أخبارُه فجأة في مصر منذ أكثرَ من ثلاثين عامًا، والسجلات العسكرية الرسمية وتقارير المخابرات البريطانية تقول إنه قتلَ ودفن في مصر، وأقيمت له جنازةٌ عسكرية، إلا إنّ زوجته رفضتْ تصديق تلك الرواية مصرّةً على أن المخابراتِ البريطانية تخفي ما حدثَ في الحقيقة لزوجها.

أخرجَ المستكشف الشارة المعدنية الخاصّة بجورج آرثر من جيبه وألقاها على الطاولة قائلًا لصديقه:

هذا الرجلُ وجدتُه مقطوعَ الرأس، ومدفونًا تحتَ رمال الربع الخالي.

نظرَ له صديقه في حيرةٍ لا تخلو من الذهول، وقال:

على حسبِ معلوماتنا فتلك البقعةُ لم يصلها أحدٌ من قبل، فما بالك وإن كان عسكريًا كما تحكي.

قال له المستكشفُ وهو يشعل غليونَه وينفث دخانه في

الجو:

هذا ما سأعرفُه عندما أصلُ إلى المكان الذي يحمل الحقيقةَ على أرض الواقع.

عقدَ صديقُه حاجبيه قائلًا:

أينَ ذلك المكان؟

قال له المستكشف: مصر.

***

لم تكن هذه هي البداية.. فالبداية كانت قبلَ سبعة وعشرين عامًا.

# الفصلُ الأوّل

## مصر

## عامَ ١٩٠٥م

انقلبتِ الدنيا رأسًا على عقِب عند العثور على جثةٍ في شارعنا الهادئ، لم يسبق لنا رؤيةُ هذا المنظر من قبل، دماء في كلِّ مكان، وكأنَّ الفاعل قد أراد بثَّ الرعب في نفوس الجميع، وجدنا الدماءَ مُنتشرة في بقعةٍ كبيرة حول الجثة، حتى على الجدران المُحيطة بها في ذلك الشارع الضيِّق الذي حدثت فيه الجريمة، جمعتنا أمي حولَها محاولة أن تمنعَنا من التجمُّع مع الناس وهُم يحيطون بقوات المركز التي تعاين موقعَ الجريمة، لكنَّ الفضول كان كبيرًا، فتسلَّلت من ورائها وفتحت بابَ البيت، وانزلقت في الزحام مُستخدمًا جسدي النحيل، حتى وصلت لمكان التجمُّع، فوجدتُ قوات البوليس قد فضت جمعَ الناس وتركوا بعض أفرادهم بجوار الجثة، لحين وصولِ مفتش الصحة للمعاينة، بدَا عليهم التوتر وقد حاولوا إعطاءَ ظهورهم للجسد المُلقى الممزَّق على الأرض، أما أنا فقد دفعني الفضولُ للاقتراب من المكان أكثرَ من أي مكان وصل إليه أقراني، فقررت الاقترابَ حتى ألقى نظرة على ما لم يروه، فأفتخرُ عليهم في اليوم الثاني بشجاعتي عندَ ذهابنا إلى كُتَّاب الشيخ أيوب، لم أكنْ أعلم من أين أتيت بهذه الشجاعة في ذلك اليوم أو قل.. الحماقة، كان أحدُ العسكر يشعل سيجارته اللفَّ في توتر واضح، وبيدٍ مرتعشةٍ،

فانتهزت فرصةَ انشغاله بأعواد الثقاب التي ترفض الاشتعال، وانزلقتُ في خفةٍ مستندًا على الحائط حتى وجدتُ نفسي في ذلك الزُّقاق الصغير وخدي وجهًا لوجه مع الجثة، كانت مغطاةً ببعض الأقمشة البالية، غير أنّ الريح وكأنها أرادت معاقبتي على فضولي، وعليّ عصيان أمر أمي بعدم الخروج، فهبّت قوية فأطارتِ الأقمشة، وكشفت لي عن الجثة كاملة، فتجمّدت في مكاني من المنظرِ المريع، ليس ما أذابَ أوصالي هو منظر الدماء والأشلاء وحدَه، لكنها نظرةُ الرعب الأخيرة التي حفرت وتجمّدت على وجه الرّجل المقتول، رعبٌ لا يتسبّب فيه قاتل عادي، وكأنّ آخر الوجوه التي رآها المسكين قبلَ موته هو وجه الشيطان.

لم أدرِ ماذا حدث بعدها، فقد غامتِ الدنيا أمام عيني واختفت الجثة الملعونة من أمامي شيئًا فشيئًا، وعرفت وقتَها أنّ ما سيحدث بعد ذلك لن يكون في صالحي.. بدأتِ الأصوات تختلطُ مع الصور وجسدي يرفض أن يحملني، بعد أنْ أعلنتْ أعصابي العصيان، وسقطتُ على الأرض كالحجر، وأنا أسمع صوتَ العسكري يوبّخني قائلًا: ما الذي أتى بك إلى هنا أيها الشقي؟ بعدَها غاب كلُّ شيء أمامي.

***

كلُّ ما كنت أشعرُ به هو شعورٌ غريب من الخوف، وكأنني طرقتُ بابًا محرمًا أو رأيتُ شيئًا لم يكنْ على رؤيته سيظلُّ يطاردني إلى الأبد، أردتُ فتح عيني لكنها قاومتني، وكأنها تحملُ جبالًا فوقها، كان عقلي يصدر الأوامرَ لجسدي لكن

جسدي يرفض التنفيذ، فوجئتُ برائحة نفّاذة أمام أنفي اخترقت كل الحجز واصطدمت بخلايا الشّم في المخ فأشعلت كلّ الحواس مرةً واحدة، مما جعلني أسعلُ في قوةٍ وصوتُ أمي الغاضب يخترق أذني وهي تقول:

ألم أحذّرك من الخروج أيها الملعون؟

تلفتُ حولي وأنا أفتحُ عيني في صعوبة وأبتلعُ لعابي لأسهل خروج الكلام، وعقلي يحاول جاهدًا البحثَ عن كذبةٍ أتفادى بها عقابَ أمي، لكنها كانت قويةً صارمةً معي فلم تمهلني، وما إنْ فتحت عيني وتنفّست الصعداء واطمأنث عليّ، حتى وجّهت دفة الهجوم الثاني مباشرة إليّ، ورفعت صوتها قائلة:

ألا تخاف على نفسِك أيها الكلب، قلبي لم يعد يحتمل خوفي عليكم.

فما كان مني إلا أنْ ضربتني صورة الجثة فجأةً بلا مقدّمات فانفجرت باكيًا، فتحوّل وجهُ أمي في لمح البصر، وكأنها شخصٌ آخر غير الذي كان يتوعدني منذ ثوانٍ، احتضنتني قائلة: ما لَك يا مسكين؟ ماذا رأيت؟

أجبتُها مرتجفًا: وجه الجثة يا أمي؟

مسحتْ على شعري محاولة تهدئتي، لكنّ سؤالًا مجنونًا ضرب رأسي في الحائط رافضًا تَركي دونَ إجابة: تُرى ما الذي رآه ذلك الرجلُ المقتول قبل موته؟، ما الذي حفرَ تلك العلامات المرعبة على وجهه؟

هكذا نقلَ ذلك الغلام الصغير الخبر لأقرانه، والذي انتشر كالنار في الهشيم في كلِّ مكان، كان وصفُه لما رآه دقيقًا بشكلٍ لا يُصدّق، مما جعلَ الجميع يتخيلون ويطلقونَ الخيال لما حدث، لكنَّ مَن سمع ليس كمَن رأى. جاء الطبيب لمعاينة الجثة، وحملت للمشرحة الموجودة في المستشفى الميري، ثم بدأ رجالُ مباحث البَندر يجمعون المعلوماتِ اللازمة عن القتيل وأعدائه، وبدأوا ينتشرون في ثيابِهم المدنيّة في أماكن تجمعاتِ الناس كالسوق والمقهى الصغير المجاور للنّيل، وبعدَ فترة بدأت جهودُهم تذهب سدًى وتتلاشى بعد فشلهم في ربط الخيوط بينَ القتيل وأحدِ المشتبه بهم، وبدأ الناش يتفادون بشكل لا شعوري المرور من موقع الجريمة، فرائحةُ الموت أصبحت تفوحُ من ذلك الشارع الضّيق، ربما في الحالاتِ العادية كانتِ الجريمة ستظهر أنها مجرد جريمة قتل، ربّما بغرض السرقة أو ثأر قديم بينَ القاتل والمقتول، وكان من الممكن أن تُطوى صفحتُها مع مرور الأيام، لولا ارتباطُها برعب وقصص تُروى ووقائع مسجلة حدثت قبل الجريمة بأيامٍ قليلة، وقائع مريعة لم يتمكّن أصحابها من رواية ما حدثَ لهم، وكأنَّ جريمة القتل كانت آخرَ مسمار دُقَّ في نعش تلك القرية، القشّة التي قسمت ظهرَ البعير، قضتْ على آخر ذرات الشجاعة في قلوب الجميع بلا استثناء، لتعلن أنَّ الأحداث كانت في تصاعدٍ مستمر، وأنَّ ما هو قادم يحمل الأسوأ للجميع.

***

# شهودُ عيان

# قرية (المحمودية)

# مديرية الغربية، عام ١٩٠٥ م

دغنا نبدأ معَك من البداية، إنْ كنت يا صديقي تبحث عن قصة مسلية فهذا ليسَ مكانك ولتغلق هذا الكتابَ الآن، فما حدثَ لتلك البقعة القديمة المنسية التي تُطلُّ على النيل هو أكبرُ مصائب الدّهر غير المفهومة، لا نعلم

هل كان عقابًا؟ أم ابتلاءً، أو ربما عدلٌ صارم يتمُّ تنفيذه.

(المحمودية) تلك القريةُ القديمة النكرةُ في مديرية الغربية، لم يعلم أحدٌ بوجودها يومًا، كانت تحتضن النيلَ احتضانَ الأفعى للفريسة، حتى وقعت فيها ثلاثُ حوادث متتابعة، ضربتِ الرعبَ في كل أنحاء القرية، وكأنهم جميعًا يشتركون في ذنبٍ واحدٍ، ولا بدّ أن يدفع الجميع ثمنَه.

***

## (الأول)

على أطراف القرية بمحاذاة ضفاف النيل تمرُّ قضبانُ قطارٍ قديمٍ متهالك، كان يستخدَم في نقل البضائع والأفراد، حظُّه العَسِر أنه كان يمرُّ من أمام بقعة مهجورة، تمتدُّ في نهاية مساحاتٍ كبيرة من الأراضي الزراعية، تطل على قصر مهجورٍ لأحد المماليك، مجهولِ الأصل والنسب أطلقَ عليه الأهالي

اسم (بيت المداخن)؛ لوجودِ مدخنةٍ من المداخن اليوسفية الضخمة ترتفع بالقرب منه، كانت تستخدَم قديمًا في إخراج دخان الفحم الناتج عن تشغيل وابور رفع المياه، كانت تبدو من بعيدٍ تحتَ ضوء القمر كالمشنقة، ترتفع كحارس يحرس شيئًا غيرَ معلوم، لا يعلم أحدٌ من السكان أصلَ القصر أو مَن الذي بناه، فقد كان متهالكًا سقطت أجزاءٌ كبيرة من أسواره وجدرانه، لكنّ الجميع قد أجمعوا على شيءٍ واحد، وهو السمعةُ المرعبة المتوارثة لذلك المكان منذُ الأجداد، منظر المذخنة ليلًا يثير قشعريرةً غريبة في جسدِ كلّ مَن يمرُّ بجوارها بعد غروب الشمس، والوصفُ الغريب الذي أجمع عليه الجميعُ هو أنّ المدخنة كانت تراقب كلّ مَن يمرُّ من أمام القصر، خاصّة في الليل، بعض الناس كان يضطرهم حظُّهم العَسِر للذهابِ لتلك البقعة بعدَ الغروب لسبب أو لآخر، فكان الخوف المسبَق يقوم بدوره على أكملِ وجه، لكنّ الأمور كانت لا تتعدى مجرد قصصٍ متفرّقة لأناس ربما أصابهم الهلعُ عند مرورهم بتلك البقعة ليلًا، ففقدوا الاتجاهات، وماجتِ الدنيا أمامهم وأفزعتهم أصواتُ أنفاسهم ولهاثهم المُضطرب، وخُيِّلَ إليهم أنّ أقدامهم لا تطأ أعوادَ القش التي جفّفتها حرارةُ الشمس، وإنما هي أصواتُ تحطُّم عظامٍ بشرية، كلها كانت وساوسَ الشيطان أو أوهام الجنّ المنتشر حولنا في كلّ مكان، والذي لا يتلاعب إلّا بعقول الخائفين..

أمّا الأقوياء فلا يرون إلا الحقائق الثابتة، القلوب المطمئنة لا يقدرُ عليها شيطانٌ أو جان، إنما تتمنّى الشياطين أن

يمرّ من جانبهم دون أن تصيبَهم أصواته المستمرّة بالذكر والتسبيح. كانتِ القلوب في تلك القرية قد تنجّست بالكثيرِ من الخطايا، فصارتْ مرتعًا لوساوس الشياطين مما جعلها البيئةَ المناسبة تمامًا، ففي (المحمودية) اشتعلت نارُ خصومة شديدة بدأت صغيرةً وتضخّمت حتى صارت كالنار تأكل كلّ ما في طريقها، جُزمُ الذهبِ الملْعون الذي لوّث كلّ أياديهم، كان الخلافُ بين المتخاصمين نتيجة إشاعةٍ أطلقها رجلٌ عن وجود آثار ومَساخيط ذهبية في أرض أحدهم التي باعها للتّو، وعندما علم البائع أرادَ أن يستردّها فرفض المشتري، فاشتعلت النارُ بينهم، وكادت أن تأكلَ القرية التي كانت جاهزة لأيّ فتنة جديدة، وقبل وصول الأمرِ لأنهار الدماء أحضر مركزُ البندر فريقًا من الهجّانة الغُشم الذين انتشروا على جِمالهم في كلّ أرجاء القرية، لا يقدرونَ على التفاهم بغير الكرباج السوداني المنْقوع في الزيت، وفُرِض حظرُ التّجوال للمرة الأولى من السادسة مساءً حتى صباح اليوم التالي في هذه القرية دونَ بقية مديرية الغربية كلها، لكن الهجانة كانوا فقط يغطونَ المناطق المأهولة بالسكان، أمّا الأطراف المطلة على قضبان القطار وبيت المداخن، فلها قصصٌ وروايات أخرى، كان أول الضحايا هو (إسماعيل السباعي)، أحد المنحوسين الذين تطلُّ أراضيهم الزراعية على قضبان القطار القديم، مباشرة على بُعد أمتار من بيتِ المداخن، كان ضخمًا كثور الساقية كما كانَ الشيخ أيوب يسمّيه في صغره في الكُتّاب، يستطيع جرّ عربة محمّلة بالطوب دون أن يشعرَ بالتعب، كانت قوته دائمًا مصدرَ فخره

بين كل القرية، لكنه الآنَ وحيدٌ، والوحدة وحدها تكشف معادنَ الرجال، الشنبات هنا ليسَ لها قيمة، ففي مساء ذلك اليوم من صيف عام ١٩٠٥، كان يسرع الخطى قبلَ دخول المغرب، وتعمُّد الشمس المراوغة والإسراع بالاختفاء قبل الأوان، وكأنها تُعطيه درسًا لن ينساه، كان ذلك الحوضُ الزراعي مزروعًا كله بنباتاتِ الذرة، ترتفع في الأفق فتبدو للسائرِ بينها وكأنها عمالقةٌ تنتظر الهجوم عليه من الخلف، خاصّة مع غياب الشمس السريع ودخول الليل. كان إسماعيلُ قد نسيَ من تعجُّله علبة دخانه النحاسية التي اشتراها له صديقُه صفوان العرضحالجي من البندر، عندما تحسّس جلبابه تذكر أنه نسيها بجوارِ قضبان القطار، لكنه لم يكتشفْ ذلك إلا بعدَ عبوره مئاتِ الأمتار وسط حقول الذّرة المريبة، لم يكنْ يعلم ماذا يفعل؟، هل يعود أدراجه مع دخول الليل؟، أم يخاطرْ بتركها حتى الصباح؟، وكيف يقضي ليلتَه من دون سجائره اللّف العامرة؟، ولأنّ الكيف غلاب، فقد اختار له حظُّه العاثر أن يعود لإحضارها، لكنّ المشكلة ظهرت عندما استدارَ عائدًا، فبدث له حقولُ الذرة التي لا بدّ أن يخترقها مرةً ثانية للعودة وكأنّها بلا نهاية، كأنها بحرٌ هائجٌ سوف يقطعه سباحةً، الطريقُ الضيق بين الحقلين الكبيرين بدَا له كأنه حدُّ سيفٍ لا بدّ أن يمشي عليه ليصلَ للناحية الأخرى، لكن ظهور القمر أعطاه بعضَ الأمل للدخول إلى تلك الغابة المُرعبة، المسكينُ لا يعلم أنّ القمر يخدعه، وسيختبأ عما قريب خلف بعضِ السحب وينظر إليه ساخرًا، فعندما وصل إسماعيل لوسط الحقول، بدأ ضوءُ القمر يختفي خلفَ

السحب حتى ساد الظلامُ الدامس، وبدأ إسماعيل يتوتّر ويسلم حواسّه للوساوس، فخيّل إليه أنّ نسمات الصيف التي تحرك نباتات الذرة إنما هي ناتجةٌ عن عدوٍّ مجهول يغدو بين الحقول لينقض عليه، خيّل له أن يرى ظلالًا تتحرك بجانبه وهو يعبرُ الطريق الضيق بين الحقلين، شعرَ عندها أنهما كبحر موسى النبي سينطبقان عليه ليدفناه، بدأ في التعرّق وتلاحقث أنفاسه، وزادث دقات قلبه، وشعرَ بانقطاع الأكسجين عن رئتيه، وبدَا له الطريق وكأنّه بلا نهاية، حتى لاحَ له من بعيد بعض الأمل عندما شاهدَ فرجةً تنبئهُ بانتهاء الحقول، ووصوله للمنطقة المفتوحة بالقرب من قضبانِ القطار ، فسارعَ الخطوات حتى كاد يفقد وعيَه من التوتر، وأخيرًا خرج للهواء الطّلق فملأ صدرَه به كأنه خرج لتوّه من تحت الماء، وصل لحقله فوجد علبةَ دخانه النحاسية تلمع تحتَ ضوء القمر المتقطع، فجلس يستجمع جسدَه المضطرب وأنفاسه اللاهثة، وشعرَ في نفسه بشيءٍ من الخزي، كان يفتخرُ بين رفقائه في خمّارة الخواجة خريستو في محطة القطار أنه لا يخاف شيئًا، يحكي لهم عن مغامراته الوهميّة مع العاهرات في البندر، لكنه الآن وحده، لم يرَ أحدُهم حالته التي يُرثى لها، وكلُّ ما عليه الآن أن يستجمع قواه ويخترق الحقولَ مرةً أخرى سريعًا كالبرق، وسينتهي كلُّ شيء، وبعدها مِدَقٌّ صغير مُختصر يوصله لمنزله دونَ أن يقابله أحدُ قوات الهجانة فيصليه من نار سوطه السوداني الذي لا يرحم، كانتِ الهجانة الآن هي آخرَ ما يقلقه، المهم أن يعبر إلى الجانبِ الآخر من الحقول، حظُّه الأسود لم يكن قد بدأ

بعد، فقد حانت منه التفاتةٌ نحو المذخنة المهجورة التي تقف في شموخ تشقُّ الأفق وكأنها تخترق السُحب، وخلفَها ضوء القمر المراوغ الذي يظهر ويختفي سريعًا، ما إن رفع بصرَه نحوها حتى خُيِّل إليه أن يرى كيانًا أسود يجلس فوق طرف المدخنة الشاهقة، بل يقف كأنه طائرٌ ضخم يستعدُّ للانقضاض على فريسته، فرك إسماعيل عينيه ليمسح نقطةَ العرق التي نزلت من جبهته، وربما صنعت له هذا الوهم، لكنه فوجئ بذلك الكيان يلتفُّ في اتجاهه بجسدِه الأسود الذي لا تظهر معالمُه، وكأنه شعرَ بوجود دخيل على منطقة صيده ونفوذه ليلًا، وشعر إسماعيل برغم ارتفاع المدخنة والظلام الدامس أنه ينظر إليه، ثم فعل ما لم تتحمّله أعصابُ إسماعيل، فقد قفز ذلك الكيان من فوق المدخنة الشاهقة، ولم يسقط على الأرض بل طارَ فوق حقول الذرة كطائرٍ رخٍّ ضخم يجرُّ خلفه دخانًا أسود، يقطع أطرافَ النباتات في صوتٍ مرعب، أما إسماعيل فقد انهارت قواه، وانطلق يغدو بينَ الحقول في فزعٍ ورعبٍ لم يذق مثلهما في حياته، شعر بصوت ذلك الكيان يعبر فوقَ الطريق الضيق الذي يسلكه في سرعة مخلفًا خلفَه حرارةً كادت تعمي بصر إسماعيل، والذي لا يرى شيئًا في الظلام الدامس الذي دخلَ إليه، كان صوتُ الاستغاثة والصراخ محبوسًا في حلقه وكأنه فقد النطق، ظلّ يركض ويركضُ ولم يدرِ كيف قطع هذه المسافة الكبيرة بين الحقول بهذه السرعة، حتى حانث له أخيرًا منطقة الخروج في الجهة المقابلة، فشعرَ أنه نجا من ذلك المجهول، لكنَّ الصوت الناتج عن طيران ذلك الكيان فوقَه قد انقطع فجأةً،

وساد صمتٌ قاتل للحظاتٍ طويلة، توقف خلالها إسماعيل يرهفُ السمع، ويلتقط أنفاسَه التي تحرق رئتيه من التعب، نظر إلى الأعلى خافضًا رأسَه يحاول تحديدَ مكانه، لكنه لم يسمع غير الصمت المطبق، ثمّ التفتَ خلفه فلم يرَ غيرَ الظلام الذي يغطي كلّ شيء، كانت هذه هي المعادلة المُرعبة التي لم يفهمها إسماعيل، فعندما يجتمع الظلامُ الدامس مع ذلك السكون المفاجئ فانتظر ما لا تتوقعه، عندما أدار وجهه لقطع الأمتار القليلة المتبقّية للخروج من بينِ الحقلين، وجدَه أمامه، كتلة من السواد تسدُّ عليه الطريق، فتجمّد إسماعيل مكانه، تجمد بمعنى أن كلّ أعضائه رفضت أن تطاوعه، بدَا له ذلك الكيان جامدًا كالتمثال لا يريد أن يتحرك، يحيط به الدخان فيذيبُ أعصاب إسماعيل، ساد الصمتُ والترقب حتى تحركَ ذلك الكيان فجأة كالبرق فصارَ أمام إسماعيل تمامًا، يشعر بحرارته المُرعبة تضرب وجهه، كانت هيئته تبدو كهيئةِ البشر إلا إنّه طويل ضخمٌ عريض المنكبين، يبدو أمامه إسماعيل بجسده الضخم كالقزم، حرّك ذلك الكيان يده فاشتعلتِ النيرانُ في طرفها كالشعلة لتظهرَ لإسماعيل التفاصيلَ المرعبة التي بقيت محفورة في ذاكرته لآخر يومٍ في حياته.. وجهٌ خَشن كالصوف الغليظ، شديد السواد لم يضفْ له ضوء النار شيئًا، عينان كقطعتين من الجمر، شعر أسودٌ طويل مُنسدل على كتفيه، وعباءةٌ سوداء كأنها صُنعت من الدخان الأسود أو من ظلام اللّيل تطفو خلفه. كان إسماعيل يسمع زمجرةَ أنفاسه داخل صدره كأنها صوت نمرٍ يستعدُّ للانقضاض على فريسته.

أيُّ شيطانٍ هذا؟ لا يدري.. ماذا يريد منه؟ ماذا سيفعل به؟ هل يستطيع تحريكَ قدميه التي تجمّدت في الأرض وكأنَّ هناك ألفَ شيطان يمسكونها فيمنعونها عن الحركة؟ كلُّ هذه الأسئلة ضربت رأسَه دفعة واحدة فأوقفت تفكيره وشلّت إرادته، لكنَّ الشيطان الذي يقف أمامه لم يمهله واقترب أكثرَ وأكثرَ حتى بالَ إسماعيل في ثوبه. اقتربَ من أذنه في بطءٍ وهمس له بكلمات قليلة، قبل أن ينقضَّ عليه بلا تردد.

***

معَ ضوء الصباح الأول، وجد أحدُ الفلاحين إسماعيل ملقى، والدماء تغرق وجهَه، يزوم متألمًا كحيوانٍ أخرس لا يقدر على النطق، مذهولًا فقد الحوْل والطول، يحاول أن يشرحَ لكنه لم يكنْ يقدر أن يبوحَ بسرِّ تلك الليلة، حملوه على عربة قديمةٍ قبل أن يفقد حياتَه من كثرة الدماء التي نزفها، عندما وصل أخيرًا لمستشفى البندر، انتشر الخبرُ سريعًا، وحضرَ رئيس مباحث البندر (محمد الأسيوطي) بنفسه عندما علم أنَّ الحادثة وقعت في تلك القرية المشئومة، ظنًّا منه أنَّ الجريمة بسبب الآثار المزْعومة المتنازَع عليها، عندما وصل للغرفة التي يعالج بها إسماعيل، وجد ممرضًا يجلس أمامَها في اضطراب كأن هذا يومه الأول في المستشفى، فبادرَه محمد بيه قائلًا: أريد مقابلة الطبيب الذي يشرف على حالة إسماعيل السباعي الذي نُقل من (المحمودية). أشار الممرض بيدٍ مهتزّة للحجرة دونَ أن ينطق بكلمةٍ، وكأنَّ ما بداخلها لا يريد أن يفصحَ عنه، فدفع محمد الأسيوطي البابَ ففوجئ

بصراخٍ مكتومٍ يأتي من داخل الحجرة، كان الوضع متوترًا، إسماعيل نائمٌ على سرير، وعلى وجهه ملامخ الفزع، يشير لركن فارغ في جانبِ الحجرة والطبيبُ يحاول أن يفهم منه مع لغتِه المبهمة غير المفهومة، والممرِّض يحاول أن يحقنَه بحقنةٍ مهدئة لينام ويتوقف عن الصراخ، أشار الطبيب لمحمد بيه بالصمتِ لمّا رآه يرتدي زي البوليس، فتراجع خطوات للخلف مراقبًا الموقفَ في تعجب، تُرَى ما الذي حدث لهذا الرجل؟ ما الذي يصير فزعَه إلى هذا الحد؟ لماذا لا ينطق ويتكلم ويخبرنا بما حدث؟ قبل أن تتدفّق تلك الأسئلة في رأسه كان مفعولُ المخدر قد بدأ يسري في جسد إسماعيل، فاستسلمَ لنومٍ أشبه بالسقوط في بئر عميقة، فأمر الطبيبُ الممرضَ بالبقاء لمراقبته وإخباره بكلِّ المستجدات فورًا، ثمّ خرج مع محمد الأسيوطي إلى خارجِ الغرفة والذي بادرَه في تعجبٍ قائلًا: ماذا حدث له؟

أجابَه الطبيب في اقتضاب: أحدهم انتزع لسانه.

بُهِتَ محمد الأسيوطي من الإجابة المباشرة، لكنه أيضًا تعجّب من حالة الفزع التي تملّكت إسماعيل، كأنه مازال مطارَدًا من عدوٍّ مجهول، لم يكن يعلم أن إسماعيل الذي سقطَ في النوم بفعل المخدّر ينتظره فصلٌ جديد من العذاب عندما يستيقظ، ففي ركن الحجرة إلى حيث كان يشير، وبالتحديد خلف الممرض الذي يجلس مضطربًا، يقف كيانٌ أسود الوجه مسدلًا شعره على كتفيه، لا يراه إلا سيئ الحظ الذي وقعَ عليه اختياره، فصلٌ جديد من معاناة إسماعيل.

***

## الشاهدُ الثاني

هل تسمع عن قطار الدلتا القديم؟ كان يمرُّ من أمام بيت المداخن بمدخنته المراقِبة للبَشر، يسير بطيئًا كأنه أمٌّ عجوز خُبلى في ثلاثة توائم، يصدر ضجيجًا كبيرًا ودخان محرّكه البخاري القديم يخلف شريطًا طويلًا خلفه.

قبلَ حادثة إسماعيل كانتِ الأمور كلها مجردَ إشاعات صنعتها أوهام الفلاحين، لا يوجد دليلٌ على صحتها، حتى وقعث حادثة قطع لسانه الشنيعة، فزلزلتِ القرية، ونشرتِ الفزع في كل أرجائها، ولم يجدِ الهجّانة مَن يُجرون عليهم حظرَ التجوال، فكلُّ القرية بالكامل كانت تختبئ في المنازل من بغد العصر تقريبًا، لكن هناك مَن هم خارج القرية لم تصلْهم أخبار ما حدث لإسماعيل، ففي تلك الليلة كان القطارُ ممتلئًا بالركاب حتى المحطات الأخيرة، أخذوا ينزلون تباعًا، حتى وجدَ (صفوان العرضحالجي) نفسَه وحيدًا في عربة القطار المتهالكة، كان يعمل كاتبًا أمامَ محكمة البندر، أفّاقٌ وحشّاش ويبيع أباه من أجل المليم، يعود كلّ أسبوع للقرية يوم الخميس، يعتبر نفسه العلّامة صاحب الحلول التي لا يقدر عليها الفلاحون الأميّون، قصيرٌ يرتدي زيّ أفنديّة البندر بطربوشه النظيف وحمّالاته المشدودة، لكنه فجأة وجد أنّ القطار صار خاليًا من الركاب، كان يجلسُ بجوار النافذة يتأمل الأراضي الشاسعةَ التي غطاها الظلام، تلفّت حلوله فاكتشفَ أن القطار صار خاليًا تمامًا، فابتلع لعابه الممزوج

برائحة التبغ الرخيص الذي يدخنه عندما وجدَ المصابيح الزيتية في عربة القطار تهتز بلا سببٍ وكأنها تعبَث به، لكنّ ما أصابه بالقشعريرة هو منظر المدخنة المجاورة لبيت المداخن، وفوقها القمر يلقي بضوئه الخافت على طرفها المتهالك، كان منظرها ليلًا مهيبًا، تقف في صمتٍ مريب كأنها بالفعل تراقب كل من يَمُرُّ كما يُشاع عنها، أما القمرُ الكاذب فكأنه كان ينفّذ أوامرها، لتكتشف الضحية بعد فواتِ الأوان أنه كان شريكًا في ليلةٍ مرعبة، فما ظهرَ على طرف المدخنة العلوي جعلَ قلبَ صفوان ينتفض مكانه، وما نقله بصرُه لعقله كان يصعب على المخ تصديقُه، ممّا أصاب العقل بحالة من الشلل انعكست سريعًا على كافة أعضاء جسمِه، رأى كتلة سوداءَ ضخمة تبدو كهيئة بشري ضخم يجلس فوق طرف المذخنة، خيّل إليه في البداية أو هكذا كان يريد أن يوهمَ نفسه أنه يرى خيالًا وليسَ حقيقة، لكن القطار ما إنِ اقترب من حدود بيت المداخن حتى بدأتِ التفاصيلُ المرعبة في الظهور، فبرغم بُعد المسافة بينهما شعرَ صفوان بأن نظراتِه اخترقتِ المسافات والظلام الدامس لتصطدم بعقله، ثم حدث ما جعله ينهار في مكانه، قفزَ ذلك الكيان من فوق المدخنة وفرد ما يشبه الجناحين، مصحوبًا بكتلةٍ ضخمة من الدخان تزيد المشهدَ رعبًا، مشهد من خرافات القصص والأساطير رآه أمامه يتجسّد مُخلفًا داخله زلزالًا ، اقترب ذلك الكيان من القطار القديم، وعبر فوقه في سرعةٍ هائلة مخلفًا رياحًا ساخنةً قويةً، جعلتِ المصابيح الزيتيةَ في عربة صفوان تنطفئ فجأةً وكأنها تهرب هي الأخرى خوفًا ممّا هو قادم، ثمّ سمع صفوان الذي

بدأ يستعد ليفقد وعيه من هول ما يرى ويعجزُ عن تفسيره، صوتًا هائلًا نتجَ عن اصطدام شيءٍ ثقيل بسقف القطار، وبدأ يتحرّك في ثبات فوق العربة المتحركة، رفع صفوان رأسه للأعلى يرهف السمعَ بعد أن سادَ الظلام الدامس عربة القطار كلها، كان يتمنى أن يقفز لكنّ أعضاءه كلها رفضت أن تستجيب، وكأنّ الشلل قد ضرب كل خلية في جسده، حدقَ بعينيه المذهولتين في الظلام عندما حطم شيءٌ ما سقفَ العربة وأدى إلى تمزُّقها، كأنها رقاقة من خبزٍ جاف، اخترق السقف المعدني ليستقر أمام مقعد صفوان، كان قتلًا بطيئًا توقّفت فيه حواسه كلها إلا حاستي السمع والبصر، اقتربَ منه ذلك الكيان في خطوات ثقيلة، كأنّ جسده صنع من فولاذ صلب، لم يكنْ صفوان يميز على ضوء القمر الباهت المتقطع الذي يدخل من النوافذ غير كتلةٍ سوداءَ كبيرةٍ خلفها عباءة من الدخان الأسود تقترب منه في بطءٍ، لكن معاناته الكبرى لم تكنْ قد بدأت بعد، فقد أضيئت نارٌ فجأة من طرف يده، وعلى ضوئها رأى صفوان وجهًا لن ينساه طيلة حياته إن قُدّر له البقاء، سواد لم يرَه على بشر قط، عينان غاضبتان ينعكس عليهما ضوءُ النار فيجعلهما كقطعتين من الدم المرعب، شعرٌ أسود منسدل على كتفين عريضين تطفو خلفَه عباءةٌ سوداء، كان عقلُ صفوان يرفض تصديق أنه أمام ذلك الشيطان الذي لا يعرف ماذا يريد منه؟ اقتربَ منه في خطوات ثقيلة، ثم مال على أذنه وهمسَ له بكلمات قليلة جعلت صفوان يوقن أنه مُقدم على عذاب مقيم، وبلا تردُّد بدأتِ المجزرة.

***

عندَ وصول القطار إلى محطة القرية، وأثناء تزوُّده بالمياه ليستقرّ أخيرًا في محطتِه النهائية بالبندر، لاحظ أحدُ العمال الدماء التي تغرق العربة الأخيرة، فأخذَ مصباحه ودخل إليها، فوجد السقفَ وكأنه ضرب بمدفع قوي مزقه تمامًا، والغريب أنّ صوت التحطم لم يسمعه سائق القطار، واكتشف العاملُ الجسدَ المسجّى والغارق في دمائه، وفي لحظاتٍ انقلبت الدنيا عندما سمع الجميع صوتَ صفارة العامل، فتجمّعوا حوله مسرعين ليروا المشهد الرهيب، وخلال وقتٍ قصير كانتِ الإشارة قد شُدّتْ من المحطة إلى المركز، فامتلأ المكان بأفراد البوليس الذين يلعنونَ حظهم الذي جعلهم يخدمونَ في تلك البقعة اللعينة، وعلى رأسهم محمد بيه الأسيوطي الذي لم ينتهِ من قضية إسماعيل بعد، عندما وصلَ وجدَ عمال الإسعاف يخرجون صفوان من القطار محمولًا على محفةٍ مغطى بملاءةٍ بيضاء غارقة في الدماء، فاشتعلث نارُ الشك والفضول في نفسه فأسرعَ إلى المسعفين يسألهم: ما إصابته؟

أجابَه أحدهم في عصبية: أحدهم قطع كفّه الأيمن. كانت الإجابة كافية ليعلم محمد بيه أنه أمامَ قضية استثنائية لم يقابلْ مثلها على مدى حياته العملية التي تخطّت أكثرَ من عشرين عامًا، قضاها في التنقل في كافةِ أنحاء القطر المصري، كان يشعر أنه أمامَ قضيّتين ليس لهما علاقةٌ بالثأر والخصومة التي تشتعل نيرانُها داخل (المحمودية)،

فالجريمةُ التي تُرتكبُ عادةً بسبب السرقة أو الطمع تكون سريعةً غير مرتّبة، يترك فيها المجرم لمحةً من التسرع والارتباك تساعد معرفتَه بعد ذلك، أمّا هنا فالأمرُ يختلف تمامًا، بالطبع كان يريد أن يقابل صفوان، خاصّة ليسمعَ منه ما حدث، لكنه أراد أولًا تفقد موقع الجريمة، عند صعودِه لعربة القطار وجدَ تفاصيلَ غريبة قد لا يصدقها عقله؛ لأنه لم يرَ مثلها قبلَ ذلك اليوم، نظرَ إلى سقف العربة المخترَق في تعجبٍ، كانت الفتحةُ مستديرةً، وأطرافها مُنصهرة كأنها اخترقت بقذيفة من مدفع قوي، أي مجرم يمكنُ أن يمتلك هذه القوة، وعلى أرضيّة العربة آثارٌ تنمُّ عن تعرضها لحرارة مرتفعة مُخلِفة سوادًا يشبه الدخانَ الأسود، عندما جمع كل هذه التفاصيل معًا لم يجذ شيئًا منطقيًا يقوده لشيءٍ مفهوم، الأمرُ الوحيد الذي فهمه أنه ربما كان يواجهُ التحقيق الأهمّ في حياته العملية. بعد نحو يومين من دخول صفوان مستشفى البندر سادتْ فيه حالةٌ من الرعب وانتشرت الإشاعات مع وصول الجريمة الثاني، لكنّ محمد الأسيوطي المكلّف بالتحقيق كان يعلم جيدًا أن لكل جريمةٍ أسبابًا تدفع الجاني لهذا التمثيل بالضحايا، وكأنه يريدُ أن يوصل رسالة للجميع بأنّ الرعب هو الحاكمُ الآن في القرية المشئومة، كانت الأحوال في القرية يرثَى لها فقذ ضرب الفزعُ كلّ أرجائها، وأذابَ أعصاب الجميع وكأنهم أمام قاضٍ وجلّاد في نفس الوقت، جعل كل واحد منهم يشعر أنّ الدور عليه، وكأنه عقاب صارمٌ لا يرحم، انتشرتْ قوات المباحث والبوليس في القرية، وتمّ زيادة أعداد الهجّانة وارتفعت ساعاتُ حظر

التجوال لتبدأ من بعد العصر مباشرة، كان الهدفُ من كلِّ تلك الإجراءات هو منعَ الجاني من ارتكاب جريمة جديدة. أما محمد بيه فقد وصلَ المستشفى لمقابلة صفوان والذي كانت حالته لا تختلف كثيرًا عنْ حالة إسماعيل، فقد كان مصابًا بحالةٍ من الفزع والبكاء المستمر، وكان بينَ حينٍ وآخر يشير هو الآخر إلى كرسيٍّ ملقًى في جانب الحجرة وكأنه يرى شيئًا يتعمّد أن يحطمه تحطيمًا، أثار المنظرُ عجب ودهشة محمد بيه، فبرغم خبرته الطويلة، لكن ما يراه هذه المرةَ كان مختلفًا، مرعبًا مريبًا، لماذا لم يقتل الفاعل ضحاياه ليخفي أثرَ جريمته إذا كان يملك تلك القوة الهائلة؟ هل تعمد تركهم في هذه الحالة التي يعدُّ الموت أفضلَ منها؟ لماذا هؤلاء بالتحديد؟ كانت كلها أسئلةً تضرب رأسه من الداخل كمطارقَ من حديد بحثًا عن إجابة، لكن بعد تفكيرٍ بسيط بدا أنَّ الجاني هو نفس الشخص، عاد الأسيوطي لمبنى البوليس الذي يقعُ في مقابل الميدان الكبير في البندر، وصعدَ متجهمًا إلى حجرته، طلب من الساعي فنجانًا كبيرًا من القهوة، وجلس على ضوء مصباح الغاز القديم يدخنُ سيجارة تلوَ الأخرى، يعتصر تفكيره ويربط الخيوطَ الواهية التي تبدو غير واضحة، كان مستغرقًا في التفكير لدرجة أنَّ الساعي وضع القهوة على مكتبه دونَ أن يشعر بوجوده، نظر محمد بيه إلى مكتبه فوجدَ فنجان القهوة أمامه دون أن يشعر، ارتشفَ رشفتين وأغمض عينيه ليترك القهوة تسري في أوردته كالمخدِّر، وكأنه يطلب منها العون، ولم تخيبِ القهوة ظنَّه فأعطته أول المفاتيح، مادام الفاعلُ واحدًا فلا

بدّ أن يكون الدافع من ارتكاب الجريمتين واحدًا، لا بدّ أن الجاني يتمتع بقوة جسمانية عالية تسمح له بالسيطرة على الضحية وقطع لسانها في المرة الأولى وقطع كفّ الضحية الثانية، ثم النصل الذي استخدم لا بدّ أن يكون حادًا، ثم هداه تفكيره إلى أن المكان الذي ارتكبت فيه الجرائم واحدٌ في الحالتين، ورغم قلة ما حصل عليه من فنجان قهوته الذي نفد سريعًا إلا إنه كان شاكرًا له وقرّر على الفور التحرك، وزيارة مسرح الجريمتين، وجمع كل المعلومات عن الضحيتين، كما طلب ذلك من مُخبريه ومعاونيه، وفي لحظاتٍ كان مكتبه قد تحوّل لشعلة من النشاط، يلقي أوامره لهم ويشدد على السرعة قبلَ أن يصل الخبر للحكمدارية. ثمّ نادى على أحد المخبرين القدامى قائلًا له:

يا عبد ربه، نريدُ أن نزور بيت المداخن.

ضَعِقَ المخبرُ، وابتلع لعابه في صعوبة وكأنّ شوكة وقفت في حلقه فجأةً، وسأله:

متى يا محمد بيه؟

أجابه: الليلة في منتصف الليل.

كاد المخبرُ أن يغمَى عليه، فذلك المكان كان الناس يتحاشونه بعد العصر، ورئيس المباحث يريد أن يصطحبه إلى هناك في منتصف الليل، لكنه لا يملك حقّ الرفض فأومأ برأسه وهو يمنع نفسَه من البكاء، قائلاً: أوامرك يا محمد بيه.

***

## الشاهدُ الميِّت

بجوار محطة قطار (المحمودية) تقع خمارة الخواجة خريستو، رجل يوناني له كرشٌ ضخم وشنب كثٌ أشبه بالمكنسة، لا يجتمع لديه إلا قاع المجتمع ليلًا، رجل مرابٍ جمع ثروتَه من إقراض الفلاحين المتعثرين، ويبدو أنه اختار مكانًا كريهًا مثلَ وجهه لفتح خمارته وممارسة نشاطه، كان (حمدان الأبيض) أحد أهمّ زبائنه الدائمين، تمتلك أسرته طينًا كثيرًا من أراضي (المحمودية)، يجتمع كل ليلة معَ رفقائه في الخمارة للحديث والسمر، أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه كان ذا بشرةٍ بيضاء باردة كبشرة جنود الإنجليز، لقلة ذهابه إلى الحقول، مما جعل تأثيرَ الشمس عليه ضئيلًا، على عكس بقية الفلاحين التي كانت تشويهم الشمس ، يجلس كلّ ليلة هو وصحبته ليعيدوا أخبار القرية، ومَن تزوج، ومَن طلق، ومَن تملك جسدًا جميلًا، وغير ذلك من أحاديث الخمر، لكن في تلك الليلة كان الحديث مختلفًا، كان يبدو مصدومًا، وكانت أخبار ما حدث لإسماعيل وصفوان قدِ انتشرت انتشارَ النار في الهشيم، ومِن بين الحضور في الخمارة كان حمدان يجلس صامتًا يستمعُ للأحاديث دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، على غير عادته، كانت جلسته سريعة، فبمجرد أنِ ارتفعت وتيرة الحديث والتكهنات بين الجالسين عمّا حدث حتى قررَ أن ينصرف، فقابله خريستو عند الباب قائلًا بعربيةٍ ركيكة لزجة: ما الأمر يا خبيبي؟

لم يجبه حمدان وفتحَ الباب وانصرف مسرعًا، فمط

خريستو شفتيه في تعجبٍ وحزنٍ لانصراف أحدِ زبائنه الدائمين، لكن حمدان بالفعل لم يكن على ما يُرام في ذلك اليوم، كان رأسه أشبهَ بوابورٍ ضخم يحرق نفسه من التفكير، فعاد مسرعًا إلى المنزل وقطع الطريق بينَ محطة القطار والقرية بخطواتٍ أقرب إلى الجري منها إلى المشي، كأنّه خائفٌ من شيءٍ ما يطارده، وتنفّس الصعداء عندما وصل إلى مدخلِ القرية، لكنه كان عليه الابتعادُ عن المدخل الرئيسي لأن جنود الهجّانة قدِ انتشروا في الشوارع مع غروب الشمس بمجرد غرق القرية كلها في الظلام الدامس، إلا مِن بعض المصابيح الزيتية التي يحملها الهجانة في سيرهم، فاتّخذ حمدان طريقًا قريبًا من منزله الذي يطلُّ على الأراضي الزراعية، كان الطريقُ ينتهي إلى زقاقٍ ضيق يقع جانبَ بيته مباشرة، تلفت خلفه وأمامه ليتأكد من عدمِ مرور إحدى قوّات الهجانة الذين لا يجيدون إلّا لغةَ السوط لكل مَن يخرق حظرَ التجوال، خاصّة بعد حادثتي إسماعيل وصفوان، تحرك حمدان بحذرٍ لكنه ما إن وصلَ لنهاية الزقاق حتى شعرَ بحرارة غريبة تأتي من خلفه وكأنّ هناك فرنًا فُتِحَ خلفه فجأةً، ورياحٍ ساخنة تضربه من الخلف فتطير ملابسه وجلبابه، فتلفّت فزِعًا فرأى ما جعله يشهق شهقةً كبيرة، ولا يستطيع بعدها إغلاقَ فمه، كتلة من الدخان ظهرتْ أمامه من العدم لم يتبين تفاصيلها بعد، لكنّه سمع صوتَ أنفاس كأنها تخرج من صدر ذئبٍ يستعدُّ للهجوم، ثم بدأ الدخان ينقشع وتظهرُ له الحقيقة المرعبة، كيانٌ ضخم لا تظهر تفاصيله مع الظلام، لكنه أراد دفعَ الفزع لدى حمدان إلى أقصى حد،

فرفع يدَه فخرجت منها نارٌ أظهرتِ التفاصيل المريعة لوجهه، كأنه يريدُ لضحيته أن ترى وجهه الرهيب قبلَ أن يشرع في العمل، تجمد حمدان مكانه في رعبٍ وقد فتح فمه ولم يغلقه، فقد وقتَها القدرة على فعل أيِّ شيء، لم يستطع حتى أن يبعدَ عينيه عن ذلك المنظر المرعب، أو حتى يغلقهما، صارَ كالتمثال الذي ينتظر مصيره، كان ما يراه هو أبشعَ منظر رآه في حياته، وجه شديدُ السواد له جلد خشن لا يشبه جلدَ البشر، وعيون غاضبة وملامحُ تنذر بشرٍّ مستطير، اقتربَ ذلك الكيان منه في سرعةٍ خاطفة كالبرق فلفحث أنفاسه الملتهبة وجهَ حمدان، فجاهد لالتقاط أنفاسِه قبل أن يميلَ ذلك الكيان على أذنه ليهمسَ له ببعض الكلمات، اتسعت بعدَها عيناه في هلعٍ، قبلَ أن يضرب ذلك المخلوق يدَه في صدر حمدان الذي تجمّدت ملامحه، وتوقفث أنفاسه، وشهقَ شهقة قوية أخيرة، واليد تخرج من صدرِه ومعها قلبُه بلا أدنى رحمة أو شفقة.

***

في نفسِ الليلة، قبلَ تلك الجريمة بوقت قصير، وصلَ رئيس مباحث البندر بجوارِ بيت المداخن، نظرَ للمخبر المصاحب له في العربة فوجده متوترًا يتلفت يمنةً ويسرةً، فقال له: ما لكَ يا عبد ربه؟ أجابه المخبر وهو يبتلع لعابه في صعوبةٍ مرتجفًا: لا شيء يا محمد بيه، هذا المكانُ ملعون وسمعتُه سيئة، أستحلفُك بالله أن تغيرَ رأيك وألا تنزل من العربة.

ابتسمَ محمد الأسيوطي قائلًا: ابقَ أنت، ولا تنزل إذا كنتَ

خائفًا.

وبالفعل، نزل وحدَه وأغلق الباب، وغابَ وسط الظلام، كان رجلًا عنيدًا قابل في حياته الكثيرَ في كل المديريات تقريبًا، لكن هذه الحوادث دفعت الفضولَ عنده لأقصى درجة، سارَ بمحاذاة قضبان القطار حتى أصبح أمام المدخنة المُجاورة لبيت المداخن. شعرَ برجفة غريبة تسري في جسده لكنّه دفعها سريعًا مكملًا طريقه، حتى حانث منه نظرة نحوَ المدخنة، فخيل له أنه يرى شخصًا يجلس فوق المدخنة، يجلس مستقرًا مطمئنًا لا يعيره انتباهًا، ثمّ تحركت تلك الكتلة السوداء فجأةً وكأنها تلتفت إليه، وبرغم ارتفاع المدخنة خُيل إليه أن هناك عينين قويتين تخترقان الظلامَ، وتخترقان عقله كالسهم، فتجمد في مكانه بلا سبب، ولم يقدز على أن يحرّك خلية واحدة من جسده، وكأنه تحول لتمثالٍ من لحم ودم، يسمع كلماتٍ عجيبةً تتردّد في عقله لا يفهم لها معنى ، كأنه غاب عنِ الوعي للحظاتٍ ثمّ انتبه فجأة، فوجدَ ذلك الكيان يقفز من فوق المدخنة فجأة، ويسلم نفسَه للرياح، وفي لحظة كان قد اختفى بين السحب في اتجاه القرية. فقرّر محمد بيه العودة مسرعًا للسيارة، والتفتَ فإذا بضوء مصباح زيتي ينعكس على وجه غامضٍ غير واضح، فانتفضَ لما رآه، لكنه تمالك أعصابه عندما سمعَ صوتَ عبد ربه يقول له: لقد تأخرتَ يا محمد بيه. دقق النظرَ في وجه عبد ربه وكأنه يتعرّف عليه لأولِ مرّة، أو يستدعيه من بين ذكرياته القديمة، كان شعوره غريبًا مُبهمًا كأنه فقدَ ذاكرته للحظات ويعيد

ترتيبها فما كان منه إلا أنْ قال للمخبر:

كم تأخّرت؟

قال له المخبر في تعجُّب: ساعة كاملة.

فرفعَ محمد الأسيوطي حاجبيه مُتعجبًا من ردِّه، ونظر في ساعته فوجد بالفعل أن الساعةَ قد تجاوزتِ الواحدة صباحًا، لم يكنْ يستطع أن يخبر عبد ربه بشعوره، لكنّه تصنّع المعرفة واستجمع شتاتَ نفسه وقال له: هيّا بنا. ثمّ أردف عبد ربه فجأة: ولكنْ أين سلاحُك الميري يا محمد بيه؟

كان سؤالًا كالصاعقةِ حاولَ الأسيوطي أن يستوعبه وهو يتحسّس جنبه، فلم يجذ سلاحه بجِرابه المعتاد، كان متأكدًا أنه كان في مكانه عندَ نزوله من العربة، فلم يجد إجابة أبدًا عنِ السؤال، ولم يردّ عليه حتى لا يُشاع أن فقد سلاحه وتجاهله قائلًا: أسرغ من هنا. كان عبد ربه يحاول أن يستجمعَ أنفاسه وهو يلهثُ خلف محمد بيه الذي بدَا مشيُه أقربَ للجري متجهًا إلى العربة، وما إن لحقَ به حتى سأله في توتر: إلى أين نتّجه الآن؟ إلى البندر؟

قال له محمد بيه شاردًا: لا، سنمرُّ على (المحمودية) قبل أن نعود للمركز.

لم يكنْ يعلم أنه اتخذَ القرار الخاطئ عندما جاء لهذه البقعة ليلًا متحديًا ما يجهلُه، لكنّ عقابه كان سريعًا، وإنْ كان به شيء من الرحمة، كان يدرك جيدًا أن مسدسَه كان معلّقًا في جِرابه قبل أن يخرج من المركز، لا يدري أينَ اختفى ولا

ماذا حدثَ له في الساعة التي تجمّد فيها مكانه!، كانت المرة الأولى على مدى عشرين عامًا قضاها في البوليس يقوم بحلّ القضايا التي يعجز عنها الآخرون التي يقابل فيها عدوًّا أو مجرمًا بهذا الشكل، وكأنه أرادَ أن يحذره ويتلاعب به. ما إن اقتربتِ العربة من شوارع (المحمودية) حتى فوجئت بمجموعة من إبل الهجانة تقطعُ عليهم الطريق لمنعهم من المرور، وفي يدهم المشاعل، فأخرج رئيس المباحث رأسَه من العربة قائلًا لهم: محمد الأسيوطي.. رئيس مباحث البندر.

وعلى الفور اعتذرَ رئيسهم له، وفتح الطريقَ في لمح البصر، لكنه ما إن دخل إلى شوارع القرية حتى فوجئ بحركةٍ غريبة برغم أنّ الوقت قد تجاوز منتصف الليل واقتربَ من الفجر، كانتِ الشوارع غارقةً في الظلام الدامس إلا من أضواء بعض المصابيح في يدِ جنود الهجانة تتحرك هنا وهناك في توتر، كانت المرة الأولى التي يزور فيها القرية ليلًا لكنّ إحساسًا غريبًا ساورَه وهو يرى تلك الحركة المُرتبكة في تلك الساعة المتأخرة، فقاده أحدُ أفراد الهجانة لدوّار العمدة عبد الرحيم عزب، فوجدَ العمدة يقف أمام الدوار متوترًا يرتجفُ وحوله بعض الغفراء، ففوجئ برئيس المباحث شخصيًا أمامه، فهبّ في رعب لاستقباله، وبعد الاستقبال الحافل- والذي كرهه الأسيوطي في نفسه- بادره العمدة قائلًا في تعجبٍ: كيف علمتَ جنابَك بأمر الجريمة الجديدة؟ الإشارة بعثت منذ لحظات فقط! نظرَ إليه الأسيوطي متجهمًا، ثمّ قال وهو يشعل سيجارته في بطءٍ لا يخلو من التّوتر بعدَ ليلته

الغامضة: أي جريمة تقصد؟ قام العمدة على الفور من مكانه وهو يبتلع لعابَه في صعوبةٍ قائلًا:

لقد وجدَ الهجانة حمدان مقتولًا بالقرب من بيته.

توتّر الجو أكثرَ وأكثر، وفي لحظاتٍ تحرك الأسيوطي بسيارته في اتجاه الجريمة الجديدة، فوجدَ مجموعة من الخفراء والهجانة يحيطون بالجسد المقتول، وبرغم أنهم غطّوا الجسد إلا إنّهم أعطوه ظهورهم، وكأنهم يخافون أن ينظروا إليه، بدَا أكثرهم شجاعة يرتجف كالعصفور الذي بلّلهُ المطر، حمل محمد بيه مشعلًا واقتربَ من الجثة، والجميع يضعون أيديَهم فوق قلوبهم عند كشفه للملاءة التي غطّوا بها الجثة، فوجئ بالجسد الممزّق من منطقة الصدر بشكل مُريع، فامتقعَ وجهه هو الآخر وعقدَ حاجبيه في صمت وهو يجول ببصره في الجثة، ما جذبَ انتباهه هو النظرة الرهيبة التي رُسمت على ملامح الجثة وتجمّدت بعد الوفاة، كان الأسيوطي موقنًا أن القتل هنا لم يكن الهدفُ منه القتلَ لذاته، إنما كان الهدفُ منه الرعب والترويع أولًا وأخيرًا للقتيل وللجميع.. بلا استثناء.

***

الجريمةُ الأخيرة قضت على آخر ما تبقى من شجاعة الناس في (المحمودية)، كان الفزع يلتهمُ قلوبهم، ولم يشعر واحدٌ منهم بالأمان على نفسه وعلى أولاده، وخلت خفارة الخواجة من زبانيتِها، ولجأ الجميع إلى منازلهم ولم يخرجوا إلا

للضّرورة، في الصباح الباكر لم يكنِ الطبيب الشرعي قد وصل بعد، فأحاط العسكرُ بالجثة، ومنعوا الجميعَ من الاقتراب، إلا ذلك الغلام الشقي الذي تسلل وألقَى نظرةً قريبةً عليها، والذي كان وصفه لما رآه مريعًا على صغر سنّه، لم يصفْ لهم الدماء ولا الأشلاء لكنّ وصفَه كان منصبًا على النظرة المتجمدة على وجه حمدان الأبيض قبلَ موته، مما جعل الجميعَ يتخيلون آخر ما رآه ذلك الوجه قبل موته، وبقيَ السؤالُ يضرب رأسَ كلَّ مَن في القرية، من أو ما الذي يطاردهم؟

***

وقفَ الطبيب الشرعي أمامَ جثة حمدان في مشرحة المستشفى الأميري يتأمل في عجبٍ ذلك الجرحَ الغريب، الذي لم يرَ مثله قبل ذلك، فجوة كبيرة مستديرة كأنما قُطِعت بقاطع حديديٍّ مستدير حاد، الغريب حقًّا كان في أطراف الجرح التي بدتْ وكأنها مُحترقة، تغيُّر لون الدماء ونسبة تجلطه يدلان على أن الأطراف تعرّضت لحرارة شديدةٍ أكثرَ من بقية الجرح، كان الطبيب متعجبًا مما يرى، فبرغم أنه أَلِف عملَه بين الجثث والموتى وبرغم خبرته التي جعلته يصادف أكثر الحوادث بشاعة، إلا إنّ هذه الحادثة تختلف في هيئتها وطريقة ارتكابها، نظر الطبيبُ نظرة طويلة للفجوة التي حدثتْ في الصدر بفعل شيءٍ مجهول، وحاول إدخالَ يده في الجرح لمعرفة مدى عُمقه، ومحاولة حتى بشكل مبدئٍ تحديد سببه، إلا إنّ ما اكتشفه بالمُعاينة الأوّلية للجثة جعله يقسم أنها من أندر الحالات التي قابلها في حياته، كان

القلبُ مفقودًا بالكامل، كأنّما انتزع انتزاعًا من مكانه، إلا إنّ الأغربَ لم يكن قد ظهر بعد، فقدِ اصطدمت أطراف أصابعه بشيءٍ صلبٍ داخلَ التجويف الصدري للجثة، حاول تحسسه فاتسعت عيناه من الدّهشة وارتفع حاجباه في غرابة؛ لأنّ ما وجده داخل الجثة يستحيل أن يتواجَد داخل جسدِ إنسان، وبعدَ محاولات ودقائق عصيبة استطاع إخراجه، تأمّله في يده غيرَ مصدِّق لما يرى، كان يفكر كيف سيكتبُ ذلك في تقريره؟، فتمهّل ثمّ فكر في إجراء اتصال هاتفي بمحمد الأسيوطي رئيس المباحث، الذي حضرَ على الفور، متجهمًا كاشرَ الوجه بعد الليلة العصيبة التي قضاها بالأمس، إلا إنّه شعر بخطورةِ استدعاء الطبيب الشرعي له شخصيًا على غير العادة والعرف، فقد كانَ التقرير النهائي يُكتب ويرسَل للنيابة، وتتولى المباحث البحث، إلا إنّ شكوكَه تحققت عندما دخل إلى مكتب الطبيب الشرعي فوجده مستندًا على كرسيه يحاول استجماعَ أفكاره، فنهض على الفور مستقبلًا محمد الأسيوطي الذي سأله:

ما الأمر الهامُّ الذي تريدني فيه؟

وضعَ الطبيب أمامه لفافةً مغطّاة بالدماء، قائلًا في حسم: لقد وجدت هذا داخلَ التجويف الصدري للقتيل. ثمّ فتحها وهو يرتدي قفازين، فهبّ محمد الأسيوطي واقفًا كأنما لدغَه عقرب عندما رأى ما بها، فقد كان ما بداخل اللفافة هو سلاحه الشخصي الذي فقدَه عند المداخن في نفس الليلة السابقة.

***

# (سلام)

في وسط هذه العتمة، ووسط حالةِ الجنون المنتشرة في كل أنحاء (المحمودية) كان هناك (سلام)، معشوقُ الأطفال في كُتّاب الشيخ أيوب، تلميذ الشيخ أيوب النّجيب الذي درسَ في المدرسة العليا في القاهرة، يستعين به الشيخ ليقف مكانَه في الكُتّاب حتى يعودَ من البندر، يحكي للأطفال حكاياتِ ألف ليلة وليلة والشاطر حسن، ويمثّل لهم وهو يحكي القصص، فكأنّهم يرونها بأعينهم رؤيا العين، وكانت هذه هي أكثرَ مُتع الدنيا بالنسبة لهم، فقد كان الشيخ أيوب صارمًا وجادًا لا يقبل الخطأ ولا الهزل، لذا فقد كانت أسعدَ أوقاتهم عندما يخبرهم أنه سوف يذهب إلى البندر غدًا لقضاء حاجة له، فيتهامسونَ وينظرون لبعضهم والسعادة تضيء وجوهَهم، فمعنى هذا أنّ الأستاذ سلام- كما كانوا ينادونه- سوف يأتي إلى الكتاب غدًا حتى يعودَ الشيخ أيوب، كان يأخذهم معه إلى عالم سحريٍّ من الحكايات، لم يكنْ أطفال الكتاب يفهمون سببَ كره الناس لسلام، ربّما لكونه مختلفًا عن أهل القرية في ذلك الزمن، مما جعل منه شخصًا غريبًا بينهم ومنبوذاً، كان أكثرهم طهارةً ونقاءً، كأنه نبيٌّ بُعث غريبًا في قومٍ لا يجيدون لغتَه، ما إن يخرج من بيته حتى تتبعه العيون في ترقبٍ تارة وفي سخرية تارة أخرى، فلم يكن يختلطُ بأهل القرية كثيرًا، يفضل العزلة والسير وحده، فكانوا يراقبونَه وهو يخطو في هدوءٍ على الأرض كأنه يرأفُ بحالها من ثقل ما تحمل من خطاياهم، لا يكاد

يرى نظراتِهم المستهزئة، ولا تسمع منه إلا همس التّسبيح، ربما رفضوه لأنه ليس مثلهم، كأنه جاءَ برسالته إليهم في زمن ليس فيه مؤمنٌ واحدٌ بالطهر والإحسان، كلهم بلا استثناء لم يؤمنوا إلا بدنسهم وما ألفوا عليه آباءهم، لم تكنْ صلاتهم تغني عنهم شيئًا، وكأنها مكاءٌ وتصدية، يفرغون منها ويتسابقونَ للذهاب لخريستو ليقرضَهم بالفايظ، ولا يجدون غضاضة في فعل أيّ شيءٍ، بحجّة أنهم جميعًا يتشاركون في نفس الإثم، بريق الذهب المُتنازع عليه في الأرض التي يتقاتلون عليها أعماهم، وحلل لهم كل ما كان محرّمًا عليهم، كلُّ شيءٍ مباح طالما سيوصلهم لأحد المساخيط الذهبية التي تسكنُ في باطن الأرض، الوحيد في القرية الذي لم يكن مهتمًا بذلك النزاع هو سلام، يرفض حتى الحديث عنه أو المشاركة في الجدال حوله، يرفض دائمًا أن يقفَ في صفِّ أحد المتنازعين مما جعله مكروهًا من جميع الأطراف، وبرغم هذا فقد كان أكثرَ المطمئنين في تلك القرية الملعونة.. في أواخر العشرينيات من عمره، ما إنْ تراه حتى تشعر أنه هاربٌ من زمن آخر، يحمل في جيبه الحلوى لصغار القرية الذين يجتمعونَ حوله عندما يدخل أي شارع من شوارعها، يجذبون أطرافَ ثوبه المتواضع، كان جميل المحيا دائم الابتسامة والتي كانت تُقابَل بعبوس دائم من الناس. أنهى دراسته في القاهرة وعاد للقرية للعمل في قطعةِ أرض صغيرة يملكها أبوه الذي لم يرزَق من الدنيا بغير سلام، وبجانب هذا كان يساعد الأطفال في كتاب الشيخ أيوب.. يعلّمهم في غياب الشيخ، ويحكي لهم قصصَه الجميلة، والتي كانوا يتجمدون

عند سماعها، فكانت هذه الحكايات هي الجائزة التي ينالها المتفوّقون منهم، كان قلبه يفيض بالحبور لكل الدنيا، يمشي فيخافُ أن يطأ بقدمه النباتات أو أسراب النمل على الطرقات، بعضُ الناس كانوا ينعتوه بالمجذوب، فيردُّ إساءتهم بالصمت والابتسام، لم يكن يراهم أعداءَه أبدًا، بل مساكين لا يفهمون، يحاول التقرب منهم في رفقٍ، وإذا أعرضوا عنه قال (سلامٌ عليكم) وتركهم، ولكنْ من بين القرية كلها كانت هناك عيونٌ سوداء جميلة تراقبه في صمت، وجه صبوح كنور الشمس البهي، فتاة في مقتبل العمر، أشبه بقطرات الندى، (زينب) التي لا توصَف، كان الجميع يتمنى أن تمرّ فقط من أمامهم، مخلفة الفراشات و رائحة الحدائق خلفها، عاشت هي الأخرى إحساسَ الغربة في ذلك المكان الكئيب، تزعجها أصوات السوق والبائعين الذين يتناحرونَ مع المشترين كأنهم جميعًا شياطين تمشي على الأرض، كانت تراهم وتُقسمُ في نفسها أنهم ليسوا بشرًا مثله، حتى رأت سلام يمشي وحيدًا في يومٍ فخطف قلبها وكأنه جاءَ من عالم آخر، فكانت تراقبه وكأنه الشمسُ التي تنير حياتها، فسامحتِ الكلّ، وتحوّل الجميع في عينيها لملائكة إكرامًا لظهوره في حياتها، فأخذتْ أختها الصغرى وذهبت إلى كتاب الشيخ أيوب أثناءَ غيابه، فرأتْ سلام من النافذة وقد وقف أمام الأطفال يحكي لهم قصة السندباد البحري، والأطفال كأنهم تحوّلوا لتماثيل من الحجارة من فرط انتباههم، وهو يمثّل لهم معارك السندباد البحري، فكأنهم يرونه يصارع الوحوشَ البحرية الخرافية أمامهم، وكأنّه أخذهم إلى الصحراء لمشاهدة بحث السندباد

عن الكنوز، وقفت هي الأخرى تنظر إليه وتتأمل وجهه من النافذة، وهو مندمجٌ وصيحات الإعجاب الصادرة من الأطفال تزيده حماسةً، فلم ينتبه لها في بداية الأمر، حتى حانت منه التفاتة ناحية النافذة فرآها وقد تسمّرت مكانها تتأمّل وجهه، ولشدة سرحانها لم تُنزِل عينيها للحظات عندما نظر لها، ثم انتبهت أنه أصبح يراها، فاحمرّ وجهها وكادت الدماء أن تنبثق منه من شدة خجلها، وأخيرًا حركت قدميها المتسمرتين في الأرض، ودخلت إلى الكتاب فاستقبلَها في هدوء قائلًا: تفضّلي.. هل تريدين الشيخ أيوب؟ هزت رأسها مشدوهةً وقد فقدتِ النطق، فقال لها وهو يخرج قطعة من الحلوى ويعطيها لأختها الصغيرة التي نسيت وجودها: لقد ذهب إلى البندر وسوف يعود في العصر. فتمالكت نفسها أخيرًا وهي تدفع الكلماتِ من حلقها دفعًا لتتمكن من النطق ثمّ قالت: أبي يريد منه أن يقبلَ أختي في الكُتّاب. هزّ رأسه متفهمًا وهو يفسح الطريقَ لأختها الصغيرة لتدخل قائلًا: أخبري أباك أنها قُبلت وسوف أخبر الشيخ أيوب عندما يعود. فقالت له وهي تكاد تفقد الوعي: شكرًا يا أستاذ سلام. فرفعَ حاجبيه في دهشة قائلًا: وتعرفين اسمي أيضًا! قالت وهي تنظر للأرض: أراك تمرُّ من شارعنا كلّ يوم، ألست ابنَ عمي عبد الله أبو حسين. ابتسم وهو يُخرج من جيبه قطعةً أخرى من الحلوى ويُعطياها لها قائلًا: هل لي أن أسأل عن اسمك؟، فانفرجت أساريزها قائلة: زينب.

وانصرفت مسرعة تكاد أن تسقطَ على وجهها من الارتباك،

تسأل نفسها كيف جاءتها الجرأةُ لتفعل ما فعلت؟ كيف ظلّت قبلها يومين كاملين تحاول أن تقنع أمّها أن أختها لا بدّ أن تذهب للكتاب للتعلم وللحفظ كبقية أبناء القرية؟، يومان كاملان تضع خطتها وتنسجُ هذه الحيلة لتقتحم عالم ذلك الشاب الغامض، كان ذلك اللقاءُ القصير كفيلًا بوضع بذرة الحب التي مدت جذورها للأرض السابعة، كأنّهما روحان هاربتان من عالم آخر وقُدّر لهما اللقاء في ذلك العالم الموحِش، كانت ابنة الثامنة عشر قد أسرته، فما هي إلا مراثٌ قلائل اصطحبث فيها أختها الصغيرة للكتّاب، حتى عرفت وأيقنت أنّ مصيرهما أصبح واحدًا، وكذلك سلام الذي رأى فيها ما لم يره في أحدٍ من قبل، كانت مشكلته في الحياة أنهم لا يفهمونه، كانوا يظنّون صمته وطيبته دربًا من الخيبة والضعف، كان يراهم مساكين لا يفهمونَ كم هي قصيرة أعمارهم ليضيعوها في كرهٍ وحقدٍ وتشاحن، يريد أن يحيا في زمنٍ يكون فيه الإحسان هو العُملة التي يتعامل بها الناس فيما بينهم، فلمّا قابل زينب وجد أخيرًا إنسانًا يشبهه، فلم يعد هناك مجالٌ للشك ولا للانتظار، فقد وجدَ نفسه أنه لم يعد يركز فيما يفعل، ولم يعد يرى الأطفالَ أمامه، فقد شغلت كلّ تفكيره حتى فشل تمامًا في فعل أي شيءٍ اعتادَ على فعله سابقًا، وفجأةً انقطعت زينب عن زيارة الكتاب، حتى أختها الصغرى أصبحت تأتي مع أحد إخوتها الذكور، فشعر أن الدنيا أظلمت أمامه وقرّر أن يدخل ذلك البيت ليختطفَها ويهرب بعيدًا عن عالم البشر، فأخبر أباه برغبتِه في الزواج فَرَحّبَ على الفور برغم ضيق اليد، فقد كان يريد مكافأة هذا الولد

الصالح الوحيد الذي ما قالَ له يومًا لا، ولا عارضه في شيءٍ قط، أراد أن يرى السعادةَ في عينيه كما كان يحب ابنه أن يراها في وجوه الناس، وكأن الدنيا قد أرادت أن تكافئ قلبَ سلام الطاهر، ففتحت له باب السعادة بدون مقدّمات، شهور قليلة وتمّت خطبته على زينب والتي كانت تشبه الزهرة التي أينعتْ في ذلك المكان القميء، لم تتردّد في معارضة والدها عندما رفض سلام بحجةِ أنه غريبُ الأطوار وفقير، ولأولِ مرّة يرضخ الأب العنيد لرغبة ابنته الفولاذية والتي أحسّ أنها على استعداد لمحاربة الدنيا كلها من أجله، لكن هيهات.. فكيف يفوزُ بها سلام المجنون كما كان بعضهم يسميه، كم من خطّاب وقفوا ببابها فردّتهم بلا سبب، كانت ترى أنهم لا يرون فيها غير جسد أنثى، لم ينظز أحدهم لقلبها، حتى رأتْ سلام أمامها، فكأنه جاء ليسقي قلبها المشتاق للحب، لم يكنْ أغناهم أو أجملهم لكنّه كان يملك قلبًا فريدًا لا يجود به الزمان كثيرًا، وبعد عام تمّ زواجهم في مشهد غريب حضره الأهل فقط ورفض حضوره الكثيرون، فأحيانًا لا يكون هناك سببٌ للكره، تجده ينتشر في الهواء، فكم من أناسٍ ذهبوا إلى والد زينب يحاولون أن يقنعوه بعدم الموافقة على زواج ابنته مِن ذلك الشاب الملْبوس، ربما لأنه تخطى أحقادَهم وسبق الجميع بإحسانه، حتى حضرَ حفل زفافه الكثير من الأطفال الذين كانوا يهيمون به، ربما لأن قلوبَهم لم تشربْ من ماء القرية بعد، كان سلام وزينب لا يشعران بالدنيا من حولهما من الفرح، الوحيد من خارج الأسرة الذي حضر زفافهم هو (حبيب المجنون)، مشردٌ وجدَه سلام في ليلة شتاء يرتجف

بين الحقول بملابس ممزقة، كان الجميع يخافونَ أن يقتربوا منه، وعندما ظهر أول مرة في القرية خاف منه الناس لأنه كان في حالةٍ مُزرية، على جسده آثارُ جراح قديمة تشبه السياط، لا يعلم أحدٌ ما سببها له، فكانوا يتجنّبونه عندما كان يسير في شوارع القرية يطلب الصدقةَ والإحسان والطعام بلغته المتلعثمة، فلم يجد منهم إلا الصد والنبذ، لم يجد إلا من يقدّم له طعامًا رديئًا وثوبًا باليًا حتى يتخلصوا من صوته الكريه إلى نفوسهم، نبذوه كما نبذوا سلام مِن بعده وكأنهما من جلدة أخرى، حتى عاد سلام إلى القرية بعدما انتهى من دراستِه في القاهرة، وكان من عادته أن يخرج ليلًا للسّير بين الحقول التي كان الجميع يتحاشونها ليلًا، فتغير الجو في تلك الليلة وبدأتِ الأمطار تهطل في شدة، فهمّ بالعودة سريعًا، لولا أن شعر بحركة غريبةٍ بين الزراعات، وشعر أنّ هناك من يراقبه في الظلام، حدق سلام النظر ليتبيّن مَن الذي يتحرك، فشعر بصوتٍ بشري يهمهم بكلمات غير مفهومة، فاقتربَ منه في رفق وأزاح النباتات التي يختبئ خلفها، فوجده يرتجف من البرد، وقد كشفت ملابسُه الممزقة أكثرَ ما سترت، حاول أن يقترب منه لكنه قرأ الفزع في عينيه فقال له في رفق: لا تخفْ يا صديقي فلن أؤذيك. نظر إليه الشاب نظرة حائرة، وكأنه أولَ مرة يسمع كلامًا لينًا صادقًا، لم يصدق أنه لم ينادِهِ بالمجنون وأنه لن يضربه أو يقذفه بالحجارة كبقيّة الناس، وقال له "يا صديقي"، مدّ سلام له يدَه ليخرجه من الأرض الزراعية الموحلة التي يختبأ فيها، فنظر إليه الشاب نظرةً حائرة خائفة فقال له سلام مشجعًا: هيّا اخرج ولا تخف..

الجوُّ قارص البرودة هنا. مشاعر سلام الصادقة لم تخطئ الطريق، فالمحسنون يجيدون دائمًا الوصولَ باللين لغيرهم، مدّ له الشاب يده المرتعشة المليئة بطين الأرض، فوجدَه سلام لا يستطيع وضعَ قدمه على الأرض من إصابة شديدة فيها، فلم يتردّد وأمسكه في قوة وجذبه في بطء ليشجعه على الحركة والخروج، ووضع يدَه على كتفه لمساعدته على الحركة وسار بجواره وهو يرتعش، فخلع سلام عباءةً من الصوف كان يرتديها، وألبسها له فشعرَ الشاب بدفءٍ لم يشعر به منذ أنْ ألقاه حظه في تلك المنطقة، لكن السماء بدأتْ سريعًا تزمجر وبدأ المطرُ الغزير في الهطول بلا توقف، فأمسك سلام بيدِه قوة ليمنعه من السقوط في الأرض الموحلة، وقال له: هيّا بنا قبل أن يغلق المطر الطريق. لم يكن الشابُّ قد تكلم كلمةً واحدة، ولم يسمع سلام حتى صوته، ففوجئ به يقول في صوت رخيمٍ قوى لا يتناسب مع هيئته الرثة: إلى أين يا سلام. توقف سلام في تعجبٍ ونظر إليه قائلًا:

كيف عرفت اسمي وأنا حتى لم أعرفْ اسمك؟ أجابه الشاب: اسمي؟ لا أذكر لي اسمًا.. كلُّ ما أذكره أني وجدتُّ نفسي في الشوارع والطرقات لا أعلم شيئًا عن حياتي السابقة.

مطّ سلام شفتيه قائلًا: لا عليك يا صديقي.. اسمك منذ اليوم هو.. حبيب.

كان الشابُّ يتأمل ملامحه وكأنه يرى جنسًا جديدًا من

البشر لم يقابله من قبل، أخذَه سلام إلى المنزل، أدخله إلى الحمام ووضعَ له إناء فيه ماءٌ ساخنٌ وطلب منه أن يستحم، ووضعَ له ملابس جديدة ليرتديها، وعندما خرج وجد سلام قد أعدّ له فراشًا في غرفته المتواضعة المليئة بالكتب، وحاول جاهدًا أن ينظف جرحَ قدمه الغائر ولفّه بقماشة نظيفة، فنام حبيب على نومًا لم ينم مثله من قبل، ومنذُ ذلك اليوم أصبح الاثنان أصدقاء، وإن كان حبيب يغيب بالأيام ثمّ يظهر ثانية فلا يسأله سلام أينَ غاب، لكنه كان يرى الحبور والشكر في عينيه دائمًا.

فلمّا ذهب سلام يخطب زينب هوَ ووالده نظر إليه والدها في شكٍّ قائلًا: ومن أين ستنفق عليها؟ أجابه والدُه في توتر: مِن أرضنا يا أبا زينب. قال له والد زينب ساخرًا: أيّ أرض يا رجل التي تتحدث عنها.. إنها قيراطان وبالكاد تكفيك، وقبل أن يكملَ هجومه ويُبدي رأيه بالرفض، والذي أعدّه مسبقًا في نفسه وجد زوجته تشيرُ له من زاوية خلفَ الباب لا يراها الضيوف فاستأذنهما، وقام فوجد زينب تقف أمامه كالتّمثال قائلة: أنا موافقة يا أبي. نهرَها في غضب قائلًا: اخرسي وإلا دفنتك مكانك. لم تهتزّ زينب قيدَ أنملة أو تتزحزح، وقامت بشيءٍ مجنونٍ لم يصدّقه أبوها، اقتربث منه وهمست له في أذنه قائلة: أقسمُ برأسك أني سأقتل نفسي بيدي إن لم توافقوا عليه. رمقَها أبوها في صمتٍ بنظرة طويلة فاحصة تتطاير بالشرر، فاصطدمَ بصرها ببصره الحازم فلم تنزل عينيها في تحدٍّ لم يرهُ عليها من قبل، ثمّ قام منصرفًا وصفق

الباب خلفه. وبعد عام تم الزواج، لكن والدها أقسم أنه لن يدخلَ لها بيتًا مادام حيًا، لم يفهم الرجل معنى أن تساوم إنسانًا على حياته، معنى أنْ يرفض سلام هو أن يوافق على غيره، يلقيها إلي أي رجلٍ آخر بورقةِ الزواج لينهشها ويغتصبَها كالذئب، هكذا كانت ترى زينب أي رجلٍ في حياتها غير سلام، لن يكون إلا مغتصبًا لها ولكن بالشرع والقانون، لذا فلم تملك خيارًا آخر غير ذلك التهديد الصريح، لكنّ ابنة الثامنة عشر كانت أصدقَ بصيرة من أبيها، فلم تخسز رهانها على اختيار سلام بل وإعلان العصيان على الجميع والتهديد والوعيد، فما يختارُه القلب الصادق لا يخيب الأمل والرجاء فيه أبدًا. بعد زواج سلام وزينب تحولت الدنيا أمامهما بكل ما فيها من شرورٍ وأحقاد إلى جنان وبساتين، وكأنهما بنيَا عالمهما الخاص، يخرجان للحقول كلّ يوم للتنزه كالأطفال، تجلس زينب على صخرة مرتفعة تحت شجرة كبيرة، ويقفُ أمامها سلام يحكي لها حكاياتِ ألف ليلة وليلة بأسلوبه الآسر، وهي كطفلة تجلس أمام معلّمها مدهوشة، تفيض نظراتها بالحب والهيام بهذا الجميل الذي لم يفزْ به سواها، عالم أبيض كبياض السحب عاشا فيه سويًا، لم يعكر صفوه سوى المكان الذي يعيشان فيه، لم ينتبهَا للعيون الكارهة التي تحيط بهما من كلّ مكان، يا ليتهما هاجرَا بحبهما لأعالي الجبال التي لا يسكن فيها البشر، أو إلى الصحاري التي تسكنُها الضواري والسباع، والتي سيكون لهيبها حتمًا أحنّ عليهما من قلوب من حولهما.

في الرابعة عصرًا وأثناء مرور سلام وزينب لجلستهم المعتادة وسط الحقول، مرّوا على مقهى قديم في القرية يجتمع فيه بعض من الأهالي، اجتمع فيه في ذلك اليوم صفوان العرضحالجي وحمدان الأبيض وإسماعيل، نظر حمدان لها يأكلها أكلًا بعينيه وهي تمرُّ أمامهم، ثم قال لصاحبيه: كيف لهذه العصفورة أن تختارَ هذا المجنون وتفضله على كل مَن تقدّموا لها؟، أجابه صفوان وهو يتأمّلها: معك حق، عصفورة كهذه كنا نحن أحق بها من ذلك الغراب.

قال لهما إسماعيل: أقسمُ أنه ملبوس، أما تراه يحدث نفسه عندما يسير وحده.

ضحكَ الاثنان حتى بدتْ أسنانهما الصفراء وخرجت من خلفها أنفاسٌ كريهة مفزوجة بوسواس الشياطين التي تملأ كلّ شوارع الملعونة، ولو كنتُ حاضرًا وقتَها لسكبت الماء المغلي في حلوقهم ليفقدوا النطق للأبد، ولأخرجت أمعاءهم وشنقتهم بها، القتل في كفي كالسّلام في كفك، هذا لو كنتَ من أهل السلام ولم تكنْ محلهم تستحقُّ التمثيل بجثتك، ولناديت على ذلك المسكين قائلًا له:

اهربْ بحبك إلى حيث لا تجدُ البشر، مسكين أنت.. أخطأت خطأك الأكبر بالبقاء في ذلك المكان الملعون.

***

في الليل، استيقظ سلام على صرخةِ زينب تشقُّ سكون الليل كسيفٍ مسموم، فهبّ من نومه فزعًا يحتضنها ليهدأ

من رؤعها ومن انتفاضة جسدها كالمحمومة بلا سبب، كانت ترتجفُ والعرق يغرق جسدها، كالتي خرجت لتوّها من سباق طويل، لم تصدقْ أنها كانت تحلم وأنّه مازال معها، كانت المسكينة تشعر بأنّ رياحًا عاتية في الأفق سوف تقتلع عرشَ بيتها، وتسلبها سعادتها التي لم تطلّ كثيرًا، رأت في منامهما سلام مصلوبًا عاريًا على شجرةٍ، وقد مزق الناس ملابسه، ولم يبق عليه ما يستر سوأته، كانت وجوههم أشبه بوجوه الشياطين وهم يضحكونَ ويتقافزون حوله كالقردة، يعذبونه ويقذفونه بالحجارة، ويهينونَ إنسانيته، وكأنه ارتكب أعظم جرائم البشرية، كان المشهد مرعبًا، والعجيبُ أنها كانت تحاول نجدتَه في الحلم، كيف لشخصٍ يحلم أن يعرف أنه يحلم؟ بل كيف كانت تحاول التدخلَ لإنهاء معاناته حتى في الحلم؟، وكأنها كانت تنظرُ لصفحة من زمنٍ لم يحدثْ بعد، ثمّ استيقظت أخيرًا لتنهي محنتها معَ ذلك الحلم البغيض.

احتضنها سلام قائلًا: هوّني عليك يا زينب، إنه مجرد حلم.

نظرتْ إليه نظرةً طويلة متأملة وكأنها تودعه، ثمّ انفجرت باكيةً في أسى غير مفهوم، فاحتضنَها مرة أخرى وهو يمسح على شَعرها ويهمس لها في أذنها: لا تخافي.. أنا دائمًا معك.

في الصباح وجدتْ زينب الوقت ثقيلًا كأنه صخورٌ تمر من فوق صدرها، انتظرت عودة سلام من الحقل، ومن كتّاب الشيخ أيوب ليخرجا سويًا للتنزه كباقي الأيام، فقضيَا يومهما كالمعتاد وإن ظلّت ساهمة واجمة لا تكاد تسمع ما يقول، كان قلبها قويًا صادقًا لذلك كانت تخاف منه؛ لأنه لا يكذب، وكأنه

أخبرها بما لا تريد أن تصدقَّه، حاولت أن تنفضَ ذلك الهاجس عن رأسها، فحاصرها حتى كادَ يدفنها تحت وطأة الفكر الذي لا يتوقف، نظرت لسلام وهو نائم بجوارها متسائلةً: تُرى ما الذي تُخفيه لنا الأيام يا سلام؟، فشعر بها وبحركتها المُتململة في الفراش، ففتح عينيه وكأنه هو الآخر كان يتصنع النوم ليشعرها بالراحة، فنهضَ جالسًا بجوارها، وعلى ضوء السراج القديم في غرفتهما رأى وجهَها غارقًا في الدموع، فمدّ يدَه ماسحًا على وجهها قائلًا لها: رفقًا بنفسك يا زينب، لا تتركي الشيطانَ يتلاعب بعقلك. ارتفع بكاؤها لحد النحيب وهي تقول: ليتني أستطيع.

وفجأة، شقَّ السكون طرقات قوية على شباك الغرفة من الخارج، جعلته يعقد حاجبيه متسائلًا عمّن يطرق شباكه بعد منتصف الليل، فقام منتفضًا ناحية الشباك قائلًا: مَن بالخارج؟. فوجئ بصوت لاهثٍ يقول له في صوتٍ منخفضٍ لم تسمعه زينب حتى: اترك بيتك الآن يا سلام؛ إنّهم قادمون. لم يفهم شيئًا مما قالَه ذلك الصوت الغريب، فخرجَ من باب البيت يبحث عن مصدره، مرت نصفَ ساعة ولم يدخل سلام إلى المنزل مرةً أخرى، فقامت زينب تبحث عنه، فوضعتْ طرحتها على رأسها وأخذت مصباحًا زيتيًا وخرجت، فلم تجد له أي أثر، فبقيت تجلس أمام البيت تنتظره في قلقٍ، مرّ الوقت ثقيلًا عليها وهي تتلفّت يمينًا وشمالًا، هكذا حتى طلع الفجر... وبدأ الفلاحون يخرجون لحقولهم، فدخلت إلى منزلها وتركت الباب مفتوحًا وظلت ترقبه علّه يعود، لكنه لم

يعد.. أبدًا.

***

أسبوعٌ كامل نبشت فيه زينب الأرضَ بحثًا عن سلام، الذي اختفى فجأة بغير سبب، فلم تجد له أثرًا كأن الأرضَ ابتلعته، ذهبت إلى أبيه فهبّ مفزوعًا للبحثِ عنه، لكن كلُّ محاولاته باءت بالفشل، فذهبَ للعمدة يطلب منه المساعدةَ لكنّه قال له ساخرًا: لعله ذهبَ لزيارة أصدقائه من مجاذيب البندر.

أجابَه والد سلام في انكسار: كان سيخبرنا يا حضرةَ العمدة إذا ذهب لأي مكان.

ردّ عليه العمدة في ضجرٍ: سوف نرسل إشارةً إلى المركز للبحث عنه. مرّ أسبوع آخر ولم يظهر سلام، وزينب لا يجفُّ لها دمع، وكأنّ حدسَها قد تحقق، ولكن بعد أن قسمَ ظهرها، كان قلبُها يخبرها أنه ليس بخير، كانت تراه في كلِّ ليلة في أحلامها على نفس الهيئة التي رأته فيها سابقًا في حلمها، يعاني وحيدًا، وهي تفشل في رفع الأذى عنه. كان هذا الحلم أشدّ كربًا عليها من يقظتِها والبحث عنه، الآن وقد تحققَ فعصفت بها الأيام، حتى صارت كالأمِّ الثكلى التي فقدت فلذة كبدها بعدَ سنين انتظار. تجلس في بيتها وحيدة ساهمةً عاجزةً مكلومةَ الفؤاد مذبوحةَ الروح، تحتضن ملابسه كأنها أمٌّ تحتضن ملابسَ وليدها الذي فارقها من غير رجعة. كان أبوه وأمه يمرّان عليها كلّ يوم يحاولان أن يقنعاها بالذهاب معهما لبيتهما، لكنها رفضت أن تترك الغرفةَ التي تزوّجت فيها

سلام قائلةً لهم وهي تبكي: سوف أنتظر سلام هنا حتى يعود. كانت تحتضن فراشَها كلّ ليلة باكية منتحبة، تحدث سلام وتعاتبُه قائلة: أعلم أنك تسمعني، أعلم أنّ قلبك يراني، أعلمُ أنك لن تتركني، ما منعَك عني يا سلام؟ مازلت أشعرُ بأنفاسك في الدنيا، لو غادرتَ الحياة لأخبرني قلبي.

لم تكن تعلم حقًّا إلى أين تذهب؟ لقد قاطعَها أبوها لكنها لم تجد مكانًا آخر تذهب إليه لطلبِ المعونة، تحطمت أيامها أمامَها كقطع الزجاج، وصارت أفكارها كالأمواج المتلاطمة التي لا تجد شاطئًا تصطدم به، لذا فلم يكن هناك بدٌّ من الاستعانة بوالدها، لم يكنْ ليخذلها مهما حدث، ربما كان غاضبًا منها لأنها أعلنت عليه العصيانَ يومًا ليوافق على سلام، لكنّه لن يتركها في محنتها، أم أنه سيحملها محنةَ اختيارها؟ فلم تكن لتندمَ يومًا على اختيار زوجها، وسوف تذهب وراءه لأقاصي الأرض لو أمكنَها، سوف تفديه بروحها إذا كان ذلك هو الثمن، وبالفعل ارتدت ملابسها وتخمرت بطرحتِها الحريرية السوداء، وذهبت إلى منزل أبيها الذي لم تزره منذ زواجها، طرقت الباب مترقبةً، وبعد لحظات سمعت صوتَ أمها تقول من داخل البيت: مَن الطارق؟ أجابت زينب في تردد: أنا زينب يا أمي.

فتحت أمها البابَ وقد بدا على وجهها التوتر، وكأنها رأت ضيفًا غير مرغوبٍ فيه، لكنها نفضت مخاوفَها وأخذت زينب في حضنها وهي تبكي في حُرقة، فما كان من أمها إلا أنْ مسحت على ظهرها قائلة: ماذا حدثَ يا زينب؟ هل آذاكِ

سلام؟ أجابتها زينب بالنّفي قائلة: يا ليتَ الدنيا كلها مثل سلام. وحكت لها ما حدثَ منذ ليلة اختفائه المفاجئ، فقالت لها أمُّها متعجبة: أين بحثتِ عنه؟ قالت لها زينب في يأسٍ: في كلّ مكان يا أمي.. ولم أجد له أثرًا.

قالت لها أمها: هل رأيتِ صديقه المجذوب الذي يرافقه؟ هزّت زينب رأسها في بطءٍ بالنفي قائلة: حبيب مختفٍ منذُ فترة طويلة، ولا نعلم عنه شيئًا منذ زفافنا. ثمّ أردفت في ترقب قائلةً: هل أبي في المنزل؟ جاءها الردُّ فجأةً من خلفها يقول في صرامةٍ: لماذا أتيت إلى هنا؟ فالتفتت فوجدتْ أباها يقف كالتمثال الحجري العملاق يرمقها بنظرةٍ لم ترَ مثلها من قبل، فقامت زينب وأمسكت يدَه الغليظة لتسلم عليه، فجذبَ يده مانعًا إياها من تقبيلها، قبلَ أن يقول لها مرة ثانية: ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ أجابته في انكسار: لقد اختفى سلام فجأةً، خرجَ من المنزل ليلًا ولم يعد، ولا أعلم إلى أين ذهب. أجابها في صرامةٍ: ليس لنا شأن بكِ ولا به.

نظرتْ إليه زينب نظرةً عاتبة ودموعُها تنزل على وجهها في صمتٍ، لكنّ الأب الشديد لم يلنْ لها ولم يرفق بها، تركها تدير دفةَ المحنة وحدَها في بحر هائج، ليس لديها قدرةٌ على تحديد الاتجاهات فيه، فنظرت لأمها نظرةً متوسلةً، فأبعدتِ الأمُّ نظرها عنها في ارتباكٍ، وكأنها تعلن امتثالَها لأمر أبيها مغلوبةً على أمرها، لم ينطق أبوها بكلمةٍ أخرى، ودخل إلى حجرته وأغلقَ الباب خلفه في قوةٍ، فهمث زينب الرسالة على الفور، فقامت مُنكسرة وخرجت وهي تحمل في ظهرها

خنجرًا جاءَ من أبيها، كأنه يعاقبها على اختيارها لسلام على غير رغبته. سارت في شوارع (المحمودية) تجرُّ أقدامها جرًّا كالملاح الذي أضاع بوصلتَه، شعورُها بالضياع وفقدان الحول والقوة كان فوق الوصف، لم تجد مَن يحنو عليها في محنتِها غير سلامٍ نفسه، الذي كانت تناجيه وحدَها في خلوتها، فتشعر به يرفقُ بحالها ويطيب خاطرها، كانت تكلِّمه كأنه أمامها: ترى أين ذهبتَ يا حبيبَ الروح؟ ماذا أصابك؟ أشعر أنَّ هناك خطبًا عظيمًا وراء اختفائك. وما كانَ يجعلها تفقد عقلها حقًّا أنها كانت ترى نفسَ الحلم كلما تنام.. أو بالأحرى تسقطُ في بئر الإعياء والإجهاد، ثم ذهبت معَ والد سلام للعمدة مرةً أخرى، فقال له العمدة في غضبٍ:

لا نريد أن نزعجَ السلطات باختفاء ابنك المجذوب. صرخت زينب في وجهه: سلام ليس مجذوبًا بل هو أفضل منكم جميعًا. نظرَ إليها العمدة في سخرية، وحولَه غفراؤه يتغامزونَ ويكتمون الضحكَ على تلك المرأة التي أوشكت أن تفقد عقلَها كزوجها غريبِ الأطوار. أجابه الأب المكلوم متوسلًا:

عشمنا في وجهك كبير يا حضرة العمدة أن تساعدنا، أنت الخير والبركة.

أجابه العمدة في نفادِ صبرٍ: سنبلغ المركزَ باختفائه. ثمّ نظر إلى زينب نظرة تحمل الكثير، فعلمث أنه لن يفعل شيئًا ولن يحرِّك ساكنًا، فعادت إلى بيتها محطّمةً، كان يومها في الفقد يساوي غفرًا في الرخاء، الآن عاينث زينب ما جعلها تموت

في بطء. في شرودٍ جمعت ركبتيها إلى ذقنها وهي تجلس على فراشها تتأملُ المصباح الزيتي الذي يهتز الضوء فيه مختنقًا، كروحها التي تختنق في صدرها، يبدو أنّ عليها أن تعيد ترتيبَ أوراقها وحدها، فنظرت طويلًا جهة النافذة التي سمع سلام منها صوتًا يُناديه قبلَ خروجه واختفائه، ثمّ قامت وأخذت مصباحها وفتحت باب المنزل والذي كان يتكون من حجرةٍ واحدة، وخرجت في ترقبٍ تتلفّت يمينًا وشمالًا لعلّها تجد شيئًا أو دليلًا ما تركه سلام قبل اختفائه، فشلت بعد بحثٍ مُضنٍ في العثور على أيّ شيء، لكن على ضوء المصباح القديم وتحتَ النافذة رأت شيئًا يلمع في الظلام، اقتربت منه وقرّبت المصباح تجاهه ومدت يدها تلتقطه، فوجدته زرًا نحاسيًا مستديرًا، يبدو أنه سقطَ من ملابس أحدهم، لكن مَن في هذه الأنحاء كلها يلبس مثلَ هذه الملابس؟، نُقِشت عليه حروفٌ بلغة أجنبية لم تفهمها، شعرت أنّ هذا الزر له علاقةٌ باختفاء زوجها، فقد كانت تتذكر جيدًا أنها كنست حول المنزل في صباح ذلك اليوم الغابر الذي اختفى فيه سلام، ولم يكن تحتَ النافذة مثل هذا الزّر النحاسي، لم تكن تعلم من أين تبدأ؟، لكنها أيقنت أنها لن تجدَ في (المحمودية) كلها مَن يساعدها؛ لذا، فعندَ بزوغ الصباح ارتدت طرحتَها السوداء، وأغلقت منزلها وخرجت في اتجاه محطّة القطار، سارت أكثرَ من كيلو مترين حتى وصلت إليها، وقطعت تذكرة واتّجهت بنفسها إلى البندر.

***

كانت عرباتُ القطار تتهادى بطيئةً رتيبة في طريقها إلى البندر، عالمٌ مجهول لم تخبره زينب من قبل، كان صوتُ القطار القديم يصمُّ الآذان ويثير الغثيانَ من اضطرابه واهتزازه المستمر، غير أنّ زينب لم تكن تشعر بشيءٍ مما يدور حولَها، كانت تجلس بجوار النافذة تنظر إلى النيل المتهادي بجوار القضبان كأنها تطلب منه المددَ والعون، كسيرةً وحيدةً تبحث عن روحها التي غابت عنها، تصارع الأمواجَ في يأس لا يهديها غير قلبها الذي يخبرها أن سلام مازال يتنفّس في مكانٍ ما في الدنيا، كان الهواء الذي يضرب وجهَها يذكرها بجلساتها مع زوجها في الحقول يحكي لها كلّ ما صادفَه في حياته أثناءَ دراسته في المدرسة العليا في القاهرة التي كانت بالنسبة لها تقع في آخر الدنيا، ما أعادها من شرودِها هو وجهٌ تعرفه جيدًا ينظر لها مِن بين الوجوه المزدحمة في القطار، وجه حبيب المجنون ينظر لها في شفقةٍ ويشيرُ لها بالتحية بطريقةٍ طفولية تتناسب مع قذر عقله الضعيف، اقترب منها في هدوء وهي تهمُّ أن تسأله علّه يعرف شيئًا عن سلام، لكنه بادرها قائلًا: ازجعي بيتك يا زينب.. لن تجدي ما تبحثينَ عنه الآن. كانت أول مرةٍ تسمع صوته الرّخيم، كان قليلًا ما يتحدثُ مع إنسانٍ إلا مع سلام، فقالت له في لهفةٍ: وأين هو؟ هل تعرف مكانه بالله عليك، دلّني لو كنت تعرف عنه شيئًا. نظرَ إليها نظرة قوية لا تتناسب مع هيئته المزرية، وقام وهو يقول: لو كنت أملك أن أساعدَه لن أتأخر، ولم يمهلها حتّى تجيبه وغابَ في زحام الركاب فحاولت اللحاق به، لكنه اختفى بين التجار والمزارعين الذين ينقلون أغراضَهم للبندر

وكأنّه لم يكنْ بالقطار من الأساس، حاولتْ زينب اللحاقَ به لكنها فشلت في أن تجده، فنظرتْ إلى امرأة تجلسُ في ركن القطار أمامها قائلة لها: ألم تشاهدي الرجلَ الذي كان يحدثني منذ لحظات. أجابتها المرأة في عجبٍ: أيّ رجلٍ تقصدين؟ أجابتها زينب: صاحب الملابس الممزّقة الذي كان يحدثني من لحظات.

أجابتها المرأة: لم أرَ أحدًا يرتدي ملابسَ ممزقة يحدثك، مَن كان يقف أمامك منذ لحظات كان رجلًا طويلًا نظيفًا له شعرٌ طويلٌ مُسدل على كتفيه يرتدي عباءةً غالية، ثمّ اختفى بين الركاب. لم تصدق زينب ما قالته المرأة وهزّت كتفيها في شكٍّ مِن صدق مقولتها، عندئذٍ سمعتْ زينب صفارةَ القطار إيذانًا بوصوله إلى محطة البندر، نزلت مسرعةً تنظر حولَها في خوفٍ كأنها سافرتْ إلى خارج عالم البشر، زحام لم تشهذه كثيرًا خلال مرات زياراتها المعدودة للبندر من قبل، كانت تنظرُ حولها علّها تتذكر شيئًا تُوَجّه به بوصلتَها المضطربة فأصطدم بها حمّال مسرعٌ فسقطت على الأرض، وقامت تمسح الترابَ من على جلبابها وتتبع الحمالَ بنظرتها العاتبة والذي لم يلتفت لها من الأساس، ثم وجدت رجلًا كبيرًا يجلس أمام محلٍّ صغير لبيع الزيوت فذهبتْ إليه وسألته: يا عم.. أريد الذهابَ إلى المركز. نظر لها الرجل في شكٍّ قائلًا: أأنت غريبة عن هنا؟ أجابته: مِن (المحمودية). هزّ الرجل كتفيه في لامبالاة قائلًا لها: سيري في هذا الطريق حتّى نهايته، عندها تجدين ميدانًا واسعًا به حديقةٌ صغيرة، سوف

تجدين المركز في الجانب الآخر من الميدان. هزت رأسَها متفهِّمة وقد نسيت نصفَ كلامه وسارت تجرُّ أقدامَها وهو يتبعها ببصره في شكٍّ من أنها ستصل إلى المركز دونَ أن تضلَّ طريقها، أما هي فبعدَ جهادٍ وسؤالٍ للمارة وصلت للمركز، والذي بدَا لها مبنى ضخمًا تتوسط ساحته حديقةٌ صغيرة، بدَا الاضطرابُ واضحًا على العسكر الواقفين على الأبواب، فقبلَ أن تتقدم لتسأل أحدهم كيف تقدم شكوى باختفاء زوجها وجدتهم يقفونَ مُتوترين، كأنهم ينتظرون شخصًا مهمًّا، وبعدَ لحظات قليلة توقفت سيارة من سيارات البوليس ونزلَ منها رجلٌ ضخمٌ مهيبٌ في مشيته، كثُّ الشارب يبدو على بشرته اللونُ المائل للسمرة، كأنه نشأ وتربّى تحت شمس محرقة، له عينان قويّتان، تجعل مَن يتحدث معه لا يستطيع النظر إليهما، كان يبدو متجهمًا من غيرِ سبب، ما إن تقدّم من البوابة حتى انتفض الجنودُ مؤدّيين التحيةَ العسكرية: صباح الخير جنابك. همست زينب لأحدِهم قائلةً: مَن هذا الرجل؟ رمقَها العسكري في ازدراء قائلًا: محمد بيه الأسيوطي رئيس المباحث. لم تعلم زينب ما الذي دفعَها لفعل ما فعلت، لكن العسكر فوجئوا بها تتقدّم فجأة من بين الصفوف متجهة نحو ذلك البيه متشبثةً بملابسه، مما جعل الجميع يرفعون أسلحتَهم نحوها وهي تقول له:

يا جناب البيه، أريدك أنْ تساعدني.

التفتَ إليها محمد الأسيوطي في صرامةٍ لما فعلت، إلا إنه أشارَ للجنود بالتراجع وأشار إليها لتتبعه، كانت تسير خلفه

في الرّواق الطويل، كأنها تسيرُ في عالم آخر، سجادة حمراء طويلة كانت تمتدُ بامتداد الرواق أخذتها لغرفته، والجميع يقفُ لأداء التحية ثمّ يرمقونها في سخطٍ بلا سبب تفهمُه، وهي تحاول تتبعَ خطواته السريعة بخطواتها المتلاحقة التي تدبُّ على الأرض في قوّة، حتى وصلت لباب الغرفة ففوجئت به يقول لها بصوته القوي: مِن أي بلدٍ أنت؟ أجابته: مِن (المحمودية). كان محمد الأسيوطي قد دخلَ إلى حجرته، والعسكري يسبقه إلى مكتبه ليعدلَ له الكرسي الخاص به، ويضعَ له قهوته الخاصة، وهي تجلس على طرف الكرسي مترقبةً، وكأنها تتمنى لو استمعت إلى كلام حبيب المجنون وعادث لبيتها، ولم تخضْ في مثل هذه المغامرة الحمقاء، إلا إنّها شعرت أن أوانَ التراجع قد فات، وبعد لحظاتٍ من الصّمت بادرها الأسيوطي وهو يرمقها قائلًا: ما مُشكلتك؟ أجابته: أبحثُ عن زوجي، اسمه سلام عبد الله أبو حسين. دَوّنَ الاسم في ورقة أمامَه ثمّ سألها قائلًا: أين اختفى؟ فلما آنست زينب منه لينًا بدأت تحكي له ما حدث، ولم تتمالك دموعَها وهي تقصُّ عليه كيفية اختفائه، ثمّ أخرجت من جيبها الزر النحاسي المستدير الذي عثرت عليه خلفَ بيتها، ووضعته أمامه قائلة:

وجدتُ هذا تحت النافذة بعد اختفائه.

نظرَ الأسيوطي للزّر في صمتٍ ثم قرّبه من المصباح فوجد حرف (B) بالإنجليزية بارزًا مكتوبًا في دائرة في وسط الزر، عقدَ حاجبيه في شكٍّ قائلًا لها: هل زوجك متعلمٌ؟

أجابته: نعم.. تعلّم في المدرسة العليا في القاهرة.

نظرَ للزر في جمودٍ وشرود وكأنه قد فهمَ شيئًا غامضًا لا يريد أن يبوح به، ثمّ قال لها: إذا وصلنا لشيءٍ سوف نبلغ عمدة (المحمودية).

قامث وقد شعرت بأنه يخفي شيئًا ما مِن نظراته المريبة للزّر، لكنها استسلمت لإنهائه الحديث فجأةً، وخرجت من حجرته وقد اسودّت الدنيا كلها في وجهها بعدَ أن كانت تأمل أن تجدَ بارقة أمل في زياتها للبندر، لكنها عادت خاوية الوِفاض، كانت تسير في الشوارع هائمةً لا تذكر كيف وصلث إلى محطة القطار، كورقة الشجر التي تدفعها الرياح وتدوشها الأقدام في شوارع البندر الواسعة، فوجئث بنفسها في القطار الرتيب البطيء عائدةً مرة أخرى إلى أسوأ بقاع الأرض على قلبها؛ (المحمودية)، التي كانت تشعر أنّها استكثرت عليها فرحتها وحبها، وسعى ما فيها من بشر وحجرٍ ووبَر لهدم عشّها الهادئ، جلست تبكي في صمتٍ وهي تنظرُ من النافذة، ولم تشعر بأنّ عربة القطار قد بدأت تفرغ من الفلاحين والتجار، لكنها انتبهث لوجه يبتسم لها في المقعد المقابل، حبيب مرّة أخرى بملابسه الرثة، لا تذكر أنه ركبَ من محطة البندر، لا تعلم يقينًا ما الذي بعثَ في نفسها الطمأنينة لرؤيته مرة ثانية في نفس اليوم، خاصة وأنه قد نصحها بعدم الذهاب للبندر والعودة للمنزل، اقتربَ منها في سذاجةٍ وهو يشير لبطنه ثمّ يشير لبطنها قائلًا لها: نونو.. نونو.. ولد.. ولد، لم تفهمْ قصده في البداية، لكن ما يريد أن يقوله اخترقَ عقلها

كالسهم، فتحسّست بطنها التي لم تكشف عما بداخلها بعد، كانت صفارةُ القطار تخبرها أنها وصلت لمحطة (المحمودية)، فنزلت وسارت متجهةً إلى منزلها، لكنها كانت تراقبُ حبيب وهو يتبع خطاها مِن بعيد لسببٍ لا تعلمه، ربما شعورها نحوه كان يمتزج فيه الأمانُ مع الخوف منه، كان غريبَ الأطوار لا يجيد التعبيرَ عما يريد إلا مِن خلال كلمات قليلة، غير أن صوته كان عميقًا كأنه يخرجُ من إنسانٍ آخر. بعدَ يومين بدأت تظهرُ على زينب أعراض الإعياء الشديد، فلم تعد تقوَ حتى على القيام من فراشها، كان القيئ يغلبها فيكاد يقتلع روحها أثناء خروجه، ولم تكن صرخاتُها ليلًا من الألم تجد من يسمعها، حتى طلع النهارُ عليها بعد أن ذاقتِ الموت آلافَ المرات أثناء الليل وحدها، تكابد فيه ما يفوق طاقةَ البشر من حزنٍ وإعياء يذيبها كقطعةِ الثلج. سمعت دقاتِ باب بيتها، فقامت تستندُ على الجدران كالتي عادت للحياة لتوّها، فوجدت والد سلام وأمّه أمامها، فما إن رأتهما حتى ارتمث في حضنهما تبكي وتنتحب، فسندتها أمُّ سلام حتى أراحتها على سريرها وجلست معها دقائق قبلَ أن تخرج لزوجها قائلة: إنها حامل. لم تتحرك ملامحُ الرجل الستيني وكأنه يحارب في عالم آخرَ وحده، ثمّ تنهّد وقال لها: فليعينها اللهُ على محنتها التي تزيد يومًا بعد يوم.

ثمّ دخل إلى زينب التي بادرته بالسؤال مُجهدةً: ما الذي أتى بكما مبكرًا يا عمي.

قال لها: سمعنا حبيب ينادي علينا من تحتِ الشباك ويقول

في لغتِه المختلطة: زينب.. زينب مريض.. زينب مريض. فلم أتحمّل أن أنتظر يا بنيتي فقمنا من فورنا للاطمئنان عليكِ، ثمّ أجهش الرجل في البكاء منهارًا مكملًا: أنت أملُ سلام في الحياة يا زينب، أقسمُ لك يا بنيتي أنّ قلبي يحدثني أنه سيرجع.

بكى وما أدراك ما بكاءُ الرجل فجأةً أمام الناس، كأنّ سدوده تلقتِ القطرة الأخيرة من الماء والتي هدمتها وحطمتها في عنفٍ. كان عبد الله أبو حسين يحبُّ ابنَه سلام حبًا غير حبِّ الآباء لأبنائهم، كان يراه هدية الله له، أمله الذي فجعته فيه الأيامُ بدون سبب بعد أن كانت يداه تزرع الخيرَ أينما حل، كان الرجلُ يسأل نفسه أهكذا يقابل الناس إحسان ابنه الوحيد لهم؟، كأنه غريبٌ بينهم جاء يدعوهم لدينٍ جديد، فقامت زينب وتحاملث على نفسها لتقبل رأسه وتطيب خاطرَه، فقال لها عبد الله:

أنتِ حامل يا بنيتي، وهذه أمانة لا بدّ أن نحافظ عليها، ولا بدّ أن تنزلي معنا في دارنا. أومأت برأسها في استسلام وقد تذكرت معاناتها وحدَها في الليلة السابقة، كانت تشعر أخيرًا بالاطمئنان لأنها صارت تحمل جزءًا عزيزًا من سلام في أحشائها، أعادَ لها ذلك الحمل الأملَ في رؤيته مرةً أخرى، لكن أحيانًا تنظرُ لك الحياة نظرةً شريرةً وكأنها تقول لك: لا تتعجل.. مازالتِ المصائب في أوّلها، لا تتسرع في إظهارِ أملك، فهو سوف يختفي ثانية ويحلُّ محله يأسٌ يعشّش على أركان قلبك كما ينسج العنكبوت خيوطَه، فيحجب ضوء

الشمس عنه.

فقبلَ أسبوع.. وبعدَ اختفاء سلام، وفي جلسةِ خمرٍ في خمارة الخواجة خريستو، جلسَ حمدان الأبيض وقد لعبت الخمرُ برأسه وهو يسمع لأحدِ جلسائه، يصفُ له إحدى راقصات البندر السّمينات، التي كانت تهزُّ المسرح الخشبي وتكاد أن تسقطَه وهي ترقص، فعلَتْ ضحكاتُ الجميع إلا إنّ حمدان- والذي شاركهم في الضحك حتى علت حشرجاته من السعال- قالَ وقد صمتت ملامحُه فجأة وكأنّ وعيه قد عاد إليه بالكامل، ثمّ قال لهم:

أنتم لم تروا نساءً قطُّ في حياتكم مادمتم لم تروا زينب، يسيلُ لعابي عندما تمرُّ أمامي من بعيد، هذه المهرةُ تركت القريةَ كلها واختارتِ المجذوب ابنَ المجذوب لتتزوجه، ملعون أبوه أينما كان.

ثمّ نادى على خريستو في عنفٍ قائلًا: زجاجة أخرى يا خريستو.

فأسرعَ خريستو حاملًا زجاجتَه الجديدة وكأنها غنيمةٌ جديدة سوف يقبض ثمنها، فدفقها حمدان في جوفه في عنفٍ مما جعلَ رفقائه يقولون له: على رسلك يا حمدان. فسعلَ في شدةٍ وقد أصابته الخمر بشرقةٍ، فاحمرّ وجهه، لكنه ألقى دفعة جديدةً في جوفِه وكأنه ينتحر، كانت هناك فكرة تغلي في رأسِه لا يستطيع مقاومتَها، فقام مترنحًا وكاد أن يسقط لولا أنْ سندَه خريستو الكريه وهو يتمتم بكلماتٍ غير

مفهومة، ثمّ خرج ودفع باب الخمارة خلفه، فاصطدم هواء الليل بوجهه، ولا يدري بعدَها كيف وصلَ إلى (المحمودية)؟ وكيف وصل منزله من الطريق المختصرة بين الأراضي ليتفادى قواتِ الهجانة؟ وجدَ نفسه ملقى خلفَ منزله حتى ضربته أشعةُ الشمس في اليوم التالي، فقام متعثرًا يشعر بثقل الخمر في رأسه فدخلَ إلى منزله، وألقى بنفسه على كنبةٍ في صالة المنزل وغطّ في نومٍ عميق.

عندما يختلط الخمرُ بالدم النّجس تظهر لك شياطينُ الإنس، لا تنتظر منهم رحمة أو شفقة، كأنهم ذئابٌ من حولك ينهشون أحلامَك ويدوسون كلّ عزيز لديك كأنه أوراق الخريف.

قرّر حمدان أن يصطادَ فريسته التي تدور وحيدةً باحثة عن زوجها، وجاءته الفرصة الأولى عندما شاهدها من نافذة خمار خريستو المطلّة على محطة القطار، وهي تنزل من القطار يوم عودتها من البندر، لكنه وجد حبيب المجنون يسير خلفَها، فأسرع حمدان يتتبّعها وسبقها للطريق الزراعي بين محطة القطار و(المحمودية)، كان كامنًا في مكانه لا يراه أحدٌ، لكنّه فوجئ بحبيب ينظرُ للمكان الذي يختبأ فيه، وكأنه يراه وقد تبدّلت ملامحه فجأة للحظات فاختفت نظرات المجنون وحلّت مكانها نظراتٌ صارمة لم يرَها عليه من قبل، لا يعلم حمدان ما الذي دفعه للخوف منه وتأجيل خطته ليوم آخر، فراقبَ منزلها وتصنّت على حديث عبد الله أبو حسين والد سلام معها، وعلمَ أنها سترحل من منزلها في اليوم التالي، فقرّر تنفيذ خطته في تلك الليلة، فانتظر حتى غابت الشمس،

ومع حلول الليل تسلل حتى أصبح تمامًا تحت نافذةِ منزل سلام، ومن فزجة صغيرة في النافذة رأى زينب تمشط شعرَها شاردةً، فذهب جمالها بعقله، لكنها شعرت بحركته بجوار النافذة وأحسّت بأنّ هناك مَن يراقبها، فقامت مسرعة تضع طرحتها السوداء على رأسها وهي تنادي: مَن بالخارج؟، لم تتلقَّ ردًّا فأخذتِ المصباح الزيتي وفتحت البابَ لتتفقد المنزل من الخارج، لكنها ما إن خرجت حتى فوجئتْ بحمدان يقيّد حركتها من الخلف قائلًا: أخيرًا يا زينب. ولم يمهلها لتصرخ فوضعَ منديلًا مبللًا بمخدر قوي اشتراه خصيصًا من البندر، فخارتْ قواها سريعًا، ففكر أين يذهب بها؟، كان ينوي أن يدخلَ بها لبيتها لكنه خاف أن يأتي أبو سلام ليطمئنّ عليها، كانت جرعةُ الخمر التي سكبها قبلَ أن يأتي قد أعطته شيئًا من الجرأة، فحملها وهو ينظرُ بعينيه على امتداد بصره فرأى آخرَ مكان يمكن أن يطأه إنسانٌ عاقل في ذلك الوقت.. (بيت المداخن)، فحمل غنيمته واتجه إليه.

وكأنّ الأيام لم تكتفِ بمعاناةِ زينب، فأرسلت إليها ذلك الملعون، كان رأسها ثقيلًا لا تدري أهي مستيقظة أم نائمة، تعجزُ حتى عن المقاومة أو الصراخ، لكنها استنفدت طاقتها في إخراج كلمة ثقيلة من فمها لم ينتبه لها حمدان وهو يحملها، دفعتها دفعًا من داخلها: سلام.. أنقذني. عندها كان حمدان قد وصلَ بجوار المدخنة، كان الطريق هادئًا، والقمرُ أغرقه بنوره، فوضعَها على الأرض، وظلّ لحظات يتأمل جسدها الممشوق في جلبابها المتواضع، وكأنه لا يصدّق أنه

فاز بها أخيرًا، وليس هناك حائلٌ بينه وبينها، فسالَ لعابه أكثرَ وأكثر وخلع جلبابه ليسهل حركته، ثم همّ بخلعِ جلبابها لكنه ما إن فكّ أولَ زرٍّ من أزراره، حتى فوجئ بها تتحرك وتهمهم بكلماتٍ غير مفهومة، لم يفهم منها غير كلمة (سلام.. أنقذني)، فقال لها لاهثًا: لن يعود يا زينب.. أنت ملكي الآن.

وكان للمدخنة حجرةٌ قديمة مهجورة كان يوضَع بها الوابور الذي يستخدم لرفع المياه من النيل، لكنها كانت حالكةَ الظلام فلم يجرؤ على دخولها، فحملَ زينب ووضعَها على بابها ليرى الطريق ويستفيد بنور القمر، كان الجو مثاليًا لتنفيذِ ما خطط له، ولو بقي حتى الصباح ما شعرَ به إنسان، فلا أحدَ يجرؤ على المرور من هذه المنطقة بعد غروب الشمس، حتى هو، لكنه بدأ يلاحظ أشياء غريبةً تحدث من حوله، سمع صوتَ دخانٍ يشبه الفحيح يخرج من جدرانِ المدخنة الداخلية، وكأنها عادث للعمل فجأة بعد عشرات السنين، فعقدَ حاجبيه وقد غلبته الشهوة وأذلته، فلم يتحرّك وهو يستكشف مصدرَ الصوت، فمدّ رأسه داخل المدخنة، وفجأة بلا مقدمات رأى النار قد اشتعلت في المدخنة وشعرَ بلفحها يأتي من أعلى، فارتعدث فرائسه لأنه يعلم جيدًا أنها لا تعمل منذُ عقود لا يعرف حتى عددها، فأخرج رأسَه مسرعًا، وقد بدأ جسدُه بالتعرق، وبدأت دقاتُ قلبه في التزايد، لكن الأغرب والأكثر رعبًا لم يكن قد حدثَ بعد، شعرَ بالسماء تُظلم من فوقه فجأةً، وبالسواد يُطبق وكأنّ أحدهم قد لوّن الأفق بلونٍ قاتم قادم من أعماق الفضاء، نظرَ للسماء فوقه فلم يجد أثرًا

للقمر، كأنه مُجِيَ من السماء فجأةً، حتى النجوم قد اختفت هي الأخرى، وكأنها مكيدة دبّرها الكونُ من حوله، ثمّ فوجئ بضباب كثيف يخرج من باطن الأرض حيث يرقد جسد زينب التي غابت تمامًا عنِ الوعي ليحيط بها، فانتفض فزِعًا عند رؤيته لجسدِها وقد أحاط به الضبابُ والدخان حتى اختفت تفاصيلها وملامحها، وبعدَ لحظات وجد الجسدَ المسجى يرتفع عن الأرض وكأنّ هناك مَن يحمله بين يديه، ثم اختفى فجأةً بلا مقدمات، تاركًا وراءه سحابةً من الضباب، فتراجع حمدان من الفزع وتعثر وسقطَ على ظهره، لم يكن اختفاء جسد زينب فقط هو ما يحير رعبَه، لكنه رأى كيانًا أسود ضخمَ القوام يخرج من المدخنة، وقد خرج الدخان من جسده الضّخم، كأنه خرج للتّو من الجحيم، الغريب أنّ ما جرى على لسان حمدان في تلك اللحظة هو: السماح يا شيخ سلام.

وانطلقَ يتكفأ وقد ترك جلبابَه عند مدخل الحجرة الملحقة بالمدخنة، لم يجرؤ على النّظر خلفه، جرى كأنه مطارد من ألفِ جنٍّ يترصّدونه، غاب بين الحقول وقد ضرب الخوف عقله ففقد الاتجاهات، وهام بين الحقول يعدو حتى كاد قلبُه أن توقف، ووجد نفسَه في شوارع (المحمودية) وقد شُلّ تفكيره عندما سمع صياح أحد جنود الهجانة وهو يركب جمله يقول: مَن هناك؟

فاختبأ حمدان في أحدِ الأزقة وقلبُه ينتفض في صدره، حتى وجد أخيرًا فرصةً للعودة إلى منزله، ثم دخله وأغلق الباب وظلّ مستندًا بظهره عليه لدقائق يرتعش ويتصبّب

عرقًا، ثمّ انهار جالسًا خلف الباب، وانفجر باكيًا وقد وضع رأسه بينَ ركبتيه من الخوف، لكنه برغم كلّ ما حدث لم يكنْ يعلم ما ينتظره في الأيام القادمة... إنها فقط مسألة وقت.

***

بعدَ مرور خمسة أشهر..

في الصباح الباكر، وأثناء خروج الناس لأعمالهم في (المحمودية)، كانت الشبورة تغطي كلّ أنحاء القرية، فبدت وكأنها عالمٌ خفي عما حوله، دائمًا ما يكون الصباخ حاملًا معه أنفاسَ الذاكرين، أما هنا فالوضع يختلف، كانت نظراتهم دائمًا تحمل الترقبَ والبحث عن المفقود لدى الآخرين، مما وَلّد بينهم نارًا لا تطفئ أبدًا، في تلك الشوارع الصباحية ظهر رجلٌ طويل يسير ببطءٍ شديد، لا يتبين أحدٌ ملامحه جيدًا من أثر الشبورة التي غطت الشوارع على غير العادة، نحيل الجسد تظهر عظام وجهه للقريب منه، وقد طالتْ لحيته فصارتْ شعثاء ممتلئة بالتراب والأوساخ حتى أخفت ملامحه، غير أنها لم تخفِ السوادَ المحفور تحت عينيه، ولم تخفْ شفتيه المتقرحتين، والتي تحوّلت جراحهما إلى اللون الأزرق، كانت حالته مُزرية بشكلٍ لا يُصدّق خاصةً معَ ملابسه القذرة التي تمزقت، وكأنها لم تُخلع منذ شهور طويلة برائحتها القذرة، إذا نظرتَ إليه يخيّل إليك منذ الوهلة الأولى أنه خرج من القبر لتوّه، فقد غطى التراب والأوساخ وجهه وملابسه، يسيرُ في خطواتٍ بطيئة شارد النظرات بشكلٍ غريب، لا يبدو عليه أنه يرى الناسَ في الشوارع وهم يرمقونه

بنظراتهم المريبة كما رمقوا (حبيب المجنون) عندما دخل القرية لأول مرّة.

كان سيرُه بطيئًا يتسنّد الجدران كأنه لا يقوى على الوقوف، أو كأنه أصيب بمرضٍ عُضال، فلم تختلف نظراتهم له بالرغم من حالةِ الأسى التي ظهرت عليه، وما زادَ من نظراتهم غرابة عندما وجدوه يتجه خارج القرية، ويختفي بين الزراعات، فلم يعطِه أحدٌ منهم اهتمامًا، أما هو فقدِ اتجه نحو منزل صغير يقع على أطراف القرية، يطل على الأراضي الزراعية، كان المنزل وحيدًا في تلك المنطقة، والذي بدا غارقًا في الصمت، وقد أحاطته الشبورة حتى أخفت نصفه السُفلي عن الأعين، فلا يرى الناظرُ له سوى النوافذ والسقف، توقف الشابُّ أمامه طويلًا يتأمله وكأنه يتأكد منه قبل أن يقترب، وعندما اقترب ظلّ فترة يتأمّل الأتربة التي غطته، وخيوط العنكبوت التي بدأت ترسم ملامحَ الزمن على أركانه، مسحها من على الباب بيدٍ مرتعشة، ثمّ طرقه في رفق وقد بدأت دموعُه تنزل على وجهه، فتختلط بالأتربة الملتصقة به، لتحفرَ نهرين عميقين عليه، وكأنّ هذه الدموع حُبِست زمنًا طويلًا ولم تنفجز إلا عندما رأى ذلك المنزل، كرّر دقّ الباب بيدِه الواهنة لكنه لم يتلق ردًا.. فانتظرَ لحظات طويلة يجاهد خلالها لالتقاطِ أنفاسه، وكأنه أوشك على السقوطِ أو فقدان الوعي، ولما يئس من أن يجيبه أحد استدار منكسرًا، وهو يضع كفّه على الجدران، يتحسسها ليسألها عن سكانِ المنزل الذين كانوا في يومٍ سعداء، يستجديها لتجيبَه ماذا فعلت

بهم الأيام؟، ولماذا قسا عليهم الزمن؟ ثمّ انصرف متجهًا إلى منزل والد سلام، قادته لهفته فقاوم آلامَ جسده الهائلة، كان النشاط قد دبّ في الشوارع فلم يُعِزه أحدٌ من الناس انتباهًا، وظنّوه أحدَ المجاذيب الذين تمتلئ بهم شوارعُ المركز، حتى وصل أخيرًا لمنزل عبد الله والد سلام، فدقّ الباب في إعياءٍ وضعف وكأنه يستنفد آخرَ قوته، لكنه لم يَتَلَقَّ ردًّا سريعًا فعاود المحاولة مرة أخرى، كانت دقاتُه واهنة كدقاتِ القلب الذي يوشك أن يتوقف، ثمّ سمع صوت والد سلام وهو يردُّ من الداخل قائلًا: مَن الطارق؟

لم يقوَ الشابُّ على الرد فانتظرَ حتى فتح والد سلام الباب والذي تأمله في ريب للحظات، ثمّ قال له:

مَن أنت يا بني؟

استجمع الشابُّ آخرَ ذرات القوة في عروقه وهو يدفع الكلمات من داخله قائلًا:

أنا..... أنا..... سلام.

ثمّ سقط مغشيًا عليه.

***

# الفصلُ الثّاني

أعلمُ أنك تشعر بالارتباك.. وهذا هو المطلوب.. الحقيقة دائمًا يسبقها حالةُ فقدان الفهم، الكشف دائمًا له ثمن، ولا تظنُّني شريرًا أتلاعبُ بعقلك.. دعني آخذُك لمكتب محمد الأسيوطي بعد زيارة زينب السابقة له، أتذكرها؟ تلك المسكينة التي عصفت بها الأيام عصفًا، ظلّ محمد بيه الأسيوطي بعد انصرافها يحدق في الزر النحاسي تحت المصباح الوحيد في الحجرة، وهو ينفث دخانَ سجائره واحدةً تلوَ الأخرى كقطار الدلتا الميت، كانت هناك حربٌ ضروس تدوزُ في رأسه، فهذه الأزرار النحاسية لا توجَد إلا في ثياب واحدة.. لكنْ ما علاقة شابٍّ يعيش في قرية نائية أمام النّيل بأصحاب هذه الأزرار؟، لكنه بعدَ أيام طويلة من التفكير قرّر المخاطرة والدخول لمنطقة يحظر عليه في الغالب الدخول إليها، فأجرى اتصالًا بصديقٍ قديم له يطلبُ منه المعونة، لم يجرؤ على الاتصال به بشكل مباشر، بل أرسل إليه رسالةً خطية يحملها أحدُ معاونيه الذين يثق بهم، تأخر الردُّ شهورًا حتى كاد أن ينسى الأمر، ثمّ جاء الردُّ عن طريق التليفون، فحوّل عاملُ التحويلة المكالمة لمكتبه فرفعَ سماعة التليفون المتهالك فأتاه الصوتُ من الطرف الآخر يقول: ألو محمد الأسيوطي، أنا قاسم عبد السلام.

ردّ الأسيوطي في سرعةٍ وهو يصرف كلّ مَن في مكتبه، ثمّ يعتدل ليردّ على الصوت: كيف حالك يا قاسم.. ألم تصلك رسالتي؟

قال صديقُه قاسم: وصلتني لكني بذلتُ جهدًا كبيرًا في الوصول لصاحب الاسم الذي تريد البحث عنه.

أجابه محمد في ترقب: وهل وصلت لشيء؟

صمتَ قاسم لحظاتٍ ثمّ قال له: نعم وصلت، ولكنْ للأسف صاحب الاسم الذي تبحث عنه قد مات.

تغيّرت ملامحُ الأسيوطي بلا سببٍ وهو يقول له: هل أنت متأكدٌ من الاسم.. سلام عبد الله أبو حسين.

أجابه قاسم في هدوء: نعم متأكد، لقد ماتَ وتم دفنُه، ثمّ جاءه صوت قاسم مسبوقًا بتنهيدةٍ قوية قبل أن يكمل: التعذيب هو سببُ وفاته، لقد تابعت الأمرَ عن طريق عيون لي.

فأغلقَ محمد الأسيوطي الخطّ في هدوء، وظلّ باهتًا صامتًا لدقائق، كان ظنُّه في محله تمامًا، لكنه لم يكن يعلم ما الذي جعله يهتمُّ باختفاء سلام؟، ربما كان صدقُ زينب في الكلام، وربما كان حزنها الذي بدا واضحًا، لكن الحكاية الآن قد وصلتْ إلى نهايتها، وما عليه إلا أنْ يستدعيها ليخبرها، لا يعلم كيف يخبرها بتلك الكذبة الشنيعة؟، لكن ما آلت إليه الأحداثُ في (المحمودية) بعد ذلك جعلت كلّ أوراقه تختلط وجعلت كلّ الخطوط تتشابك، فقد اختفت زينب هي الأخرى، وعندما أرسلَ مخبرًا ليبحث عنها في منزلها ومنزل والد سلام لم يجدها، وعرف أنها اختفت فجأة بدون مقدّمات بعد عودتها من البندر مباشر، ظلّ الأسيوطي بعدها ليلةً

في مكتبه يسكب القهوة فنجانًا بعد فنجانٍ في جوفه علّها تساعده على ربطِ الخيوط المتهالكة، دخّن في تلك الليلة سجائر تكفي لإشعال قطار الدلتا ودفعه للعمل، كان يضع أمامه كلّ الاحتمالات ويحاول أن يستخدم كلّ خبرته في الإجابة عن بعض الأسئلة، أين ذهبت زينب؟ وهل لاختفائها علاقة باختفاء سلام قبل ذلك؟

وبعدَ اختفاء زينب بدأتِ الأحداث المتلاحقة تنزل على (المحمودية) كأنها حجارة من سجين، ما حدث بعد ذلك قلَب البندرَ رأسًا على عقب، كانتِ البداية بقطع لسان (إسماعيل السباعي)، ثمّ قطع يد (صفوان العرضحالجي) في القطار، ثمّ الطامة الكبرى وهي مقتل (حمدان الأبيض) بطريقة شنيعة دوّت أصداؤها في كل مكان حتى وصلت للحكمدارية نفسِها، كلُّ هذه الحوادث جعلتِ الأسيوطي يوقن أنّ الأيام التالية تحمل مزيدًا من المصائب لتلك البقعة المشئومة، على الجميع الآن الاشتراك في دفع الثمن.

***

حالته غير مستقرّة، يبدو أنه قضى فترةً طويلة بدون طعام، هذا بالإضافة لآثار التعذيب المفرط على جسده، إنها معجزةٌ أنه مازال على قيد الحياة.

نطقَ الطبيب بهذه الكلمات والتي بدت كالقذائف في وجه والد سلام، الذي فوجئ بابنِه أمامه بعد شهور من اختفائه الغامض، فوجئ به أقربَ ما يكون للموتى يسقط في غيبوبةٍ

عميقة قبل دخوله إلى المنزل، فاضطرّ الأب لإخفاء الأمر عن الجميع، فقد بدأ الشكّ يملأ صدره بعد كلّ ما تعرض له ابنه الوحيد، الابن الذي كان نورًا للدنيا من حوله، لكن يبدو أنّ هناك مَن كان له رأي آخر، لم يكن عبد الله يفهم ما الذي يحدث لابنه ولزوجته التي اختفت بدورها فجأةً وهي حامل؟ لذا قرّر التحرك بحذرٍ، فلم يخبز أحدًا بعودة ابنه غير أمّه، وأخفاه في غرفة داخلية في المنزل، وشدّ رحاله سريعًا للمركز المجاور وأحضرَ طبيبًا غريبًا عن المنطقة كلّفه مبلغًا ضخمًا كان يدخره، كان الرجل الستينيّ حريصًا هذه المرّة، وكأنه أراد أن يعيدَ عباءة الحماية لغلامه الصغير مرةً أخرى، لم يكن ليتركه وحيدًا في محنته أبدًا.

وماذا يمكن أن نفعل؟

نطقَ والد سلام بهذه العبارة فردّ عليه الطبيب: لو لم تتحسّن حالته مع الأدوية سنضطر لنقله لمستشفى البندر. أشارَ عبد الله قائلًا في حسم: لا، ليسَ بندر (المحمودية).

أجابه الطبيب: المستشفى الأميري أقربُ لكم، ونقلُه لمستشفى في مركزٍ آخر سيكلفك مبلغًا كبيرًا من المال.

قاطعَه عبد الله: لا يهم... سننتظرُ ربما يفيق. فهزّ الطبيب رأسَه في استسلام، وغادر المنزل متخفيًا بمساعدة عبد الله، حتى خرجَ من القرية وأوصله سرًا لمحطة القطار، وانتظر حتى تحرك به، كان قلب عبد الله في تلك اللحظة كالبركان الذي لا يجد منفذًا، كانت حالة سلام تعصر قلبَه عصرًا

وتخترق كبده كالخنجر المسموم، ليس هذا هو ابنه البهي الذي لم يعهد منه غير الابتسام والإقبال على الحياة، مَن رآه كان أقرب للموتى منه إلى الأحياء، تُرى من الذي فعلَ به هذا؟ ومن أيِّ جبٍّ للعذاب قد خرج فلذة كبدِه للتّو؟ كانت أفكاره كالموج المتلاطم الذي يصفع الصخر في غير رحمة، إلا إنّه برغم هذه الحالة كان حدسه يخبره بأن عليه أن يخفي عن الجميع نبأ عودته، إنها غريزة الأب وما أدراك ما غريزة الأب! خاصةً الذي يرى ابنه بينَ الحياة والموت!، هو ببساطة كان مستعدًا لتقديم آخر نفسٍ في صدره لسلام ليعود فقط للحياة ويخبره من فعل هذا به ليأكله بأسنانه.

في تلك الأثناء عندَ عودته للمنزل، وأثناء سيره وسط الأراضي الزراعية الممتدة بين محطة القطار و(المحمودية)، سمع عبد الله مَن ينادي عليه، فالتفتَ خلفه فوجد حبيب يخرج فجأة من أحدِ الحقول، وقد بدَا عليه الفرح والسعادة، فجاءه يرقص ويغني بكلمات غير مفهومة، فابتسمَ له عبد الله في رفقٍ ولينٍ برغم حزنه وحمله الثقيل، فقد كان رفيق سلام وربّما هو الوحيد الذي لم يقدم يدَ الأذى لابنه، فأخرج عبد الله من جيبه نُص أفرنك وأعطاه لحبيب الذي فرحَ كثيرًا به، وقال له وهو يضحك متلعثمًا وهو يدور حوله في شكل دائري:

شكرًا يا عبد الله، شكرًا.. شكرًا.

فابتسمَ عبد الله له ابتسامةً ثقيلة وهمّ باستكمال طريقه، لولا أنْ بادره حبيب فجأةً وهو يرقص:

سلام في الدار، سلام في الدار.

ولم يمهله المجنونُ واختفى بين الزراعات تاركًا عبد الله في دهشةٍ كبيرة، لكن الأغرب ما حكته له زوجته عندما عاد، لا يعلم كيف سبقَه حبيب للمنزل؟، كيف قطع كلّ تلك المسافة الكبيرة بهذه السرعة؟، فبعد لحظات فقط قليلة من لقائهما كان حبيب يطرق بابَ المنزل، ففتحت له والدة سلام فدخل كعادته قائلًا في صياحه المعهود: آكل.. آكل يا أما.

فتلفّتت والدة سلام في شك، وأخرجت رأسَها من الباب لتتأكد من عدم وجود أحد غيره بالخارج، ودخلت مسرعةً لتحضر له طعامًا لينصرفَ قبل أن يلاحظه أحد أمام المنزل، وما إن اختفت داخل البيت حتى دخل حبيب في هدوء، واختفتِ الضوضاء التي يحدثها، وأغلق البابَ واتجه مباشرة للحجرة التي يخفي فيها عبد الله ابنه، وكأنه يعرف طريقها جيدًا، وما إن دخلَ حتى أغلق الباب من الداخل، وتبدلث ملامح وجهه المزرية، وحلت محلها ملامحُ جادة تميل إلى الصرامة والغضب، ثم التفتَ لسلام واقترب منه في بطءٍ، وجلس بجواره يتأمله، ثم مسح على شعره في رفقٍ قائلًا بنبرةٍ عميقة:

سامحني يا صديقي، كنت أراك وحيدًا في محنتك، لكني كنت عاجزًا عن مساعدتك.

ثمّ أردف في غضبٍ: لكني أقسمُ لك أنهم سيدفعون الثمن.. غاليًا.

كانت نبرتُه ترتعش وتتضخم وكأنها تخرج من كائنٍ آخر غيره، ثم وضعَ كفيه أمام فمه ونفخ فيهما هامسًا بكلمات مبهمة لم يظهز منها إلا كلمات قليلة متفرقة (أشيَل.. مُرَخِّم.. هِند.. الأحمر)، فخرجَ من كفيه دخان أبيض شفاف يتحرك في هدوءٍ وبطء، ثمّ نقل كفيه أمامَ وجه سلام، فاخترق الدخان أنفَه على الفور وكأنه يعرف طريقه جيدًا، وما هي إلا لحظات حتى شهقَ سلام شهقة كبيرة كأنه خرج لتوّه من تحت الماء بعد أن أوشك على الغرق، وسعل في عنفٍ ثمّ فتحَ عينيه في صعوبةٍ متلفتًا حوله مستكشفًا المكان، وكأنه يستعيدُ ذاكرته شيئًا فشيئًا، كان يشعر بضبابٍ يخيم على عقله، وكانت الحجرةُ تبدو له غير مألوفة للوهلة الأولى، لكنّ بصره التقط مشهدًا لدخانٍ أبيض يملأ سقف الحجرة وينكشفُ في بطءٍ، وفي وسط الدخان كان يقف حبيب ثمّ بدأت صورته تتلاشى، فلم يعد سلام يفرق هل كان هذا المشهدُ في أحلامه أمْ في يقظته، وحاولَ بصعوبة تذكر التفاصيل من حوله، ثمّ فجأة وبدون مقدمات تدفقت ذكرياتُه مرّة واحدة فهب معتدلًا يصرخ قائلًا:

زينب.. أين أنتِ؟

تلفّت حوله فلم يجد ردًا، ثم سمع صوت حبيب دون أن يراه يقول له:

قابلني الليلة عند بيت المداخن.

كان الصوت يرنُّ في عقله ويتردّد للحظاتٍ دون أن يرى

صاحبه، ثم أحسّ بأمه تفتح الباب في رفق، ففوجئت به واقفًا في وسط الحجرة، فما إنْ رأته حتى صرخت باسمه، وارتمث في حضنه باكية متشبثة بملابسه، فاحتضنها مرتجفًا وكأنّه لا يصدق أنه لا يحلم، فكثيرًا ما انقطعت أحلامُه على فيض من العذاب الذي حُفر في عقله حفرًا، كانت دموعُه تسيل على لحيتِه الشعثاء فتحرق تقرحات وجهه المحفورة فيه، ثم قال لها:

أين زينب؟

فزادتْ حدةُ بكائها عندما سألها عن زينب، فعقدَ حاجبيه قائلًا: أين هي؟، فحكت له أمه كلّ ما حدث منذ اختفى وهي تبكي، كانت تراقب ملامحه التي تجمّدت لا تبدو عليه أية مشاعر، وكأنه تحولَ إلى تمثال من الصخر لا يرمش له جفنٌ، يسمعها وهو ينظرُ إلى اللامكان، كأنها ترى إنسانًا آخرَ لا تعرفه، وما إن انتهت من حديثها حتى فتح عبد الله البابَ عائدًا بعد أن تأكدَ من ركوب الطبيب القطار، ففوجئ بابنه الذي تركه في غيبوبة منذ ساعةٍ يجلس في صالة المنزل منتصبَ القامة كأنه قطعةٌ من الصخر الأصم، فلم يصدقْ عينيه واحتضنه وهو يردد: الحمدُ لله يا رب.. الحمد لله يا رب.

حتّى أشفق عليه سلام فربّت على كتفه قائلًا له: هوّن عليك يا أبي. نظرَ إليه والده وهو يمسح وجهه من الدموع التي أغرقته ثمّ قال: أين كنت يا بني؟

لم يجبه سلام وقال في شرود: هذه قصةٌ طويلة، لا بدّ أولًا من العثور على زينب. نظر عبد الله لزوجته في قلقٍ وهو يقول له: لكننا بحثنا عنها في كلّ مكان منذ اختفائها ولم نجد لها أثرًا، حتى البندر ذهبت إليه، وبحثت في المستشفى وفي المحطة، وسألت كلّ القرية عنها فلم أعثر لها على أثرٍ، حتى منزل والدها لم أجدها به.

كان الجمودُ على وجه سلام يحير القلق، فظلّ واقفًا أمام النافذة ينظر إلى الأفق المترامي أمامه في صمتٍ طويل، فلم يجرؤ أحدٌ منهما على قطع أفكاره، فمكثَ أمام النافذة حتى اختفت الشمس وبدأ الليل في نسج أستاره على القرية، عندَها تحرك في اتجاه بابِ البيت بهدوء قائلًا: سوف أخرج لأمشي قليلًا لأفكر في هدوء.

قال له أبوه قلقًا: ولكن يا ولدي... قاطعَه سلام: لا تقلق يا أبي.. لم يعد سلام هو الفريسة، لقد أخذت حظي من المعاناة، والدور الآن على مَن أذاقني هذا المر.

ثمّ خرج وصفق البابَ خلفه متجهًا إلى المكان الذي يحمل أولَ الخيط... بيت المداخن.

***

المشهد لم يعد مألوفًا لي كما كان في الماضي، تلك الأراضي الزراعية الواسعة لم تعد تؤنسني كما كانت، الظلام لم يعد يبعث في نفسي الهدوء، لا يحير خوفًا بل ترقبًا، كلهم الآن أصبحوا أعدائي، النسيمُ العليل الذي كنت أستنشقه ليلًا

وخدي أصبح خانقًا كالحبل الذي يلتفُّ حول عنقي، هذه الأرض التي كنت أخطو عليها في هدوء واطمئنان صرتُ أدوسها في حقدٍ، حتى النباتات التي كنت أتجنّب أن أطأ أفرعها في الماضي، صارت ترابًا تحت نعلي، كلهم يستحقون العقاب.... هكذا كانت الأمواجُ التي تضرب رأسَ سلام وقلبه الذي صنعت به الأيام فجوةً تبتلع كل نور أمامها، حتى لا يبقى سوى الظلام السّرمدي الذي غطى كلّ شيءٍ، شفيع هذا الكون الوحيد هي زينب، وقد اختفت، ما يربطه بالحياة بعدَها نبضةٌ واحدة تنبض كلّ حين، كقلب الميت الذي يودع الحياة، هذه النبضة هي التي تبقيه حيًا، لكنها تخبره أنّ زينب ليست بخير. ترى أين أنتِ الآن يا زينب؟ ترى ماذا فعلت بكِ الأيام؟.. ماذا فعلت بنا الأيام؟ وهل كنّا نستحق أن تنقلبَ حياتنا رأسًا على عقب هكذا؟ ماذا فعلنا للناس ليكونوا معنا بهذه القسوة وبهذا الكره؟ أين أنت الآن يا قلبي.. وماذا فعلتْ بك المقادير من بعدي؟ كم أشتاق أن أتلمّس وجهك علّني أجد الطريق الذي اختفى فجأةً من تحت أقدامي، أنت الرحمة الوحيدة التي مازلت أبحث عنها لتزيل جرحًا غائرًا لن يمحوه سواكِ، هناك شرٌّ عظيمٌ قد عصف بنا، ترك قلبي كالضرير الذي ألقاه الناس في وسط الصحراء وحيدًا، لكنني أقسم برأسك يا زينب لتدفعَنّ كلُّ يدٍ ثمنَ ما أجرمت، سوف أبحث عنك في كلّ شبرٍ، ولأنبشنّ الأرض حتى وإن وصلت لنهايتها، حتى أعثرَ على عطرك الذي أفَلَ بلا مقدّمات، هكذا كانتِ الأحاديث تضرب رأسه كالمطارق بلا رحمةٍ وهو يجرُّ قدميه جرًّا لا يكاد يشعر بهما. أوصلته قدماه المضطربتان إلى بيت المداخن

أخيرًا، متجهمًا غير عابئٍ بالأصوات المريبة من حوله. كانتِ السماء من فوقه سوداءَ حالكة كقلبه المنطفئ، ظلّ يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن حبيب، ثم سمع صوتًا يقول له: لا تتعبْ نفسك كثيرًا في البحث. جاءه صوتُ حبيب عميقًا من وسط الظلام المطبق حوله، فتلفّت سلام إلى ناحية الصوت قائلًا: لماذا تستتر منّي هذه المرّة؟ أجابه حبيب: ربما لم يعد هناك وقتٌ للحديث الطويل كما كنّا نفعل سابقًا، أخبرني أولًا كيف عدتَّ؟ أجابه سلام في شكٍّ: تسأل وكأنك تعرف أين كنتُ؟

سمع تنهيدةً طويلةً من حبيب قبلَ أن يقول: بل كنت أراك كلّ ليلةٍ في معاناتك وأقف عاجزًا عن مساعدتك. قال له في هدوءٍ وكأنه كان يتوقّع: كيف كنت تراني؟، قال له حبيبٌ في نبرةٍ حزينة: من خلف الحجب. ثمّ شقّ الظلام فجأة بهيئته الحقيقة، فظهرَ أمام سلام كيانٌ طويل أكثر من كلّ البشر الذين عرفهم، يظهر من خلفه نور القمر فيخفي ملامحه في الظلام وكأنها تمتصُّ كلّ الضوء الخافت الذي ترسله السماء بين الحين والآخر، عريض المنكبين له شعرٌ طويلٌ ناعم مُنسدل على كتفيه، خلفه تطفو عباءةٌ من الدخان الأسود، أصابتْ سلام رجفةٌ شديدة لمرآه، فعاد حبيب على الفور لهيئتِه البشرية حتى لا يفزعه، لكنه فوجئ بسلام وكأنه فهمَ كلّ شيءٍ يقول له: لا يا حبيب، ابقَ على طبيعتك.

قال له حبيب: مازلتَ كما أنت لم تتغير.

أجابه سلام: لم يتبقَّ منّي شيءٌ تعرفه.. لم يتبقَّ داخلي إلا

رغبة واحدة.. معرفة الحقيقة كلها، نبدأ أولًا بك.

تنهّد حبيب تنهيدةً طويلة كأنه يستعيد ذكريات مؤلمة لا يريد تذكرها، ثم بدأ يحكي.

***

(أنا.. أشيَل بن مُرخَم)

ما تعرضتُ له هو أكبرُ مكائد الدهر ظلمًا بعد أنْ قضيت حياتي في قيادة فرسان بني عاصف، بعد أن كنتُ بطلهم القومي يتفاخرونَ بي بين كلّ قبائل الجن في كلّ أرض الربع الخالي، عالم الجنّ تمامًا كعالم البشر مليء بالمكائد ونكران الجميل، ما يراه البشرُ منهم ما هو إلا قشرةُ عالمهم، أمّا بينهم وبين بعضهم فهم تمامًا كعالم الإنس، في عالم بني النار تجد مَن يطعنك في ظهرك، وتجد مَن يفديك بروحه، هذا ما حدثَ معي، قضيت شبابي في خدمة بني عاصف وملكهم عاصف بن الجبل، بعدَ انتصارنا الكبير على قبيلة بني (شاكن) الذين ينتسبون لجدتهم الكبرى المسماة بجدة الجن، كان هذا الانتصارُ أشبه بمعجزةٍ كبيرة تناقلتها كلُّ قبائل الجن، تحولتُ فجأة إلى ملهمٍ لكلّ شباب بني عاصف، الاحتفالات كانت في كلّ مكان تهتف باسم واحد هو (أشيَل بن مرخم)، إلا إنّ أمي (هند بنت الأحمر) الكاهنة المخضرمة، كانت تشعرُ بحاسّة الأم بما يحاك لي في أروقة القصر، كانت الإشاعاتُ بدأت تتردّد بتولية الملك عاصف بن الجبل لي وزيرًا مكافأةً لي على قيادةِ جيوشه في معركة الربع الخالي، وذلك خلفًا

للوزير الذي طعن في السنّ، وهذا ما حذرتني منه أمي، وبرغم أنّ العلاقة بيني وبينَ الملك كانت في أفضل حالاتها، إلا إنّ خطئي الكبير أنني لم أنتبهْ لما يدبره الوزير، فعندما فشلَ في الوقيعة بيني وبين الملك قررَ فعلَ أي شيء من أجل البقاء على منصبه والذي كان يعدُّ ابنه لكي يخلفه فيه، وذاتَ صباح فوجئت برسالةٍ من الملك يطلبني على غير عادته، فقمتُ على الفور للذهاب للقصر لولا أنِ استوقفتني أمي قائلةً:

لا تذهبْ يا أشيَل، تعلّل بالتعب حتى أتبينَ الأمر من عيوني في القصر.

قلتُ لها مطمئنًا: ما الذي يحير قلقك إلى هذا الحد؟

أجابتني في شرود: أحلامي تخبرني بأنّ هناك محنة كبرى ستقع لك.

قبّلت رأسها قائلًا: لا تقلقي يا أمي، فالأمورُ على ما يرام، فخلعتْ قلادةً بها فصٌّ من الياقوت الأحمر من على رقبتها وألبَستني إياها قائلةً: هذا الفصُّ من الياقوت المقدس، سوفَ تحميك إن لزمَ الأمر. ثمّ أعطتني لفافة صغيرة من الورق قائلة لي: احفظْ ما بها جيدًا قبلَ أن تدخل للقصر، إذا أحسستَ بالخطر انطق بها وضعْ يدَك على فصّ الياقوت. ضحكت قائلًا: لماذا كلُّ هذه التجهيزات العسكرية يا أمي؟ لم تفعلي هذا معي عند ذهابي لميدان القتال. نظرتْ لي قائلة: أخطرُ الأعداء هو مَن يختبئ منك قبلَ أن يهجم، كنتَ في المعركة تحارب عدوًا أمامك وأنا أثق في شجاعتك، ولكني

لا أثقُ في مكر الوزير. احتضنتها في رفقٍ فوجدتُها تتشبّث بملابسي، فقلت لها مطمئنًا:

لا تقلقي، سوف أفعلُ ما قلتيه بالحرف. هزّت رأسها وهي تمسح دموعها، ثمّ انطلقتُ سريعًا للقصر، وهناك وجدتُ الوزير في انتظاري قائلًا: مرحبًا بقائدنا الهمام. نظرت إليه في شكٍّ قائلًا: مرحبًا بك أيها الوزير.

ثمّ دخلتُ للقاء الملك، وأثناءَ شربنا لواجب الضيافة شعرت بأنّ الملك بدأ يهذي، ثمّ سقط على الأرض كالصخرة، قمتُ مسرعًا إليه ففوجئت بالدنيا تغيم أمامَ عيني، وبعد لحظات لم أعد أشعر بشيء، عندما استيقظت فوجئت بأركان المؤامرة وقد اكتملت، فقد قتل الملك عاصف بسيفي الذي وُجِدَ في يدي بالطبع بعدَ قتل الملك، ووجدت بجسدي بعضَ الإصابات الطفيفة نتيجةَ مقاومتي للحراس كما أشاع الوزيرُ في كلّ أنحاء القبيلة، ووجدت نفسي مكبلًا بأقوى الأغلال، ومُنِعتُ من رؤية الناس بأمرِ الوزير الذي خطط جيدًا لمكيدته، ما كنت أعتمدُ عليه هو شعب القبيلة لكن الوزير نشرَ الخبر في كلّ مكان بمساعدة معاونيه، وأقنع مَن كانوا يهتفون باسمي في الماضي بأني تخلصتُ من الملك لأحلّ محله، مكيدةٌ دُبّرت بليلٍ، كان يحرسني أعتى مردةِ الجن حتى أقدّم للمحاكمة فيصبح الوزير ملكًا شرعيًا لكل بني عاصف بعد أن قبضَ على الجاني، لكني أثناءَ وجودي في سجني فوجئتُ بصوتِ أمي الكاهنة تهمس لي في أذني قائلةً: لا تنسَ التعويذةَ والياقوتة يا أشيَل، لكنها ستنزع عنك

ثوبَ الجن، وستفقد الكثير قوتك وستصبح أسيرَ الجسد الذي ستتشكّل فيه، ولكن لا تقلقْ إنها مسألة وقتٍ، ودعِ الوزير لي، فقد أخطأ خطأ عمره وسوف يدفع الثمن.

كانت هذه آخرَ كلمات أمي قبل أن أستخدمَ تلك التعويذة لأهرب من السجن، وجدتُ نفسي ملقى وسط الحقول متشكّلًا بهيئة بشرية، كانت إصابةُ قدمي بالغةً من شدة القيد الناري الذي كان يحيط بها، كنت شديدَ الضعف فقد بدأتُ على الفور أشعرُ بالضعف والألم الرهيب مثل كلِّ بني البشر، فحاولت البحث عن مكان أختبأ فيه فلم أجد إلا هذا البيت المهجور، ثمّ أحطتُ المنطقة بهالةٍ من الرعب حتى يبتعد الناس عنها مستخدمًا ما تبقى من قدرات بني النار، حاولت الحصولَ على طعام من القرية المجاورة لكنهم كانوا ينبذونني كالكلب الأجرب، حتى قابلتك في ليلةٍ، فكنتَ أنت الصديقَ والرفيق الوحيد الذي ناداني بصديقي.

كانت ملامحُ سلام جامدةً تمامًا وهو يسمع حكايةَ حبيب، دون أن تتغير أو تتبدّل أو يبدو عليه شيءٌ يسيرٌ من العجب، نظرَ إليه حبيب في ترقبٍ وهو يراقب ملامحه، ثم قال له:

هذه حكايتي التي لا يعلمها أحدٌ من بني البشر إلا أنت. ثمّ أردف: وأنتَ؟ ألا تريد أن تحكي لي أين كنت؟ فقد كنت أراكَ على شكل ومضاتٍ سريعة في مكان مظلمٍ وحولَ رقبتك القيود، كان مشهدك يدمي قلبي ويذكرني تمامًا بكل ما مررتُ به، لكني فشلتُ في تحديد مكانك.

نظرَ إليه سلام وهو يزفر زفرةً حارة كادت أن تحرق كلّ ما أمامه.

***

لم يكنْ سلام يدرك في تلك الليلة المشئومة ما يُحاك له، فحين كان يجلسُ في بيته بالقرب من زينب يحاول تهدئتها، كانت هناك سيارةٌ غريبة تدخل حدودَ القرية ليلًا بعد منتصف الليل، يقودها جندي إنجليزي أشبه بالدب الأبيض لضخامته، وبجواره يجلس رجلٌ يرتدي بدلةً عسكرية مرتبة، له شاربٌ يميل للحمرة رفيع ينزل إلى أسفل شفتيه ليضفي عليه منظرًا غريبًا، ينفث دخانَ سيجارته من نافذة السيارة بشكل متقطع، وخلفهم مباشرة كانت تسير سيارة أخرى مليئةٌ بجنود الإنجليز المدجّجين بالسلاح، في وسطهم رجلٌ مصري يخفي ملامحه بلثامٍ كبير، كأنه لا يريد أن يتعرف أحدٌ على هويّته، ما إن وصلت هذا الركب إلى مدخل القرية حتى أوقفتهم قواتُ الهجانة التي تفرض حظرَ التجوال في القرية على جِمالهم العالية وفي أيديهم السياطُ السودانية الطويلة، إلا إنّ الرجلَ الأنيق أخرج رأسه من نافذة السيارة وقالَ في صرامة في عربيته الركيكة: افتح الطريقَ يا عسكري. نظرَ عسكري الهجانة لمنظرهم وهيأتهم فعرف على الفور مَن هم، كانت لهجته شديدة الصرامة ففتحَ عسكري الهجانة الطريقَ على الفور وظلّ يراقبهم وهم يسيرون في هدوء داخلَ الشوارع حتى وصلوا لطرفِ القرية المقابل حيث منزل سلام ودليلهم الملثم يقودهم ويرشد السائقين للطريق. وصلَ الركب

أخيرًا إلى وجهتهم التي حدّدها لهم الدليلُ المصري، لكنهم لم ينتبهوا إلى ظلٍّ حبيب الذي شعر بهم، فتتبّعهم حتى وجدَهم يتجهون إلى منزل سلام، وسمع صوتٌ مصري من داخل إحدى السيارتين يتبادل الحديثَ مع أحدِ الجنود الإنجليز قائلًا له في سعادة:

لو نجحتِ الخطة يا فرانك سنفوز بجائزة كبيرة من مستر جورج.

أجابه فرانك قائلًا: المهمُّ أن نتمكن من القبض على ذلك المجرم. شعرَ حبيب بالخطر، فاتجه بأقصى سرعة تسمح بها هيئته البشرية إلى تحت النافذة، وهمسَ لسلام وهو يلهث في شدةٍ بأنْ يهرب، لكن السيارات اقتربت من المنزل وكان جرحه قد بدأ ينزفُ من جديد من شدّة العدو، فاهتز جسدُه في قوة ولم يقوَ على الوقوف فدخل بين الزراعات يراقبُ الموقف، نزل الجنود في خفّة ليستطلعوا الأمر ثمّ أحاطوا بمنزل سلام من جميع الجهات، واتجه أحدهم متسللًا بالقرب من نافذة المنزل، وبدأ في الحفر بيديه في هدوء، وما هي إلا دقيقةٌ حتى عثرَ على بندقية من سلاح الجيش البريطاني، لكنه عندما حملها ليتّجه بهم إلى قائد القوة تعثر وسقطتْ منه فأحدثت صوتًا، كان سلام مستيقظًا في تلك اللحظة يجلس بجوار زينب، فشعرَ بالحركة خارج النافذة، فخرج ليستطلع الأمر، وما إن فتح الباب ودار حول المنزل ليتفقّد النافذة حتى فوجئ بهم يكمّمون فمه ويلقونه أرضًا، فتشبّث قبل سقوطه بياقة أحد الجنود الإنجليز، فانتزعت

يدُه زرًا نحاسيًا سقط أرضًا واختفى تحتَ الأقدام في خضمّ الشد والجذب، زرًا نُقش عليه حرفٌ (B) بالإنجليزية. حاولَ مقاومتهم ظنًا منه بأنهم لصوص، كلُّ ما كان يشغل باله في تلك اللحظة هو زينب، جاهدهم قدرَ طاقته، لكنهم نجحوا في تطويقه في عنفٍ، وأسقطوه على الأرض على وجهه، فشعرَ بذرات التراب تملأ فمه الذي لم يكن ينطق إلا بكلمة واحدةٍ لم تتجاوزْ حلقَه: (زينب)، ثمّ تلقى ضربةً على رأسه جعلتِ الدنيا تظلم أمام عينيه، وكانت آخر المشاهد التي سجّلها عقله وهو ملقًى على الأرض صورة النافذة التي يتحرك خلفَها ضوء المصباح الزيتي المرتجف، وظِلُّ زينب وقد أصابها القلق لتأخُّره وهي تضع طرحتَها على شعرها، وتتجه ناحية الباب لتتفقد سبب غيابه، لكنّ مرافقيه لم يمهلوه وألقوه في إحدى عرباتهم مقيّدَ اليدين من الخلف، ووضعوا على عينيه عصابةً سوداء، وانطلقوا بعد أن نفذوا مهمّتهم التي جاءوا من أجلها، وعندما خرجتْ زينب كان الأوانُ قد فات، لم تجده ولم تره منذ تلك الليلة.

لم تكن محنته قد بدأت بعد، فبعدَ فترة طويلة لم يستطع فيها تحديد تفاصيل الموقف ولا الوقت، استيقظ ليجد نفسَه في غرفة ضيقةٍ مظلمة تشبه السجنَ لا تزيد مساحتُها عنِ المترين، يبدو الضوء الذي يدخلها ضعيفًا لا يكاد يميز فيه تفاصيلها، كان عاريًا إلّا مما يستر سوءته، حاول جاهدًا فهمَ ما حوله، لكنه لم يجد حتى مَن يجيبه أو يخبره أين هو أو ماذا يحدث له؟، كلُّ ما كان يرافقه في زنزانته هو دلو قذرٌ

لقضاء حاجته، الصداع في رأسه من أثر الضربة كان قاسيًا جعلَ ذاكرته تجاهد من أجل الوصول إلى أبسط التفاصيل، أمّا البرد فبدأ على الفور في لعب دوره، تماما كما رُسِم له، ينخرُ في جسده العاري حتى يصلَ إلى الأعصاب، فشعرَ بأنه سوف يفقد وعيه من شدته، كان المكان خاليًا تمامًا من أيِّ فُرشٍ لتقيَه من سياط الشتاء القارص، فجلس يفرك جسدَه بيديه في ركن الزنزانة ليبعث بعض الدفء فيه، متجهًا ببصره إلى الباب على أملٍ أن يدخل عليه أحدهم، فيخبره ماذا يحدث، ولماذا هو هنا؟، لكنه قضى في ذلك العذاب يومين كاملين لم يرَ فيهما وجهًا واحدًا يخبره ماذا يحدث؟، قضاهما بدون طعامٍ أو شراب حتى خار جسده تمامًا، وصرخت خلاياه تئنُّ من الألم الذي انتشر في كلِّ جزءٍ من جسمه كالنار التي تحرق حطب الصيف الجاف، توقّف عقله تمامًا عن التفكير بعدها، وفي اليوم الثالث دخلَ الزنزانة رجلان ضخمَا البنية، يحمل أحدهم إناءً به ماء بارد، وبلا مقدمات سكبَ الدلو مباشرة في وجه سلام فأغرق جسدَه بالكامل، فصرخ فزعًا وجسده المنهار يئن، أما الرجلُ الثاني فأخذ يلهو بسوطه الطويل ويبتسم كأنه يلاعبُ كلبًا أمامه، ثمّ نزل عليه بسوطه في حرفية، كانت كلُّ الضربات تركزُ على الظهر والأرجل، أمّا الرأس فهذه خزانة المعلومات ويجب أن يبقيها سليمة، ويبقيه متيقظًا، كانت صراخاتُ سلام تشق الجدرانَ شقًّا من شدّة المعاناة، لا بدّ أن الشيطان نفسه هو من وضع هذا المخطط الذي كان كفيلًا بنزع الروح من الجسد شيئًا فشيئًا، ومحو إنسانيته

ببطءٍ، ثلاثة أيام في هذا الجحيم بلا توقف مرت عليه كأنها ثلاثة شهور، حتى شكّ في أنه داخل كابوس غير معلوم البداية، لكن الآلام الموحشة في جسده والآثار التي حفرها السوط في جسده، كانت تخبره أنه في قلب الحقيقة، لكنها حقيقة مرّة، عندما ألقيت له كسراتٍ من خبزٍ انقضّ عليها كالحيوان الجائع، يأكلها مرتكزًا على ركبتيه ووجهه للأرض، والحارسان يحاولان أن يبعداه عنها بالسوط، وهما يضحكان بصوت عالٍ، لكنه تشبّث بها كمن ألقي له طوقُ النجاة وهو على حافّة الهلاك، وسط هذه الدوامة الرهيبة المتصلة، وبينَ الإغماءات السريعة والتي كانت بالنسبة له هي فترات الراحة؛ لأنّ عقله كان يفقد فيها الاتصال مع أعضائه التي انهارت تمامًا، رأى زينب، تبكي وهي تمسح على جراحِه الغائرة في جسده كالنهر الجاف وتضمدها، ثم رآها تجلس أمام بيتِها شاردةً حزينة تنتظره، لكنّه رؤياه انقطعت فجأةً على دلوٍ من الماء البارد يغرق جسدَه المتخشب، فجعل كلّ خلاياه تصرخ وتئن، وجعله يشهق وكأنه يعودُ للحياة مرة أخرى، ليفاجئ هذه المرة بضابط إنجليزي يرتدي ملابس عسكرية، له شاربٌ رفيع له طرفان مدبّبان ينزلان إلى نهاية شفتيه، يجلس أمامه وقد وضع قدمًا على الأخرى يتأمله في ترقبٍ ليتأكد من أنه استردّ وعيه وأصبح جاهزًا للحديث، خلف الضابط يقف ذلك الملعون يحمل في يديه دلوه المليء بصنوفِ العذاب، بنظرات مشوّشة فتح سلام عينيه ليتفحصَ التفاصيل التي أمامه، ثم جاءه السؤال الأول والذي نطقَ به الرجل الجالس، والتي كانت كلماته هي أولَ كلمات يسمعها سلام منذ خمسة

أيام كاملة لم يذق فيها طعمَ النوم ولا الراحة حتى اختلطتِ الصور أمامه، سمع محدّثه يقول له في عربية غريبة اللكنة:

كيف حالك يا سلام؟

أجابَه سلام وقد ازرقّت شفتاه، وصارَ جسده ينتفض في عنف: الحمد... لله.

قال له الرجل: متى عدتَّ من القاهرة إلى القرية؟ أجابه سلام وهو يوشك أن يفقد وعيَه مرة أخرى: منذ خمسة أعوام. لم يكمل الكلمةَ إلا وقد أغمضَ عينيه وتلاشت صورُهم من أمامه، فانتفض فجأة على سوط مؤلم يضرب جسدَه، فعاد إدراكه على الفور، فأكمل الجملةَ بلا وعي صارخًا: عدتُ للمحمودية منذ خمسة أعواااام.

ابتسم الرجلُ لهذه اللعبة المسلية، وسأله وهو يتأمّله في شك: أين السلاح الذي سرقتموه من الكامب الإنجليزي؟ أجابَه سلام متعجبًا: أيُّ سلاحٍ؟ ابتسم الرجل قائلًا: السلاح الذي سرقته أنت وزملاؤك من الكامب؟. لم تختفِ دهشةُ سلام وهو يقول في ببساطة: أنا لا أعلم عما تتحدث.

بدَا الغضب على وجه الرجل وكأنه شعرَ بأن سلام يسخرُ من سؤاله، فأشار للشيطان الذي يجاوره فضرب سلام سوطين مُتتابعين التفَّ أحدهما حولَ رقبته وجذب الرجلُ سوطه في عنف فانكفأ سلام على وجهه والدماءُ تسيل من رقبتِه وفمه، وأصبح مباشرة تحتَ قدمي الرجل الذي يجلس أمامه، فأمسك الأخيرُ بشعره في عنف وهو يقول: اسمع

أيُّها الحشرة.. ليس لديّ وقت أضيعُه معك، سوف نصل إلى السلاح بأيّ وسيلة حتى لو أحرقناك حيًا. أجابه سلام خائفًا: أنا في القرية منذُ خمسة أعوام ولم أخرج منها، ولا أعلم عما تتحدث.

فهاجَ الرجل أكثر، وركله بحذائه الغالي في وجهه فأطاحَ به، ونهضَ على الفور يتأمل في اشمئزاز حذاءه الذي تساقطتْ عليه دماء سلام، ثمّ نظر إليه قائلًا: سوف أجعلك تتحدّث. ثمّ أشار للرجل الضخم، فانقضّ الرجل على سلام الذي خارتْ قواه بعد ضربتين متتاليتين ولم يعد يشعر بجسده.

أينَ أنت يا سلام؟

هل آذوك يا حبيبي؟

سمعَ مَن يهمس له بهذه الكلمات الرقيقة، كانت جدرانُ الزنزانة قد تحولت أمامه لضبابٍ أبيض كثيف، أخفى خلفه كل تفاصيلها القميئة، مِن خلف هذا الضباب الأبيض خرجت زينب تحمل طفلًا صغيرًا في يديها، تبتسم وهي تقول له: ألا تريد أن تستقبلَ طفلنا معي؟ حاول سلام تحريكَ شفتيه لكنه فشل، كانت ثقيلة كالجبال، حاول أن يمدّ يده لها، لكنه فشل في تحريكها بسبب القيد الذي قيدوه به وعلّقوه في سقف الزنزانة، بالكاد تلمس قدماه الأرض، يسيل من فمِه لعاب مختلطٌ بالدماء، يتساقط بطريقةٍ لا إرادية على صدره، عندما نجحَ أخيرًا في فتح عينيه لم يجد زينب، بل وجدَ ذلك الرجل المنمق وقد عادَ بعد أن نظف حذاءه الفاخر من دماء سلام

التي أصابته، كان يجلس واضعًا قدمًا على أخرى، وقد أشعلَ سيجارةً وظلّ يتلاعب بنفخ الدخان في سقف الزنزانة، ثم التفت إلى سلام والذي بدأ يهذي بكلماتٍ غير مفهومة، انتفضَ بعدها على صوت سوطٍ يضرب في الهواء كصوتِ الرعد، مما جعل الجميع يضحكون ضحكاتٍ عالية لم يسمعْها سلام، ثمّ سأله الرجل: هل تعلم أين أنتَ يا سلام؟، ثم أردف مباشرة: أنت في اللامكان.. لن تخرجَ من هنا إلّا على القبر أو إلى المشنقة، ولكن ليس قبلَ أن تخبرني بكل ما تعرفه. بكلمات أشبه للهذيان قال له سلام: عن ماذا؟ أجابه الرجل في عنفٍ: عنِ المؤامرة التي تدبرونها لتخريب معسكرات الإنجليز في كل المديرية؟. على الرّغم من معاناته إلا إنّ سلام لم يُخفِ اندهاشَه قائلًا: أقسم بالله أنا لا أعلم عما تتحدث. نظر إليه الرجل في سخريةٍ وهو يقول: صدّقني لن تحتمل ما هو قادم.. لن تتحمّل تحقيقات المخابرات البريطانية معك، أنا أكثر رحمةً ممن هو قادم خصيصًا من القاهرة للتحقيق معك.

نظرَ إليه سلام في إعياءٍ وقد اختلط في فمه اللعابُ بالدماء قائلًا في كلماتٍ متقطعة: أنا.. لم.. أفعل شيئًا.. مما تقول.

كانت إجابةُ سلام ذنبًا لا يُغتفر في عُرف الرجل المنمق، فألقى سيجارته على الأرض وقام من على مقعده وداسها بحذائه ونظرَ إلى سلام قائلًا: كما تحب، هل تتصور أنّ هذا تعذيب؟! صدّقني معاناتك لم تبدأ بعد. وخرج من الباب تاركًا ذلك الشيطانَ الإنجليزي الضخم الذي ابتسم في شماتة وهو ينظر لسلام الذي يحرك شفتيه بكلمات غير مفهومة لم

يفسز منها غير كلمة واحدة.. زينب. ضحكَ الرجل وهو يقول: هل تريد أن نحضرَ لك زينب لتسليك وتسلينا؟، ثمّ بدأ لعبةَ السوط والمياه الباردة مرة أخرى حتى غاب سلام تمامًا عن الوعي.

ويبدو أنّ كلام الرجل المنمق كان صادقًا تمامًا، فبعد يومين وصلَ لزنزانته (باتريك لوين) ضابط المخابرات البريطانية قادمًا من القاهرة، كان طويلًا عريضَ الذقن، حليقَ الوجه، عريض الجبهة، صارم الملامح، ومعه اثنان من الرجال ضخام بشكلٍ ملحوظ، كانت وظيفتهما في الاستجواب واضحة، وهي أن يقتلوا كلّ إحساس لديه ولا يتركون إلا إحساسًا واحدًا... الألم ثمّ الألم ثمّ الألم.

حكى له سلام بحروفٍ مرتجفة تاريخَ حياته بالكامل، إلا إنّه أنكر تمامًا أيّ صلة له بالتهمة التي ينسبونها إليه، وهذه كانت تهمةً جديدة في غرف باتريك لوين، لا يتخيل أن يصمدَ أمامه رجل أكثر من ثلاثة أيام، الأشهر التالية كانت تحملُ لسلام عذابًا طويلًا ممنهجًا، فقد حُرِم من النوم لمدة طويلة، يتناوبه حارسان كل ساعتين يمنعانه من النوم، كانت طاقة باتريك لوين ومساعداه لا تنتهي، كأنهم ليسوا بشرًا، استعملوا مع سلام كل خبراتهم في الاستجواب والتعذيب لدرجةٍ أوصلته إلى حافّة الموت والجنون، أشهر لا يعلم عددَها، وجحيم لا يعلم له نهاية ولا سببًا، جعلت منه شخصًا آخرَ، فالعذاب يشوّه الروحَ ويقتل الرغبةَ في الحياة، يدوسها ويحطمها دون أن يلتفت، والذل يكسر الرجال كسرًا ويقهرهم ويمحو في

قلوبهم كلّ رغبة في الحياة، كأنه نارٌ مرّت على أرض يابسة في يومٍ شديد الحر، فتركتها محترقة ليس بها سوى طعمِ الخراب، والقهر يزلزل قلوبَ أعتى الرجال وأكثرهم صلاحًا، أما القلوب النقية الشفافة التي لا تتأثر بالمحن فهذه خرافاتُ القصص تُحكى فقط للصغار لتئدَ داخلهم الشرّ في مهده، أما حقيقة القلوب فهي أشبه بالمحيط الغادر الذي ينفثُ غضبه فجأة، ينقلبُ ويثور ويعصف فيمحو الحياةَ في داخله تمامًا. في بداية الأمر كان عذاب سلام الجسدي يفوق تحملَه فكان صراخُه لا يتوقف، لكن اعتياد العذاب قد يُخرج الحيوان المفترس من داخل الإنسان، فبعدَ فترة من روتينه الذي لم يفهمْ له سببًا في يومٍ من الأيام، بدأ سجانوه يملّون منه وقد توقف تمامًا عن التوجع، كان ظهرُه وجسده يشبهان الغابةَ المحترقة، مزيج من اللون الأزرق والأحمر والأسود، وكأن الجلد قد صار كالأرض التي مرّت بها كارثة أو ضربها البرق، فكان جلاده يشعر بالألم في يده من كثرة استخدام السوط، دون أن ينبت سلام بحرف واحدٍ، صامتًا كقطعة الحديد، كان كلُّ ما يصدر عنه هو أنفاسًا تزمجرُ كالنمر الجريح. لكن الجسد أيضًا له حكمٌ، فقد بدأ بالانهيار تحتَ وطأة التعذيب المستمر والتحقيق الذي لم ينقطعْ من الرجل المنمق و(باتريك لوين) ومعاونيه، ثمّ جاءَ يوم لاحظ فيه سجانوه توقفَ أنفاسه، وتوقفت حركته تمامًا فتفحّصه أحدهم فوجده لا يتنفس، وقد أصبح جامدًا باردًا كقطعة الصخر، فنظرَ لمرافقه قائلًا: إنه لا يتنفّس. تفحّصه الآخر فوجد أنفاس سلام قد توقفت بالفعل، ولم يشعز بنبض في يده فوضعَ أذنه على قلبه

فوجده خامدًا تمامًا، فاستدعى (باتريك لوين) على الفور فتفحصه ثمّ قال لهم: لقد مات.

ثمّ فكر قليلًا قبل أن يحسمَ أمره ويقول لهم: احملوه إلى أقرب أرض فارغة ألقوا جثته في حفرة دون أن يلاحظكم أحد من المصريين، وبالفعل حملوه كما هو بجراحه وملابسه القذرة وكأنه جسدٌ بلا كرامة، يُدفَن بلا غسلٍ ولا صلاةٍ، كأنه جيفةٌ لحيوان ضالٍّ لا بدّ أن يتخلصوا منها، فما إنِ انتهوا من عملِ حفرة لإلقاء جسده فيها حتى أصابهم الإعياء، فألقوه في الحفرةِ وجلسوا يلتقطون أنفاسَهم على بُعد أمتار من الحفرة، نظر أحدُهم للآخر قائلًا: هذا الملعون أعيانا حيًا وميتًا. تأفّف الآخر وهو ينهض من مكانه قائلًا: دعنا ننتهي منه ونعود سريعًا. لكنه ما إن همّ بالقيام لردم الحفرة حتى وجدها خالية تمامًا، وجثةُ سلام ليس لها أثر، فنظرَ لزميله في قلقٍ، ودققَا النظر في الحفرة وفي الأرض المحيطة التي غطاها الظلام تمامًا، ثمّ ابتلع أحدُهم لعابه في صعوبة وهو يقول للآخر: أين ذهبتِ الجثة؟ نظر له رفيقه في شكٍّ قبل أن يقول له: لست أدري، وهل الجثث تمشي؟!. لم يتلقَّ ردًا من رفيقه الذي أجمع أمرَه وحمل الفأس وهمّ بردم الحفرة وهو يقول: لم يعلم أحدٌ بما حدث، لا نريد أن نجلبَ المشاكل لأنفسنا، لقد ماتَ ودفنّاه وانتهى الأمر، وإذا سئلنا عن مكان الدفن نقول إنّنا نسينا المكانَ في الأرض الواسعة. نظر له الثاني مقتنعًا وهمّ بمساعدته وهو يقول: دعنا ننهي الردم فأنا أشعرُ بأن هناك شيئًا غريبًا معنا في هذا المكان. وبعدَ دقائق

كانوا قد انتهوا من الردم وحملوا أمتعتهم وعادوا سريعًا وهم يتلفّتون حولهم إلى المكان الذي خرجوا منه، والذي يقف صامتًا كرمزٍ للمعاناة والعذاب لكل من يدخله، المكان الذي كانَ يُعرف بـ(كامب الغربية الكبير) والذي كان يقع في بندر (المحمودية).

***

كان سلام يحكي كلّ تلك التفاصيل وملامحه ترتجف، وكأنّ وجهه سينفجر، فقال لحبيب: كانت لحظاتي الأخيرة في الدنيا أشبهَ بمن يحاول جزّ سفينة ضخمة بشَعرة صغيرة، كنت أسمع حديثَ الجلادين وأرى جسدي الملقى تحت أرجلهم كالخرقةِ البالية بلا حراك، لم أكن أعلم هل أنا ميتٌ حقًّا أم أني مازلت على قيد الحياة، كانت هذه أول مرة أرى فيها جسدي بعد كلّ تلك الفترة، كنت جثةً تمشي على قدمين، أرى الرجلين يحملان جسدي متّجهين إلى الحفرة لدفني، لكني وسطَ هذا كله رأيت امرأةً عجوزًا تتكأ على عصا قديمة، لم أتبيّن ملامحها، نزلت إلى الحجرة التي حفرها الرجلان وكأنهما لا يرانها، ووضعت يدَها على صدري فشعرتُ مرّة ثانية بألم كبير يضربني كالصاعقة، ولم أشعر بنفسي بعدَها إلا وجسدي ملقى بين الأراضي الزراعية المحيطة بـ(المحمودية)، وكأنّ كل ما مررت به كان كابوسًا.

كان يلهث وهو يحكي وكأنّ صدره سينفجر، كأنه يشعر بكل لحظةٍ مرّ بها:

كلُّ ما يشغل بالي الآن هو البحث عن زينب، وبعدها سوف أبحث الذي دفع بي إلى ذلك الجحيم.

خرجَ حبيب من بقعة الظلام الذي يجلس فيها واقترب منه فبدَا في هيئته البشرية غير أنه بدا ممشوق القوام، أكثر طولًا مما سبق، ليس عليه آثارُ التشرد كما كان في الماضي، اقترب منه قائلًا: صدِّقني أنا أشعر بما تشعر به، أعلم جيدًا معنى أن تفقدَ حياتك كلها بلا ذنب، وسأكون عونَك ورهن إشارتك.

نظرَ إليه سلام، وقد نزلت دمعة من عينيه كأنها رصاصةٌ تخرج في الاتجاه العكسي، قُذِفت رغمًا عنه وهو يقول: أريد أنْ أصل لزينب.

أجابه حبيب وهو ينظرُ له في تأثرٍ ومرارة: أنت لا تعرف ماذا حدثَ في غيابك، لا تعرف كم هم جناة بحقك وحقها، لا يستحقّون رحمتك التي عاملت الجميعَ بها. ثمّ انتفض جسدُه من الغضب وبدَا أكثرَ ضخامة، وبدَا صوته مرعبًا وهو يقول: لا بدَّ أن يأخذ كلُّ مجرم عقابه، حتى وإن فعلته وحدي. تراجع سلام خطوة للخلف وقد أجفله الصوت، فتدارك حبيب الأمرَ سريعًا وعادَ لهدوئه واقترب منه قائلًا: سامحني على غضبي، فقد رأيت منهم الكثير، رأيت منهم ما إنْ علمته أنتَ ستتحول لمفترسٍ يفترس حناجرَهم ويخرج قلوبهم من صدورهم كما فعلت بذلك الملعون. قال له سلام: مَن تقصد؟

أجابه: مَن أراد اغتصابَ زينب في غيابك؟

جحظت عينا سلام في فزعٍ، ثمّ قال مرتجفًا ملتاعًا

والدموعُ تنفجر من عينيه: ماذا حدثَ لها أثناء غيابي؟ هزَّ حبيب رأسَه قائلًا: اطمئنْ ولا تخف، لم يصل لشَعرة منها، فعلت كلّ ما أمكنني لحمايتها. قال له سلام متلهفًا: هل تعرف مكانها؟

أجابَه حبيب: للأسف لا، حاولت أن أنقلَها بعيدًا، لأنني لم آمنْ عليها بعدما رأيتُ ما حدث لها في غيابك، واستنفدت الكثيرَ من طاقتي لفعل ما فعلت.

قال له سلام: ماذا تعني؟.

أجابَه حبيب: إنها الآن في حماية الكاهنة (هند بنت الأحمر).. أمي.

نظرَ إليه سلام قائلًا: هل تعني أن زينب لم تعد في عالم الإنس.

أجابَه حبيب في أسفٍ: لست أدري.. لم آمنْ عليها هنا، خاصةً وقوتي تزداد وتنقص كلّ يوم بسبب تلك التعويذة، وقد لا أقدر على حمایاتها مرةً أخرى، لذا فقد استنفدت كلّ طاقتي وأرسلتها لبيت أمي، خاسرًا بذلك وسيلتي الوحيدة للعودة أو الاتصال بها، وهي القلادةُ الخاصّة التي أعطتها لي يوم مغادرتي المنزل قبل الذهاب لقصر الملك، بهذه القلادة سوف تعرفُ أمي أني مَن أرسلها ولن تهملها أبدًا.

نزلَ سلام على ركبتيه كالحجر الأصم باكيًا منتحبًا، رافعًا يديه إلى السماء قائلًا:

ثُرى ماذا فعلتْ بكِ الأيام بعدي يا زينب؟، في أيِّ أرض تخطو قدمكِ المتعبة؟، سامحيني.. لم أقدر حتى على حمايتكِ، القيدُ كان برقبتي يا زينب، فلتغفري لي. ظلّ يبكي حتى خبا الكونُ من حوله، واختفت النجوم وتوارى القمر، فقد كان ألمه هائلًا، لدرجةٍ جعلت حبيب يجلس بعيدًا عنه ينظرُ إليه في صمتٍ منكس الرأس هو الآخر قبل أنْ يقوم إلى سلام ويربّت على كتفه قائلًا:

لا تجعلك محنتُك تذهب هباءً يا سلام، لا تحمّل نفسَك فوق طاقتها، مازالت زينب بخير، أقسم لك برأس أمي أنها ستكون بخير، أنتَ لا تعرف ما الذي يمكن لأمي أن تفعل لحمايتها.

ثمّ أردف قائلًا: الآن دعني أريك سببَ كلّ ما حدث لك أنت وزينب. ووضعَ كفيه على رأس سلام من الجانبين فانتفضَ الأخير متألمًا، وقد شعرَ بسيلٍ من الصور يخترق عقله كأنه خنجرٌ، ثم شعر فجأة بأنه بدأ يسترخي ويغيب عما حوله، وبدأتِ التفاصيل مِن حوله تختلف وكأنه يرجعُ بالزمان وبالمكان، فرأى نفسه في خمّارة الخواجة خريستو في محطةِ القطار، كان جسده أشبهَ بالطيف الشفّاف الذي يختفي عن عيون البشر، اخترق الباب الخشبي الصغير في مقدّمة الخمارة بسهولة، ووجد نفسَه على الفور بالقرب من منضدةٍ يجلس عليها ثلاثة أشخاص تبين وجوههم على الفور (حمدان الأبيض وإسماعيل وصفوان)، كان المشهدُ يبدو لسلام قديمًا وكأنه يخرج من جهاز صدئ، إلا إنه كان يسمع الصوت جيدًا، فسمع حمدان يقول لهم: هل سمعتم

آخرَ الأخبار؟، زينب ابنة حجاج سوف تتزوج من المجذوب؟. سأله صفوان وهو يعقد حاجبيه: مَن تقصد؟ سلام؟

أجابه: طبعًا، ومَن غيره؟، لا أعلم ما الذي يعجبُها في هذا الكلب، لقد قابلت والدها لأطلبها للزواج، وأخبرني أنه فشلَ في إقناعها بعد أن هدّدته بأنه ستقتل نفسها.

ضحكَ إسماعيل وهو يقول: وهل يقدر المجذوبُ على هذه المُهرَة، أراهن أنه سيفشلُ من أوّل ليلة.

قهقَه الجميع وارتفعت ضحكاتهم حتّى ملأتِ الخمارة التي خلث من زوّارها إلا هم، وبعدها قال لهم صفوان: يمكننا على الأقلّ أن نقوم بمحاولةٍ لإبعاده عنها.

نظرَ إليه حمدان وهو يمسح فمه قائلًا: ماذا تقصد يا علامة؟ هل نقتله محلًا؟

ضحكَ صفوان ساخرًا ثمّ قال لهما: القتل هذا أسلوبُ الأغبياء أمثالكم، أما أن فلديّ طريقة أخرى مبتكرة لإزاحة هذا الكئيب مِن على وجه الدنيا، ما أقوم به لا تقدرون أنتم على فعلِه بأجسامكم الضخمة.

نظرَ الاثنان لبعضهما في حيرةٍ، لأنهما يعلمان جيدًا أنه على حقٌّ فيما يقول، فقال له إسماعيل:

ماذا ستفعل به يا ابن اليهودية؟

ضحكَ صفوان ملء فيهِ وهو يقول: خطّتي ببساطة أنّنا سنضعه في مواجهة مع مَن لا يرحمون، الإنجليز، هذا أمر

سيحدثُ دون أن يشعر به أحدٌ. قال له حمدان: ليذهب إلى أيّ داهية، المهم أن يختفي من أمامنا، أتمنى فقط أن تنشقّ الأرض وتبتلعه، رؤيته أمامي مبتسمًا كالبلهاءِ تغيظني، وما زادَ وغطى هو زواجه من زينب التي كنت أعدُّ نفسي في الزواج منها، أعلم أنها كانت تكرهني بسبب هذه الخمرة بنتِ الكلب، ثمّ جاء هذا الملعون لتوافق عليه بلا تردُّد وكأنني كنت حشرةً أو حيوانًا أجرب يتقرب إليها.

ثمّ قال في غيظ: افعلْ كلّ ما تريد لتخفيه مِن على وجه الأرض وأنا سأتكفل بكل ما تريد من مصاريف.

لكنّ الصور بدأت تهتزُّ أمام عين سلام، وتتغير لتحلّ محلها مشاهدُ سريعة مختلطة أشبه بالأحلام غير الواضحة، فكان يرى ذكرياتٍ قديمة من ذاكرة حبيب أثناءَ قيادته للجنّ في معركة الربع الخالي، لكنه رأى وجه المرأة التي أخرجته من الحفرةِ عندما أراد الجلادان دفنَه، كانت تجلس متكئةً على عصاها يبدو عليها الحزنُ الشديد، كأنها في حدادٍ منذ عمر طويل، ثمّ انتقلتِ المشاهد متسارعةً في عقله للمستقبل القريب، فرأى قواتَ البوليس تملأ القرية لتحقق في الحوادث المتتابعة التي وقعت بالقرب من بيت المداخن، أولها في حقل إسماعيل السباعي، ورأى حبيب في هيئته الحقيقة وهو ينزع لسانَه في قسوة ويلقيه بعيدًا قبلَ أن يهمس له: هذا جزاء ما فعلت. والأخرى في قطار الدلتا عندما قطع أشيَل يدَ صفوان وهو يهمس له: هذا جزاءُ ما فعلت، هذا فقط بداية الحساب. ثمّ رأى حمدان يحمل زينب على كتفه يستعدُّ للفتك

بها بعدما أعمثه الخمر ولم تردعه حوادثُ صفوان وإسماعيل، ثمّ رأى جسد زينب وقد اختفى من أمام حمدان عندما همّ بالوقوع عليها، ثمّ أخيرًا مشهد (أشيَل) وقد تحول إلى هيئته الأولى فبدَا مرعبًا غاضبًا وهو يفتك بحمدان ويخرجُ قلبه في يده كقطعة العجين. ثمّ سار بجسده في شوارع وأسواق القرية يستمع لأحاديث الناس عنه وعنْ زينب، فمنهم مَن يقول: لقد هربتْ زينب مع عشيقها بعدما قتلتْ زوجها، لا.. بل سرقت منزل أبيها وهربت للبندر بعدما اختفى زوجُها المجذوب، كانتْ أحاديثهم تمزقُ أذنيه وعقله، تخترق ذاكرته كالخناجر، كان يصرخ فيهم ويلعنُهم لكنّ صوته لم يكن يتجاوز حنجرتَه. كان جسده يرتجف أثناء اتصاله بذكريات حبيب، فخشى عليه، فرفع يديه عنْ جانبي رأسه فشهقَ سلام كما لو كان يُخرج رأسَه من تحت الماء، وقد أغرق العرق جبهته وجسده كله، وظلّ لحظات ينتفض وجسدُه ملقى على الأرض قبلَ أن يرفع رأسه في بطءٍ، وينظر إلى حبيب قائلًا:

كلُّ هذا حدث وأنا كالأبله أبتسمُ في وجوههم، كلُّ هذا وأنا لا أدري ما يدور حولي، كنتُ غبيًا ظننتُ أنهم سيتركونني لو تركتهم وابتعدتُ عنهم. ثمّ أردف وهو يلهث: لم يعجبهم وجهُ سلام الملاك، إذًا فليروا وجه سلام الشيطان. ثمّ بدأ يبكي كما لم يبكِ من قبل، كأنه يستجدي الأيامَ أن تعود ليكفّر عن ذنبٍ لم يفعله، حرقة دموعه جعلتْ حبيب يلزم الصمتَ تمامًا، كان سلام يجثو على ركبتيه ويضعُ كفّيه على الأرض كأنه عجز عن النهوض، كانت صدمتُه عظيمة لم يتحملها، يسأل

نفسَه كيف كان أحمقَ إلى هذا الحدّ، ولم يرَ كلَّ ما كان يحدث حوله؟ كيف توقع الحبّ من قلوبٍ تغلغل الحقد داخلها بلا سبب؟ كان يرى نفسه أحمقَ كما كانوا يرونه مجذوبًا، أعمى ظنّ أنه سيعيش بينَ الملائكة على الأرض، يلوم نفسَه أنه ترك ظهره عاريًا لهم، لماذا لم يريَهم منه ما يجعلهم يهابونه كما يهابون قاطعي الطرق، كيف أفضى لهم بكلّ ما في قلبه من اللين حتى ظنّوه ضعيفًا لا نابَ له، أقسم أنه يجعلهم يعانون كما عانوا، يخافون كما خاف، يُعذّبون كما تعذّب. كان ينتحب في شدّة جعلت صوتَه أشبه بصوت حيوان جريح في الشرَك، إلا إنّه التفت إلى حبيب مخاطبًا إياه باسمه الحقيقي وكأنما يخاطب المارد الذي في داخله:

يا أشيَل، لقد أنقذتُ حياتك يومًا، أريدك أن تساعدني كما ساعدتك.

***

# الفصلُ الثّالث

ألم أخبزك بقصة الهجانة؟، قواتُ حظْر التجوال التي كانت تقيم في (المحمودية) طيلةَ عام كامل، قبل هذا العام كان الجوُّ هادئًا لولا الصراعُ الذي نشأ فجأةً بين عائلتين بعد أن قام أحدُهم بشراء قطعة أرض بور قديمة من جاره بثمن زهيد، كان الأولُ يظنُّ أنه تخلص منها للأبد، فقد كانت تُميتُ أيّ زرعٍ تتم زراعته فيها، فقرر الرجل عرضها للبيع بأيّ ثمن لشراء قطعة أرض زراعية غيرها صالحة للزراعة، تعجّب البائع من موافقة الشاري على الثمن سريعًا، وبعد أيامٍ قليلة كان الرجلُ يقوم بتجريف التربة وإزالة الطبقة المالحة منها، ووضْع طبقة ترابية جديدة، وبعد مجهود شاقٍّ استطاع إزالة طبقة تقدّر بنصف متر منها، وأثناءَ عمله في الأرض اصطدم المحراث في كتلة صخرية كبيرة ظهرت بعد التجريف، فحاول إزالتها، لكنّه فوجئ بتمثال من الحجر يرجع للتاريخ الفرعوني كان مطموسًا تحت الطبقة السطحية للأرض، فأخرجه بمساعدة أبنائه. انتشرَ الخبر سريعًا بأنه اكتشف مقبرةً فرعونية تحت سطح أرضه، وبالطبع وصل الخبرُ للبائع، فحاول بكافّة الطرق أن يعطيه أضعافَ ثمن الأرض، إلا إنّه رفض رفضًا قاطعًا، بالرغم من أنه لم يخرج غير التّمثال الحجري المتهالك، ظنًّا منه أن الأرضَ تخفي كنوزًا أخرى، وقامت مشادة كلامية بينهما انتهت بالشجار بالأيدي وتقاتل العائلتين بالكامل، وفي غمرةِ الشجار سقط أحدُ القتلى بفأس مجهولةٍ، فانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وحضرَ

العسكر من البندر بعدَ فشل العمدة في الفصل بينهما، وكذلك فشلت قوات البوليس الآتية من البندر، فلم تجدِ المديرية غيرَ الهجانة لفرض حظر التجوال في القرية، ووَضَع المركز حراسة مشددة على الأرض المتنازع عليها والتي تحوّلت إلى مشاعٍ، يحاول كلُّ سكان القرية الحفرَ فيها ليلًا. أعمى الطمع عيون الجميع ، فكان كل رجل يأخذ أولاده سرًا في جنح الليل يحاولون استكمالَ الحفر، علهم يصلون لشيءٍ من ذهب الفراعنة المدفون في الأرض، هكذا تحوّلت القرية لغابة بذلت فيها الهجانة مجهودًا كبيرًا لفرض حظر التجوال. في وسط هذه الغابة بدأت قصة سلام وزينب.

***

رنّ الهاتف المجاور لمكتب محمد الأسيوطي مفتش مباحث البندر، فرفع الهاتف فسمعَ على الجانب الآخر عمدةَ (المحمودية) يصرخ، وحولَه ضوضاء مرتفعة كأنه يتحدّث من ميدان معركةٍ كبيرة، جاء صوته مرتعشًا وهو يقول: مصيبة يا محمد بيه.

قال له محمد الأسيوطي: ماذا لديك هذه المرّة؟

أجابه العمدةُ بنبرةٍ أقربَ للبكاء: هناك حربٌ قامت في القرية جنابك.

كان صراخُ النسوة حولَ العمدة والذي ينتقلُ عبرَ الهاتف ينبئ بمصيبةٍ حقيقة، فقال له محمد الأسيوطي: ماذا تعني بحرب؟

أجابه العمدة: البلد كلّها اتجنّنت، كله بيقتل في بعضه، أنقذْنا قبلَ أن تحدث كارثةٌ جديدة.

بعد أقلّ من ساعة وصلث قوة من البوليس بقيادة الأسيوطي، ففوجئت بحالةٍ من الفوضى والعراك كأن الجميع قد أصابَهم مسٌ من الجن، وكأنّ الشيطان قد أحضر كرسيًا وجلسَ على جانب الطريق يدخن سيجارةً فاخرةً بعد أن نَفَسَ نَفْسَتَه الكبرى وجلسَ يستمتع، بدأتِ الحكاية عندما وجد أحدُ الفلاحين- وبدون مقدمات- تمثالًا ذهبيًا ملقى على الطريق بجوارِ الأرض المتنازَع عليها، فأخذَه على الفور وحاولَ أن يخبأه في ملابسه فلمحه أحدُ الفلاحين، فحاول انتزاعَ التمثال منه، وقامت بينهم عركةٌ كبيرة سقط أحدُهما على وجهه يمتلئ فمُه بالتراب، إلا إنّه لمح في وسط الأرض تمثالًا جديدًا يلمع تحتَ أشعة الشمس، فقام من سقطته مندفعًا نحوه يحاول الحصولَ عليه قبل غيره، وهكذا انتشرتِ الأخبار أنّ الأرض البور تلفظُ كنوزها على السطح، فانطلقَ كل الأهالي إليها، كان ما يحدث غريبًا بحق، جلس الجميعُ حول الأرض كأنهم في سباق، وكلّ فترة تظهر قطعةٌ ذهبية بلا مقدّمات على سطح الأرض، فينطلق الناس إليها كالمجانين، يتعارك الأبُ وابنه للحصول على الذّهب، تتقاتل الأمُّ وابنتها للحصول على الخبيئة التي تلفظها الأرض كلّ حين، حتى تحولت القريةُ كلها إلى ساحةٍ لمعركة كبيرة لا تستطيع تحديدَ أطرافها، حتى قوات الهجانة حاولت بمساعدة قوةِ البندر تفريقَ الأهالي، لكنّ

القطع الذهبية التي خرجت من الأرض كانت تعمي أبصار الجميع، فكانوا يتقاتلون فيما بينهم أيُهم رآها أولًا!.. لكنهم لم ينتبهوا إلى ذلك الشابّ الأشعث الأغبر الذي طالت لحيته وشَعره، وبرزت عظامُ وجهه كالموتى وهو يراقبهم من بعيدٍ في برودٍ واشمئزاز، يراقبهم وهُم يأكلون بعضهم من أجل قطع صفراء زائفة ألقاها إليهم (أشيَل) كالعظمةِ التي تلقى للكلاب، يتصارعون عليها كالضّواري في جنونٍ، ثم نظر إلى ناحية الطريق الذي يدخل القرية فشاهدَ سيارة المركز تدخل مُسرعة، فقال لأشيَل: هيّا بنا. عندما وصلت سيارة محمد الأسيوطي رأى أغربَ ما رآه في حياته، غبارًا يملأ سماءَ القرية بالكامل والجميع بلا استثناء يتصارعون بالعصيّ وبالنبابيت، كانت الدماءُ تغطي وجوهَ الكثير منهم، وقواتُ الهجانة بسياطهم السودانية تحاول أن تفرقهم، الغريب أن ضرباتِ السّوط السوداني التي كان الجميعُ يعرف طعمَها في جسده لأيام طويلة إذا ضُرب به، هذه الضربات الآن صارتْ بلا جدوى كأنهم قد فقدوا الإحساسَ فجأةً، ولم يعد أحدٌ منهم يشعر بضرباتِ السياط التي تحفر في أجسادهم حفرًا، لم يكنْ أمامه إلا أنْ يخرج مسدسه ويطلق منه طلقاتٍ مستمرّة في الهواء ليفرقهم، لكنه لم يجد استجابة وكأنهم فقدوا عقولهم، وبعدَ لحظات بدأتْ قوات الهجانة تسيطر على الوضع قليلًا، وقبضوا على عددٍ من الفلاحين وقد أغرقتِ الدماء وجوهَهم ورؤوسهم، وقيّدوهم ليرتدع الباقون، وقاموا بمصادرةِ التماثيل الذهبية التي عُثِر عليها، كان الأسيوطي الرجل الذي نشأ في صعيد مصر حيث حمأة

الثأر وجذوته المشتعلة، لم يرَ مشهدًا بهذا الشعار ولا قومًا بهذه العقول، جُمِعَت التماثيل الذهبية وجلسَ الأسيوطي بعد فرض السيطرة على القرية يتأمل التماثيل الفرعونية التي ظهرت فجأة بلا مقدمات كما حكى الفلاحون الذين تمّ استجوابُهم، والذين اتفقوا على نفس الرواية، كانت الأرضُ تلفظها، هكذا كما يلفظ البحرُ نفاياته القديمة! لكنّ الأمر ليس بهذه البساطة، كان يعلم جيدًا أن كلّ ما شاهده في تلك البقعة إنما كان يتعلق بها دونَ بقية البلاد والمديريات التي خدم فيها سابقًا، لا ينسى بالطبع سلاحه الأميري الذي وجدَه داخل جثة حمدان الأبيض، لا ينسى مشهدَ صفوان وهو يصرخ كالمجنون داخل المستشفى الأميري بلا سبب، ترى ما الذي يدور داخلَ تلك البيوت المغلقة وداخلَ تلك النفوس الغريبة من البشر، لماذا ترتبط الحوادث الغريبة بتلك القرية، كان يجلس على كرسي أمام تلك الأرض المتنازع عليها يدخّن سجائره الواحدة تلوَ الأخرى كمدخنة الفخار بلا توقف، كان يحاول ربطَ كلّ الخيوط منذ قدومه للخدمة في تلك المديرية، كلُّ الجرائم التي كان يحقق فيها في كل أنحاءِ البندر مجرّد جرائم عاديةٍ كالسرقة والقتل وغيرها، أما تلك القرية فكلُّ جرائمها لم يرَ مثلها، كأنّ كل الحوادث التي رآها هنا ترتبط بخيطٍ واحد، إلا إنّه فشل تمامًا في معرفتِه حتى الآن؛ لذا قرر البقاءَ في القرية ليكمل التحقيقات بنفسه.

وما زادَ الطين بلةً عندما جاءَه العمدة يُهرول وهو يصرخ قائلًا:

يا محمد بيه، المساخيط الذهبية التي تمّ جمعُها.

أجابه الأسيوطي: ما لها يا عمدة؟

أجابه العمدة مرتعشًا: تحولت إلى حجارة!

***

في نفس الليلة في مستشفى البندر، في ذلك الرُّواق القديم المنخفض السقف، الذي يشبه سقفَ الخنادق القديمة، والذي يربط بينَ حجرات المستشفى تضيئه مصابيحُ الغاز، تقدّم الممرض حاملًا وعاءً معدنيًا به حقنةٌ مهدئة اعتيادية لمريضٍ بعينه يُصاب بنوباتِ فزع مستمرة منذ دخوله إلى المستشفى، لم يكن هناك شيءٌ يجعله يتوقف عن نوبات الصراخ سوى حقنة بها نسبةٌ عالية من المهدِّئ القوي، يسقط بعدَها في سبات عميق كالحجر، كانت خطوات الممرض تحدِثُ صوتًا يبعث التوترَ في نفسه وقد خلتِ المستشفى من الزوار تمامًا في تلك الليلة، كان النور الخافت الذي ينير الرواقَ الطويل يضفي عليه شيئًا الغموض. فتحَ الممرض بابَ الحجرة وتقدم في هدوء نحو المريض، ونظر إلى يده المقطوعة وقد بدأتْ جراحها في الالتئام، إلا إنّ الألم فيها كان شديدًا لا يتوقف، تقدّم منه الممرض قائلًا: كيف حالك اليوم يا صفوان؟ قال صفوان في إجابةٍ مُقتضبة: بخير.

بدأ الممرضُ في تجهيز الحقنة إلا إنّه اكتشف أنّه نسي زجاجة المهدئ التي يسحب منها، فقال له: سأعود بعد قليل. خرجَ الممرض من الحجرة، فتلفّت صفوان حوله في قلقٍ،

فقد كانت ساعات الليل تمثل له محنة كبرى، خاصةً عندما تخلو حجرته من المرضى ويبيت وحيدًا في تلك الحجرة الواسعة، كأنه ينتظر زائرًا رهيبًا زاره مرةً واحدة بعد دخوله إلى المستشفى، لا يعلم له وصفًا، عصف بكيانه عصفًا عندما رآه في القطار أثناء عودته من البندر يوم الخميس المشئوم، كانت تلك الذكرى تأكل عقلَه، وتحرق كلّ ذكرياته الأخرى فتصبح هي المسيطرة، لا تعطي مساحة لعقله للنسيان، كان صوتُ ذلك الكيان من الأصوات التي لا يسمعها الإنسانُ في حياته إلا مرةً واحدة، يكون وقتها على حافة الهلاك، لم ينسَ صفوان كلماتِه القليلة التي همس بها به قبلَ أن يفتك به ويغيب بعدها عن الوعي: هذا جزاءُ ما فعلت، هذا فقط بدايةُ الحساب.

كان إحساسُه بالرعب في تلك الليلة لا يوصَف، كاد قلبه فعليًا أن يتوقفَ عن النبض، لكن الرعب الأكبر هو الذي يعيش فيه مِن يومها، ينتظر عقابًا مماثلًا لجُرمٍ لم يعرفه بَعْد، يا ليته أخبرَه بماذا يقصد، لماذا تركه في هذا العذاب المقيم؟، والأذهى عندما رآه مرةً أخرى بعدَ دخوله للمستشفى مباشرةً، يجلس على كرسي قديم في زاوية الغرفة، خُيِّل إليه في تلك الليلة أنّه يبتسم، ابتسامة لم ينسها صفوان أبدًا من ذلك اليوم، كان عقله يعمل ليلَ نهار كماكينة الطحين التي لا تتوقف، يحاول أن يسترجع شريطَ حياته وكلّ ما فعله، ويمكن أن يعاقب عليه بهذه الطريقة، كانت حياته بغيضةً مليئة بالأذى الذي زرعه في كلّ مكان بقلمه، كان سلاحًا فتاكًا

لم يعهده أهل الريف في ذلك الزمن، كثيرًا ما مكّن به الناس من رقابٍ بعضهم، كم تسبّب هذا القلم في قلب الباطل إلى حقٍّ وإعطاء المال لمن لا يستحق، المهم أن يدفعَ الثمن، كانت جرائمه لا تحصى، لكنْ هناك جريمة واحدة منسيّة تمامًا عن ذهنه لكثرة ما مرّ به، ورقة صغيرة كتبها في جلسة خمرٍ فبدّلت حياة اثنين من البشر إلى الأبد، ورقة صغيرة هدمتْ شيئًا راسخًا، كتب فيها اسمًا واحدًا، ترى أيّ تلك الجرائم كان يُعاقَب عليها؟ نفضَ رأسه في تلك اللحظة سريعًا ممنّيًا نفسه بسرعة بعودة الممرض حتى ينقذ عقله من كثرةِ التفكير، إلا إنه فوجئ ببابِ الغرفة يفتح في هدوءٍ بطءٍ مُصدِرًا صريرًا مريبًا دون أن يدخل منه أحد، انتظر لحظاتٍ علّه يرى وجهَ الممرض، لكنه لم يرَ له أثرًا، إلا إنه فوجئ بدخانٍ أسودَ يتسلّل من تحت الباب ومن الفتحة البسيطة التي فُتِحَتْ. كان الدخانُ يتسلل في بطء مع صوتٍ يشبه فحيحَ الأفعى، وبدون مقدمات بدأ المصباح الوحيد الذي يضيء الغرفةَ في الارتعاش، وكأن السماء أيضًا أرادت المشاركة في ذلك المشهد، فبرقت فجأة مما جعل صفوان يتجمّد في مكانه، كان ينوي الخروجَ من الغرفة لينادي على الممرض، لكنه لم يستطع تحريك قدميه من مكانِهما، ثمّ بدأ المصباح يرتعش وكأنّ هناك مَن يمنعه من الإضاءة، وعلى ضوء المصباح المتقطع رأى صفوان شخصًا يجلس على الكرسي المجاور له، وخلفَه يقف ذلك الكيانُ الهائل، تمامًا كما رآه في القطار طويلًا بوجه الأسود الذي لم يرَ مثله قط، وبعينيه المتّقدتين كجمرتين من نار، كان يقف وسطَ دخان يحيط به هو

ومرافقه الذي يجلس متأملًا نظراتِ الرعب على وجه صفوان في جمود، وذلك الكيان ينظر إلى صفوان نظرةً غاضبة مما جعل الأخير يشهق شهقاتٍ مُتتابعة، كالذي يلتقط أنفاسَه الأخيرة، لكن ما جعله يتسمّر في مكانه أكثر هو ذلك الجالس أمامه والذي كشفَ لثامه الذي يغطي به وجهَه، ومن خلفه ظهر ذلك الوجهُ الغريب بارز العظام، بلحيته الشّعثاء الطويلة التي لم تُحلق منذ زمنٍ، وشعره الطويل كأنه خرجَ من كهف مكثَ فيه مئات من السنين، والسواد الذي يحيط بعينيه مما جعلَه أشبه بالموتى، ووجْه أشبه بالتمثال، وعينان عميقتان كالبئر، لم يكن يشبه أيّ إنسان عرفه صفوان من قبل لكن نطقَ أخيرًا قائلًا له:

ألا تعرفني يا صفوان؟

لم ينبث صفوان بحرف واحدٍ، كان يريد أن يصرخ، لكنّ شيئًا قويًا أخرسَه ومنع صوته من الخروج، قبل أن يكمل الجالسُ على الكرسي قائلًا:

أنا سلام.

تجمّدت نظرات صفوان تمامًا كأنه ضرب بمطرقةٍ كبيرة على رأسه، كأنه فارقَ الحياة، قبل أن يبتسم له سلام قائلًا:

ما لكَ تُحدق فيّ هكذا كأنك ترى عفريتًا؟ قبل أن يردفَ في سخريةٍ: سامحني فقد نسيت أنّك ترى بالفعل، دعني أعرّفك به، (أشيَل بن مُزخَم)؛ الذي اكتفى فقط بقطع يدِك في القطار، ونحن هنا لنُتمّ حسابًا قديمًا بيننا.

ثمّ أشار سلام إلى أشيَل، فحرّك يده، فكأنه حرر صوتَ صفوان، فشهق الأخير شهقةً كأنه خرج من تحت الماء لتوّه قبلَ أن يصرخ في فزعٍ: أي حسابٍ تقصد يا شيخ سلام؟ أنا لم أفعل شيئًا.

ابتسمَ له سلام في سخرية قائلًا: الآن أصبحت الشيخ سلام؟ هل تعلم أني خرجتُ من قبري للتّو قبل أن آتيك إلى هنا؟ هل تعلمُ ماذا يمكن للموتى أن يفعلوا بك، هل تظنُّ أني سوف أقتلك الآن؟، أنت واهمٌ.. سوف أجعلك تتمني الموتَ كلّ ثانية تمرُّ بك. قال صفوان بصوت أقربَ للبكاء متوسلًا: سامحني يا شيخ سلام، إنه حمدان الأبيض هو مَن أراد التخلصَ منك ليتزوّج زينب. ظهر الغضبُ على وجه سلام فقامَ من مكانه واندفع نحوه ممسكًا بيده المقطوعة بأنامل من حديد، جعلتْ صفوان يصرخ في فزعٍ قبل تتفجّر الدماء من يده مرة أخرى، فتغرق يد سلام الذي نظر له نظرةً مُرعبة وهو يقول: إياك أن تنطقَ باسمها يا ابنَ الكلاب، سوف تتمنى الموتَ كحمدان تمامًا، هذا الوحش الذي يقف خلفي هو مَن اقتلع قلبه، ولو كنتُ موجودًا لأكلت هذا القلبَ بأسناني، ومثّلتُ بجثته حتى لا يبقى منها شيئًا تأكله الكلاب. كان عقلُ سلام كأنما رُبِط بخيط واحدٍ مع عقل أشيَل، فما إن غضبَ سلام واعتصر يد صفوان في يده، حتى وجدَ صفوان نفسه يرتفعُ في الهواء مِن على سريره، وشعر بكلّابات من حديد تقبض على رقبته وأطرافه الأربعة تشدُّه وتكاد تمزّقه، فاختنق صراخه وجاهدَ لالتقاط أنفاسه بشهقاتٍ يائسة

متتالية دون جدوى، كانت روحه بالفعل تفارقه ببطءٍ، فازرقَّ وجهه وهو يحارب لأخُذ أنفاسه، وقد تشنَّجت يداه ورجلاه في الهواء كأنما ربطت بحبال قوية، وعندما أصبحَ بينه وبينَ الموت شعرة واحدة، هوى جسدُه فجأة على سريره وقد عاد الهواء يتدفق لرئتيه في اللحظة الأخيرة قبلَ أن يفارق الحياة، فشهقَ شهقة عالية، وسعل بقوةٍ فسال لعابه من فمه فاختلط بدموعه وبالدماء التي تتفجّر من يده المقطوعة، وبدأتِ الرؤيا تعود لعينيه شيئًا فشيئًا، وما إن انكشفتِ التفاصيل أمامه في الحجرة حتى وجدَها خالية، ولم يجد أثرًا لسلام ولا لرفيقه الغاضب، ثم وجد البابَ يُفتح ثانية في بطء والممرض يدخل عليه قائلًا: هل تأخّرت عليك يا صفوان؟، أخذَ صفوان يصرخ من الفزع صرخاتٍ متواصلة قائلًا: السماح يا شيخ سلام.. السماح.. السماح.

رنّت صرخاته المرعبةُ في الرواق الطويل فتجمّع الممرضون يحاولون مساعدة زميلهم في إعطائه الحقنة، وبعد محاولات مُضنية تمكنوا من السيطرةِ على المريض الهائج الذي يولولُ ويبكي، وهو ينظر إلى الكرسي الخالي في رعبٍ، قبل أن ينتشرَ تأثيرُ المهدئ القوي في جسده، فهدأتْ أنفاسه شيئًا فشيئًا وهو يتمتم قائلًا:

السماح .. يا شيخ .. سلام.

***

في اليوم التالي، رنَّ جرس الهاتف في مكتب محمد

الأسيوطي الذي كان عاكر المزاج بشكل لا يُصدّق منذ زيارته للمحمودية في اليوم السابق، رفع سماعة الهاتف فجاءه صوتٌ من الطرف الآخر يخبره بوصول رجلٍ لمستشفى البندر مصابًا بطلق ناري، سأله الأسيوطي في تلقائية: هل هو من (المحمودية)؟

أجابَه المتحدث: لا، مِن البندر جنابك. أغلق الهاتفَ وهو ينفث النفس الأخير في سيجارته ويلقيها على الأرض في ضجرٍ ويدوسها بقدمه، كأنما اشتاقت نفسه للتّحقيق في قضية عادية مِن فعل البشر، مهما بلغت صعوبتها لا تستعصي عليه، فانطلقَ على الفور بداخله شيءٌ من الارتياح. بعد وقتٍ قليل وصل بقواته إلى مستشفى البندر، كان مدخل المستشفى مليئًا بدماءٍ مُتساقطة من الرجل المصاب بطلقٍ ناري على ما يبدو، تخطّى الأسيوطي الدماء في بطءٍ وقابلَ في طريقه أحدَ الممرّضين فسأله: أين الرجلُ المصاب بالطلق الناري؟. أشار الممرضُ إلى غرفة في آخر الرواق تكثر الدماءُ على بابها، اقتربَ الأسيوطي منها في خطوات بطيئة فلمح الطبيب يضمد جرح المصاب، لكنه فوجئ بصراخٍ يأتي من إحدى الحجرات المجاورة، ومجموعة من الممرّضين يحيطون بمريضٍ مقطوع اليد، يحملونه إلى عربة تنتظره خارجَ المستشفى، كان صراخُ المريض يملأ المستشفى مما جعل الجميعَ يلتفتون ناحية الصوت، لكن ما جذب انتباهَ الأسيوطي هو الكلمات التي كان المريض يكررها ويهذي بها:

السماح يا شيخ سلام.. السماح يا شيخ سلام.

ظلّ يرددها حتى بدأ صوته ينخفض مع خروجه من المستشفى، ووضعِهِ في السيارة مكبّلًا بالقميص الأبيض الذي يخصّص للمجانين، وانطلقث به السيارة على الفور مبتعدةً حتى اختفى صوت صريخه. سأل الأسيوطي أحد الممرضين: مَن هذا المريض؟ أجابه: هذا صفوان العرضحالجي الذي جاءَ للمستشفى مقطوع اليد منذ أشهر، يقولون إنّه أصيبَ بالجنون، ولم يعد يتوقفُ عن الصراخ، فنقلوه لمستشفى العباسية في القاهرة.

أجابَه الأسيوطي عاقدًا حاجبيه: صفوان الذي أصيب في القطار بالقرب من (المحمودية)؟!، هزّ الممرض رأسه بالإيجاب وانصرفَ ليكمل عمله، تاركًا محمد الأسيوطي يعيد ترتيبَ الكلمات التي كان المريض يرددها مرة أخرى فقد كان فيها اسمٌ لم يسمعه منذُ فترة، صاحبه قد ماتَ على حسب المعلومات التي وصلته، هذا الاسم هو سلام.

***

صفوان

قبلَ تلك الوقائع بعامين.. أنشأ الإنجليز كامبًا كبيرًا في البندر خلفَ المحكمة الابتدائية، كان صفوان كل صباح يراقب الجنودَ الإنجليز الذين يتجوّلون في محيط المنطقة، كان يريد الاستفادة من وجودهم بأي شكل من الأشكال، ولم يمضِ غيرُ أسبوع واحد، حتى كان قد عقدَ صداقة مع أحد الجنود الإنجليز يدعى (فرانك)، قام صفوان بإهدائه

قطعة من الحشيش كنوعٍ من جزّ الرِّجل، فأعجبَ فرانك بهذه الهدية التي يصعب العثورُ عليها في مكان جديد، ثم أراد صفوان أن يوسّع تعامله مع الكامب كله بمعاونةِ صديقه فرانك، فطلب منه أن يعرضَ قطعة الحشيش سرًّا على بقية زملائه في الكامب، وكانتِ النتيجة سريعة، فعقد صفوان معه صفقةً سرية، يورِدُ صفوان له قطع الحشيش ويقوم فرانك بإدخالها للكامب ويقبض الثمن، نظيرَ أن يعطيه صفوان نسبةً بعد دفع الثمن للتاجر، ثم توسّع الأمرُ حتى صار صفوان يورد الكثيرَ من الأغراض للكامب بجانب عمله في المحكمة الابتدائية، ثم جاءته الفرصةُ الذهبية عندما سرق أحد اللصوص المنحوسين جنديًا إنجليزيًا كان يمشي في السوق وأخذَ سلاحه، وانقلبتِ الدنيا رأسًا على عقب وفتش الإنجليز كل شبرٍ في المركز ليعثروا على اللصّ والسلاح المسروق، لكنّه اختفى وكأن الأرضَ قد ابتلعته، وكما يقولون إن أهل مكة أدرى بشعابها، فبحُكم عمله في المحكمة وعلاقاته بالكثير من أصحاب السوابق، كان صفوان يجلس كلّ ليلة للسهر في إحدى الغُرَز، وبعد أنْ أعمى دخان الجوزة والحشيش أعينَ الجميع وازرق المكان بالدخان المعتق، سمع أحدهم يحكي لصاحبه عن (حسانين) الذي هجّ بسبب بحثِ الإنجليز عنه بعد سرقته السلاح الأميري لعسكري إنجليزي، ويختبئ في غشّةٍ وسطَ الأراضي خارجَ حدود المركز، في اليوم التالي فتّش الإنجليز كلّ شبر في تلك المنطقة المذكورة بعد أن أبلغَهم صفوان بالمعلومة، وتم القبضُ على حسانين وحُكم عليه بالإعدام، تلك المعلومة أعطت مكسبًا كبيرًا لصفوان

لدى الميجور (جورج آرثر) قائدِ الكامب، أو مستر جورج كما كان صفوان يناديه، وبعد هذه الواقعة سُمح لصفوان بدخول المعسكر بنفسه مُحمّلًا بكل الأغراض التي يحتاجها الجنودُ بصفة رسمية باعتباره المورِدَ الرسمي للكامب، ملابس وسجائر وحشيش إن لزمَ الأمر، تغيرت الأمورُ تمامًا مع صفوان، وجرتِ الأموال في يديه بسبب الكامب وجنوده.

كان (كامب الغربية الكبير) مكانًا حصينًا أشبهَ بدولة داخل البندر، الدخول إليه أمرٌ بعيد المنال، حتى على رجال البوليس المصري، بفضل هذه الاستحكاماتِ الكبيرة كان في أمانٍ من أيّ هجمات من أي مخربين، وكان هذا الاستقرارُ بفضل بعض المخلصين للتاج البريطاني الذين كانوا يخافون على مصالح بريطانيا أكثر من الملك إدوارد السابع نفسه (ملكيّين أكثر من الملك نفسه) كما يقول المثل المصري، أمثالُ صفوان العرضحالجي الذي كان يقدم كل يوم أوراقَ اعتماده خلالَ عامين كاملين كأحدِ المخلصين لبريطانيا العظمى، حتى وقعت حادثة كبرى هزّت الكامب كله، وهي عمليةُ سرقة مخزنِ السلاح الكبير، انقلبتِ الدنيا رأسًا على عقب، إنه شرف بريطانيا، كيف يجرؤ أحد المخربين على أنْ يطأ أرضًا ملكًا للتاج البريطاني، تمامًا كما كانت كلُّ المستعمرة المصرية، انتشر الجنودُ الإنجليز وعناصر المخابرات البريطانية وقوةٌ من المركز ينبشون الأرضَ بحثًا عن السلاح المسروق، لكن كلُّ جهودهم ذهبت سُدى، وتكهرب الجوُّ وَفُتّشت كلُّ الأراضي الزراعية المحيطة بالبندر كله. كان مستر جورج هذه المرّة

في وضع لا يُحسد عليه، فالفاعل لا بدّ أن يقدّم للمحاكمة، والسلاحُ المفقود لا بدّ أن يرجع، وهذا ما فشلَ فيه، مما يهدد مستقبلَه العسكري كله، لكن النّجدة قد جاءته عندما طلبَ صفوان مقابلته لأمرٍ عاجل، وبعدما سمحَ له بالمقابلة، دخل عليه صفوان متهللَ الأسارير، فوجدَ مستر جورج جالسًا على كرسيّه وقد ملأ دخانُ السجائر الكثيف الغرفةَ من كثرة عدد السجائر التي دخّنها، ورافقَ صفوان جنديّان يحملان السلاحَ أثناء دخوله للمكتب، كان الجوُّ متوترًا ولا يحتمل كثرة الحديث، لذا دخلَ صفوان في صلب الحديث مباشرة قائلًا:

أنا عرفت من سرق السلاح من الكامب يا خواجة.

انتفضَ مستر جورج كالذي لدغَه عقرب وهبّ واقفًا، وكأنّ صفوان قد فكّ حبلَ الفضيحة من حول رقبته، فقال له على الفور في عربيّته الركيكة: مَن هو ذلك اللص؟. أجابَه صفوان وقد أحسّ أنه نال مراده، حيث لم يتوقع ردّ فعل الخواجة السريع، فازدادتِ ابتسامته اتساعًا وهو يقول: اسمُه سلام عبد الله أبو حسين، من (المحمودية)، ولو كنت تريد التأكدَ ستجده دفنَ السلاحَ تحت شباك بيته في (المحمودية).

انقلبتِ الدنيا في الكامب تمامًا، واقترح ضابطُ المخابرات عدمَ إبلاغ المركز ولا عمدة (المحمودية) خشية أن يتسرب الخبرُ ويتمكن المجرمُ من الفرار، وفي الليل وصلتِ القوة العسكرية إلى (المحمودية) يرافقهم صفوان ملثّمًا؛ ليدلّهم على منزل سلام. في تلك الليلة التي قبضوا فيها على سلام، فتش الجنودُ تحت نافذة منزله فوجدوا قطعةً واحدة من

السلاح المفقود، وعدده خمس بنادق، لكنها كانت كافيةً للتأكد من هويّة المجرم، وأُخِذَ سلام سرًا إلى الكامب، وبدأت رحلة معاناته الطويلة تحتَ التعذيبِ للاعتراف على بقية أفراد المجموعة، لكنّ الغريب أنه أنكر تمامًا معرفته بأي شيء. أمّا صفوان فقد تأكد من نجاح خطته، وأنه ضربَ كلّ العصافير بحجرٍ واحد، فانتشى تمامًا وكان هذا وقت الاحتفال، فأعطى صديقَه فرانك قطعةً من الحشيش مجانًا لنجاح مخططهما.

فقبلَ تلك الواقعة بأيامٍ كانَ صفوان يجلس في غرزة (شربات) كعادته، كانت شربات راقصةً تائبة قد ابتلتها الأيامُ بفيضٍ من الدهون في كلّ أنحاء جسدها فقرّرت التوبة عنِ الرقص في الموالد حفاظًا على ماء وجهها، وقررت فتحَ الغُرزَة كمصدرٍ رزق لها، وعندما وجدت أنّ الشاي والقهوة والمعسل وحدَهم لا يعوضون دخلها من الرقص، فقد استحنث من توبتها من الرّقص بيعَ الحشيش سرًا، ومعَ الأيام أصبحت مقصدًا للحشاشين في البندر، سواءً للشرب أو للشراء، وتغير اسمُها من شربات إلى المعلّمة شربات، في تلك الليلة كان صفوان قد وصل كعادته للغرزة أو القهوة كما كانتْ شربات الغازية تسمّيها، فالمبدأ مهمٌ جدًا عندها دائمًا في تلك النقطة، استقبلته كعادتها قائلة للفتى القهوجي:

شاي سي صفوان يا ولا.

كان صفوان ينتشي كثيرًا وتنفرجُ أساريره عندما يسمعها تقول عليه (سي صفوان)، وكأنها منحته لقب البكوية، عندما جلسَ في جلسة الدخان الأزرق كعادته، وبعد أن صارتِ

السحب تملأ العشة، وتوشك أن تمطرَ عليهم، سمع صفوان حديثًا جانبيًا لم يتبين أصحابَه جيدًا من كثافة دخان الجوزة وشعالهم، وكان لدى صفوان عادة جهنمية، يعلم جيدًا أن للحشيش سحرًا يجعل الكلّ يفضي بما في جعبته؛ لذا تعوّد أن يلتقط دائما الأحاديثَ من هنا وهناك، فالمعلومة التي لا تنفع اليومَ قد تصبح كنزًا في الغد، الأمرُ جاء له مصادفةً في البداية، عند هجوم ذلك المجرم المنحوس على الجندي الإنجليزي في السوق منذُ فترةٍ طويلة وسرقة سلاحه، وعرفَ صفوان يومها كيف يستغلُّ تلك المعلومة، فكانت هي البابَ السحري الذي دخلَ منه إلى الكامب الإنجليزي الكبير، والذي كان بمثابة كنز فُتِحَ له، من يومها أصبح صفوان يترك جزءًا من عقله يقظًا، يجمع به المعلومات ويسوقها لمستر جورج قائدِ الكامب، أمّا في تلك الليلة فالمعلومة بعيدة بعضَ الشيء عن الكامب وثروته التي لا تنتهي، سمع صفوان أحدهم يتحدث مع رفيقه قائلًا:

المشكلة كلُّها في البلوة اللي اسمه محمد الأسيوطي.. جمع السلاح من كل مكان، حتى مش عارفين نشتري حتة سلاح واحدة.

أجابَه الآخر: عيلة السبع مش هتجيبها البر، لو مصحناش ليهم هيكلونا.

ثمّ أردف بعد أن توقف دخانُ الجوزة في حلقه فسعل سعالًا عاليًا:

عاوزين على الأقلّ تلت أربع رجالة منّنا يكون معاهم سلاح.

ردّ عليه صاحبه في قلقٍ: طب والفلوس؟

قال له: الفلوس موجودة، المهمّ نلاقي السلاح.

كانًا يتبادلان أطرافَ الحديث وقد حجبَ الدخان المنتشرُ صفوان الذي كان يجلس في ركن العشة، ساقت له الأقدار لقمةً سائغة فلم يضِعِ الفرصة، وقامَ على الفور مقتربًا منهما وفي يدِه جوزته المخصوصة، فقرب غابة الجوزة منهما مبتسمًا:

مساء الفل ع المعلمين.

تبادلَ الرجلان النظراتِ القلقة لولا أنْ بادرهما صفوان قائلًا:

متخفوش أنا مش مُخبر والله، محسوبكم بس عايز يخدم.

ثمّ أكمل: أنتوا يلزمكم كام حتة؟

بدأ الرجلان يستفيقانِ من تأثير الحشيش، ونظرًا في صمتٍ إلى صفوان، ثم قال كبيرهم في برود:

على الأقل أربع حتت.

هكذا دبّر صفوان حيلته، وفي اليوم التالي التقى بفرانك في الكامب وهو يوصل بعضَ الأغراض للجنود، وعرض عليه خطتَه وأغراه حتى سقطَ الإنجليزي كالغرّ الساذج، ونفّذ الخطة التي وضعها صفوان بالحرف الواحد، وبعد يومين ضربَ البروجي في كلّ أنحاء الكامب، معلنًا حالةَ

الطوارئ بعد اكتشاف سرقة خمس بنادق، أخرجها فرانك من السلاحليك بعد أن وضع منوّمًا قويًا للحرس في الطعام، ثمّ أخرجها في عربة صفوان الخشبية التي كان يجمع عليها الأغراض التي يوصلها للجنود، كان محلّ ثقة الحراس بأوامرَ من مستر جورج شخصيًا، فنادرًا ما يتم تفتيشه وهو خارج، تمتْ عملية البيع سريعًا وقبض ثمنًا خياليًا لم يكن ليحلم به، واقتسم المالَ بالنصف بينه وبين فرانك، كان يعلم أن الإنجليز سيشكّون فيه بحكم أنه المصريّ الوحيد الذي يدخل الكامب؛ لذا فقد قررَ أن يضرب عصفورين بحجر واحد، وأبقى قطعةَ سلاح واحدة للتخلُّص من سلام خدمةً لصديقه حمدان الأبيض، وأيضًا ليشغل الإنجليز بالبحث في طريق بعيدٍ عنه، وعندما عادَ صفوان للمحمودية في زيارة عاجلة، التقى بحمدان الأبيض وإسماعيل في خمارة خريستو، فاتّفقوا على أن يقوم إسماعيل بدفن قطعةِ السلاح تحتَ نافذة سلام ليلًا، قبل إخبار مستر جورج بالفاعل، كان لا بدّ من شغل الإنجليز بأيةِ ضحية قبلَ بيع السلاح لأنهم لن يهدؤوا قبلَ الوصول للفاعل، لذا كان سلام الضحية المناسبة لتنفيذ كلّ المخططات، وكانت معلومة صفوان لمستر جورج هي طوق النجاة.

بعدَ القبض على سلام تنفّس مستر جورج الصعداء، بعد أن أسلمَ الفاعل لضابط المخابرات البريطانية ومَن معه من رجاله المختصّين بنزع المعلومات، (باتريك لوين) ضابط المخابرات المجنون، الذي خرج من بريطانيا بفضيحةٍ بعد

أنِ اتُّهم بقتل أحدِ الجواسيس الفرنسيين أثناءَ استجوابه مما جعله يخسرُ المعلومات التي بحوزته، فخُيِّر وقتها ما بين أن يقدّم للمُحاكمة العسكرية، أو أن يخرج للعمل في إحدى المستعمرات البريطانية بعيدًا عن بريطانيا حتى يهدأ الجو، كانتِ المستعمرةُ المصرية هي المكانَ الذي استقرّ فيه، وعلى عكس مشاكله في بريطانيا، فقد كان الحظُّ حليفه في مصر، وكان كلُّ شيء ممهّدًا له تمامًا، الجميع تحتَ إمرة التاج البريطاني بلا حسابٍ أور رقيب؛ فرؤوس المصريين رخيصة ليست كالرؤوس في بريطانيا، ثم اختير مؤخرًا للتحقيق في قضية سرقة السلاح من الكامب، كانت مهمته محددة، لا بدّ من وجود مجموعة منظمةٍ من المخرّبين خلف تلك السرقة، فردٌ واحد لا يستطيع القيام بها منفردًا، مهمته هي معرفة كلِّ عناصر مجموعة المخرّبين الذين خطّطوا لدخول الكامب للقيام بالجريمة ومعرفة كيف تمكنوا من التنفيذ، لكن الفاعل كان واحدًا على حسبِ ما أخبره مستر جورج، لم يقتنع باتريك أبدًا بذلك؛ لذا فعندما دخل على سلام في سجنه للمرّة الأولى، استفزّته أجوبته البلهاءُ الساذجة، كأنه حقًّا لا يعرف لماذا قبض عليه وقد وجدوا معه دليل إدانته مدفونًا أمام بيته، فلم يتورّع (باتريك لوين) من استخدام كلِّ خبرته معه لاستخراج المعلومة الأهم منه؛(من هم معاونوه؟)، فمِن المستحيل أن يقوم سلام بسرقةِ السلاح من داخل الكامب وحدَه، أطلق باتريك رجاله على سلام، ففتكوا به وكادوا يوصلونه لحافّة الجنون، لكن الغريب أنه برغم مُعاناته اللانهائية رفض الاعتراف بما يسألونه عنه، كان باتريك يأكل

نفسَه من الغيظ، فمِن أين يأتي ذلك المصري الحشرةُ بكلِّ هذا الجَلَد؟ وبعدَ فترة طويلة أخبره أحد معاونيه بوفاة سلام، وبعدَ وصول الطبيب فحصَ سلام سريعًا فلم يشعر بنبضٍ واضح، فأخبر (باتريك) بالخبر، فأمر جنوده في لامبالاة بإلقاء جثتِه في أيِّ حفرةٍ في الأرض الواسعة خلف الكامب، وفي تلك الليلة لم يجرؤ الحارسان على إخباره باختفاء الجثة بعدَ حفرهما للحفرة، وأغلقتِ القضيةُ بعدها.

***

بعدَما أتم صفوان مخططَه وباع السلاح، اختفى فجأةً من أمام المحكمة ولم يظهز في الكامب ثانيةً ولا في غرزة شربات كعادتِه اليومية، لا يعلم أحدٌ أين اختفى وكأنّ الأرض انشقّت وابتلعته، كانث عادته الأسبوعية هي الذهاب للبلد يوم الخميس ويعود في صباحِ السبت مبكرًا لانتظار زبائنه أمام المحكمة، كانت إجازته القصيرةُ للمحمودية تنقضي كالعادة مع صديقيه إسماعيل وحمدان الأبيض، لكنها هذه المرّة كانت تحمل نكهةَ الرعب عندما فوجئ بشيطان جسور غاضب، يحطّم سقف عربة قطار الدلتا بضربة واحدة كأنه قطعة خبز جافة، ليقف أمامه مباشرة وكأنه كان في انتظاره، يمحو الراحةَ من عقله إلى أبدِ الدهر بنظرته النارية ووجهِه المرعب، يقتلع من عقله فكرةَ النوم دون أن يزوره في أحلامه ليحطّمه تحطيمًا، الغريب أنه لم يقتله وتركَه للأسف حيًا ليتفنّن في مطاردته حتى بعدَ أن نزع كفه الأيمن، كأنه عود من القشّ، لكن العذاب الفعلي لم يكن قد بدأ بعد، فقد كان

ذلك الشيطانُ يظهر له فجأة في مستشفى البندر، يقف ساكنًا بطوله الفارع وكتفيه العريضين، يقف فقط ينظرُ إليه ساخرًا يشير له بالصمت، فكانت عينا صفوان تكاد أن تخرجا من مكانهما وهو يهزُّ رأسَه في فزعٍ، لا يقوَى حتى على الصراخ وقد تشنّج جسده وتجمّدت أطرافه وهو ينظر إلى ذلك المارِدِ الجبار في ركن الحجرة، ثمّ ينهار جسده دفعةً واحدة فتصيبه حالةٌ من التشنجات المستمرة، فلا تنقذه سوى حقنة قوية من المخدّر تُلقيه في بئر عميقة، ثم يستيقظُ لينتظر تلك اللعنة التي تطارده لتتجدد معاناته مرةً أخرى، حتى كان ذلك اليوم المشئوم الذي ظهرَ فيه ذلك المارِدُ الرهيب لكنه هذه المرة كان بصحبة آخر شخص قد يخطرُ على باله.. سلام. الرعبُ الذي شعر به في تلك الليلة كان أكبرَ مما شعر به في القطار، رؤيته لسلام وخلفه أشيَل الرهيب يأتمر بأمره جعل عقله يضطرب، فما كانَ من إدارة المستشفى إلا أنْ طلبت إيداعه السرايا الصفراء في منطقة العباسية التي كانت تخصّص لفاقدي قواهم العقلية.

***

## (إسماعيل)

في خطواتٍ بطيئة مجهدة تحرّك إسماعيل السباعي خارج بيته بعد أن خرج من المستشفى، كانت إصابته مريعةً احتارَ فيها الأطباء، اليد التي انتزعت لسانه لا بدّ أنْ تكون خارقة، فاللسان انْتُزِعَ من أقصى الحلق في عنف غريب كادَ أن يأخذ روحه نفسها، وبعدَ شهرين من المعاناة خرج إسماعيل من

المستشفى، محطمًا مذبوح الروح، لا يسكن في نفسه إلا الخوفُ مما جرى له في تلك الليلة التعيسة، مازال يتذكر كلماتِ ذلك الشيطان الذي فتك به في عنفٍ غريبٍ كأنه كانَ في انتظاره هو بالتحديد، مازال صدى صوته الرهيب يتردد في أذنيه:

هذا جزاء ما فعلتَ، هذا فقط بداية الحساب.

كان إسماعيل تعيسَ الحظ لأنّ ذلك المارد لم يخبزه ماذا يقصد من كلماته ليريحه من عذابه المستمر، كان يريد أن يتركه هائمًا ينتظر مصيرًا أبشع، ولم يقتله لأنه أرادَ أن يبقيه ليتلذّذ بخصومته التي لا قِبلَ له بها، فإذا كان ما حدث هو بداية الحساب؟ فماذا إذًا عن بقيّته؟، الويلُ لك يا إسماعيل مما سيأتي؟. ظلّ حبيسًا في داره يرفض الخروج خارج عتبتها، لكنْ تحت إلحاحِ من أولاد عمومته، استسلم أخيرًا وخرجَ مع أحدهم، يسنده كشجرة اقتلعتها الريح الغاضبة وبقيت تترنّح وتنتظر الضربةَ الأخيرة، كان صامتًا مشدوهًا تراقبه أنظارُ الناس في أسى وترقب وخوف، كمن أصابته العدوى والناسُ ينفضُّون من حوله، والحكاياتُ كالعادة قد نُسِجَتْ حوله وتداولتها الألسنة في سرعة البرق، الوحيد الذي كان يحمل وِزر القصة كلها ويعرف نهايتَها هو إسماعيل، كانت أنباءُ ما حدث لحمدان الأبيض وصفوان العرضحالجي قد صدمته أكثرَ من رؤية المارد أمامه، عقله الواهنُ فشل في مساعدته لربط الأحداث، لكنه أخيرًا بعد جهد كبير منه، وصلَ للرابط الوحيدِ بين الأحداث الثلاثة، إنها حكاية سلام

وزينب، لكنه فشلَ في تفسير الأمر، آخر ما كان يتذكرُه هو جلسته الأخيرة مع صفوان وحمدان الأبيض في خمارة خريستو، وصفوان يعرض لهم منتصرًا قصةَ السلاح المسروق من الكامب، وأنه يحتاج فقط لدفنه في مكان قريب من دار سلام، تطوع إسماعيل بلا تردد للقيام بهذه المهمّة، كان قصته مع سلام طويلة قديمة، يكرهه كرهًا شديدًا منذ طفولته، كان سلام في طفولته هزيلًا ضعيفًا لا يقوَى على العراك أو الدفاع عن نفسه، فكان إسماعيل يتصيّده بين الحين والآخر في كُتّاب الشيخ أيوب، فيبرحه ضربًا، وسلام يحاول جاهدًا مدافعةَ جسده القوي، فكان انتصاره الوحيد في تلك المعارك هو خربشات بسيطة لا تؤثر في جسد إسماعيل الضخم، ثم أعطتِ الأيام فرصةً لسلام للانتقام منه، عندما رقاه الشيخ أيوب لقوة حفظه وجعلَه يقوم بالتسميع لضعاف الحفظ من تلامذةِ الكتاب، وأُسقِطَ في يد إسماعيل يومها، وهمس له قائلًا: والله لو قلتَ للشيخ عني لسوف أسلخُ جلدك. هزّ سلام رأسه في هدوء وقال له: لا تقلق يا صديقي. عندها دخل الشيخ أيوب بقامتِه الطويلة المهيبة ليقطعَ ذلك الحديث الجانبي، وقال لسلام في حزم وهو يشير على إسماعيل: هل كان هذا الثور حافظًا اليوم؟ أجابه سلام بلا تردد وهو يرمق إسماعيل في برودٍ:

لا يا سيدنا، لم يُسَمِّغ لي إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، وقد هدّدني بسلخ جلدي إذا أخبرتك بالحقيقة.

عندها تضخمَ الشيخ أيوب غضبًا، وقام لإسماعيل فأبرحه

ضربًا وقد أصابه الهياج، وهو يقول له:

بتهدّده يا ابن الكلب لأنه قال الصدق، والله لأربطنّك على الشجرة حتى يأتي أبوك، فيفكك بيده ليربيك أولًا قبل أن تاتي مرّة ثانية للكتّاب. الغريب أنّ سلام قال على الفور للشيخ: أنا مسامحه يا سيدنا. نظر له الشيخ أيوب غاضبًا قائلًا: اخرس وإلّا ربطتك معه، لو كنتَ ضربتَه بالنعل منذ البداية ما تجرّأ عليك. فأطبق سلام فمه ولاذَ بالصمت خوفًا، وبالفعل نفّذ الشيخ أيوب كلامه بالحرف، فربط إسماعيل في الشجرة، ولم يفكه إلا أبوه الذي دخل غاضبًا للشيخ أيوب لما فعل بابنه فقال له الشيخ في عنفٍ:

عندما تربّيه أحضره يحفظ كلام الله. وأغلقَ الباب في وجهه، كان ذلك اليوم محفورًا في عقل إسماعيل ولم تمحه الأيام أبدًا، كان كرهه لسلام يكبر مع الأيام فقد كان من القلائل الذين تعلّموا، بل ودخل مدرسة عليا، والأدهى أنه تزوج مِن زينب.. وما أدراك مَن هي زينب!؛ لذا فقد كانت مهمّة دفن السلاح تحمل شفاءً لغليله من سلام، تسلل سرًا حتى وصلَ بالقرب من بيته، وفي هدوءٍ دفن السلاح تحت النافذة تمامًا دون أن يشعر به أحد، وبعد اختفاء سلام المفاجئ عرف إسماعيل أنّ الخطة قد نجحت، وأنه ذهب ولن يرجع كما أخبرهم صفوان، كانوا يظنون أنهم تخلصوا من عقبةٍ كانت في طريقهم، ولكنْ بعد فترة وقعت له الحادثةُ الشنيعة التي فقد فيها لسانه، كان يعلم يقينًا أن القصة لن تنتهي بما حدث له، فقد كانَ ذلك الشيطان الذي قابله غاضبًا

يعرف جيدًا مَن هو، أتى إليه في تلك الساعة الغابرة ليفتكَ بقلبه وعقله قبلَ جسده، عذابٌ طويل ذاقهُ إسماعيل بعد دخوله للمستشفى، فوجئ بنفسه بعد أن استردّ وعيه ملقًى على سريرٍ، غارقًا في دمائه التي لوّنت كلّ شيءٍ، يحيط به الممرضون وبعض الأطباء، لم تكن معاناته تكمن في الألم الرهيب الذي يشعر به وكأنه اقتلع رأسَه نفسه من جذوره، بل في رؤيته في خضمّ هذا الألم لذلك المارد يقف في ركن الحجرة صامتًا، على وجهه علاماتُ الغضب بزفيره الذي يمتدُّ لمتر أمام وجهه، مع دخان رمادي يحيط به يضفي عليه رعبًا جديدًا، كانت صرخاتُ إسماعيل في ذلك اليوم تزيد من ألمه الجسدي، لكنّ فزعه دفعه للجنون والصراخ المكتوم المستمر لا تنقذه سوى حقنة المخدر القوي التي تسقطه في النوم كالسقوط من فوق قمة جبل عالٍ، كانت إقامته في المستشفى هي العذابَ بعينه، تمنى الموتَ حتى يفلتَ من قبضة ذلك الشيطان المجنون الذي يطارده فقط لينظرَ لمعاناته الطويلة. كانت غرفة إسماعيل في المستشفى هي القبرَ الذي يبيت فيه كل ليلة مع ذلك المارد الرهيب، تركته تلك الليالي مهشّمًا محترقَ الروح كأنها خرجت للتّو من قعر جهنم. أخيرًا تحت وطأة الإلحاح من أهله وهو غائب الإدراك تقريبًا، استسلم وخرجَ للسّير قليلًا وسط الحقول بعد السجن الاختياري الذي فرضه على نفسه، وبعد وقت طويلٍ من السير مُستندًا على يد ابن عمه، استأذنه الأخيرُ في قضاء حاجته سريعًا، فوقف إسماعيل لحظات يتلفت يمينًا وشمالًا كأنّه لم يعد يأمن على نفسه حتى في وضَح النهار، يبحث

عن عدوٍّ يترقَّبه، فوقع بصره على قضبان القطار المتهالكة التي تمتدُّ بمحاذاة (المحمودية) حتى تصل إلى البندر، لا يعلم لماذا اقشعرّ جسدُه بعنفٍ وجفلَ عندما رأى رجلًا يأتي من بعيدٍ يسير على قضبان القطار بعكس اتجاه القطار، لم يميز منه إلا شعره الطويل ولحيته الضخمة، إلا إنّ الشمس التي تظهر خلفَه كانت تخفي ملامحه، كانت خطواته غريبةً ليست كخطوات البشر المهتزة، كأنه لا يعبأ بالقطار الذي يمكن أن يظهر في أيّ وقتٍ، خاصّة مع اقتراب صوته وظهور دخانه من بعيد، ومع اقتراب ذلك الشخص واقتراب القطار الذي ملأ دخانُه الأفق بدأ قلبُ إسماعيل في الخفقان والتوتر، ما كان هذا المشهد يحرك فيه شَعرةً في الماضي، لكن الخوف الذي انتشر في كلِّ ذرة من جسده جعله هشًّا، في آخر لحظة قبل أن يمر القطارُ بذلك الشخص اختفى فجأةً من على القضبان، وكأنه لم يكن، إلا إنّ إسماعيل فوجئ بمن يقول من خلفه بصوت كاد أن يفقدَ عقله عندما سمعه، صوتٌ أشبه بزئير الأسد: هل تبحث عني؟. التفتَ فزعًا، مشدوهًا فاغرَ الفم عندما رآه أمامه، ذلك المارِدُ الجبار بكلِّ تفاصيله المرعبة، شعرُه المنسدل على كتفيه، وقامته الفارعة، لم يتغير شيء غير أنه كان بصحبةِ ذلك الشخص الذي رآه يسير منذُ لحظات على قضبان القطار، تراجع إسماعيل بصوتِه المكتوم يلوِّح بيديه في رعبٍ، يحاول أن يستجديه ليرحمَه من عذابه، لولا أنْ نطق الرجل الذي يرافقه قائلًا:

ألا تعرفني يا إسماعيل؟، ثمّ أردف ساخرًا: أنا عفريت سلام.

كانت نظرات إسماعيل مثبتةً على أشيَل الذي يرمقه بسخطٍ يكاد أن يحرقَه في مكانه، مما جعل إسماعيل يتراجع من مكانه في اللحظة التي مرّ بها القطار مسرعًا فتعثر وسقطَ على القضبان تحتَ عجلات القطار، لكن سلام أشار لأشيَل، والذي تحرك كالبرق والتقطه كالطير الجارح الذي يلتقط فريستَه، وارتفع به إلى السماء واختفى بعد لحظاتٍ قليلة، أما إسماعيل، فقد شعر بنفسه بين ذراعي المارد الذي اقتلع لسانه عود القمح، لم يتخيّل عقله ذلك، فشهقَ وانهار على الفور فاقدًا للوعي، وما إن أفاق من إغماءتِه الإجبارية حتى وجدَ نفسه ملقًى في ساحة السوق بالقرية، وما إن أفاق حتى أخذ يهرول كالمجنون يمينًا وشمالًا، محاولًا توضيحَ ما رآه للناس بصوته المكتوم وهمهماته المذبوحة دون جدوى، يصطدم بالناس العائدين من حقولهم، وجنود الهجّانة يرمقونه في شكٍّ، ظلّ يجري على كل مَن يعرفه، يتشبث بملابسه مشيرًا بيده في اتجاه بيت المداخن، فكانَ الناس يتراجعون ويبتعدونَ عنه في حذرٍ، ثمّ بدأ الناش يهمهمون في صوتٍ سمعه إسماعيل نفسه: يا عيني عليه، بايِنْه اتجنن.

كان إسماعيل يستجديهم أن يسمعوه ويفهموا مقصدَه، لكنه فشل في ذلك فشلًا ذريعًا، تلفّت حوله ينظر للناس في يأسٍ، فلم يجدِ استجابة من أحدٍ، فجرّ قدميه باكيًا هائمًا كمنْ يُساق إلى المشنقة، الآن عاين انتقامًا لم يرَ مثله من قبل، يبدو أنه أخطأ خطأ عمرِه عندما اصطدم بسلام الهشّ الضعيف، الذي كانوا يلقّبونه بالمجذوب، لا يعرف

كيف أصبح بهذا العنفوان والجبروت؟، ومَن هو ذلك المارِد الذي يتبعه ويأتمر بأمره؟ كلُّ هذه الأمواج المتلاطمة كانت تضرب رأسَه، فيصرخ كالمجنون مما جعل الناسَ يتراجعون مبتعدين عنه في خوفٍ من أن يصيبهم جنونه، يتجه لأحدهم فيجذب طرفَ جلبابه منه ويبتعد، انفضّوا مِن حوله كالمجذوب، في النهاية ألقى بنفسه في وسط ساحة السوق يبكي وينوحُ، حتى وصلَ الأمر للعمدة فاتّصل بالمركز وأتت قوة من العساكر ومعهم طبيب المستشفى الذي كان يشرف على علاجه، فأمرهم بإيداعه مستشفى الأمراض العقلية لأنّ المستشفى ليس به طبيبٌ لمثل حالته. أما إسماعيل فاستسلم تمامًا لهم وهُم يقيّدون يديه خلفَ ظهره. بعدَ يومين وصل السرايا الصفراء في العباسية ليجاور صفوان في نفس العنبر، عندما رآه صفوان بالَ على نفسه لأنه استنتج ما حدثَ له، فذلك المارد المجنون الذي يتبع سلام أينما ذهبَ لن يتركهم، لن يمنعه بابٌ أو جدار من الوصول إليهم، رمقه إسماعيل في ذلك اليوم باكيًا، كانت حالته يُرثى لها يرتجفُ ويفزعه أيُّ صوتٍ في العنبر، حتى خفقات أجنحة الحمام المعشّش في النافذة، تنتابه حالات من العويل المستمر، كان صوته يزلزل قلبَ صفوان متخيلًا ما حلّ به، فالتزم سريرَه وضمّ ركبتيه إلى ذقنه في شرودٍ منتظرًا ما ستسفرُ عنه الساعات القادمة، كان عقله يعمل كوابور السكة الحديد، يسأل نفسه سؤالًا واحدًا؟، لماذا تركهم سلام دونَ أن يقتلهم؟ لماذا لم يترك تابعه الجبار يفصل رؤوسهم عنْ أجسادهم كما نزع لسان إسماعيل؟، الإجابة الوحيدة التي

اهتدى إليها عقلُه أنه يحضِّر لهم مصيرًا أشنع، وقد كان حدسُه صحيحًا، فمع دخول الليل وأثناء خلود معظم المرضى للنّوم الإجباري تحت تأثير جرعاتٍ مهدئة وفقَ حالة كل منهم، سمع صفوان صوت اهتزاز عنيف يشبه الزلزال يشقُّ سكونَ الليل، وبدأت كل أسِرّة المرضى تهتز وصوتُها يعلو، ثم بدأت ترتجُّ وبدأ المرضى في الاستيقاظ، الصوت يغلو ويعلو حتى انقلبت بعضُ الأسِرّة بمَن عليها، وبدأ الفزع ينتشر بسرعة في المكان، كأنّ العنبر سوف يُقتلع من جذوره، ثمّ بدأ دخان أسودُ ينتشر شيئًا فشيئًا في المكان، فسادَ الهرجُ والمرج المكان مع استيقاظ الجميع، وفشلهم في فهم ما يحدث، فتملّكهم الخوف، وبدأوا يتجهون ناحية الباب الكبير للعنبر في فزع، خاصةً مع الاهتزاز المستمر الذي ترتفع حدّتُه، وبدأوا على الفور في طرقِ الباب في عنفٍ وهم يصرخون، أما صفوان وإسماعيل فكانا يعلمان جيدًا ما هو آتٍ، وأنّ أي مصيبة تحدث إنما هي تُحضِّرُ خصيصًا لهما، حاولا النهوضَ للّحاق بالمرضى عند الباب، لكنهما فشلا حتى في ترك السرير، وكأنّ هناك قوةً خفية تكبّلهما مكانهما، ومع الصراخ والصوت المفزع للأسِرّة التي بدأت تتطاير في عنفٍ وزجاج النوافذ الذي تكسّر بدون سببٍ واضح. بدأ الممرّضون أخيرًا في الاستجابة، وفتحوا الباب الكبير للعنبر لإنقاذ المرضى خاصّة مع الدخان الكثيف الذي انتشر في العنبر، فظنّوا أنّ حريقًا قد شبّ في المكان، فأخلوه على الفور، لكنهم ما إنِ انتهوا من إخراج جميع المرضى وعدّهم حتى قال أحدهم: هناك اثنان مفقودان. وهَمّ بالدخول للبحث عنهما وسطَ الدخان الكثيف،

فأُغلِقَ البابُ في عنفٍ في وجهه وأسقطه أرضًا، فحاول زملاؤه فتح الباب، وباءت كلُّ محاولاتهم بالفشل وكأنَّ هناك جبلًا يقف خلفَ الباب ليمنعهم من الدخول، فنظر أحدهم من الفتحة الزجاجية للباب فرأى الدخانَ يغرق كلّ شيءٍ في الحجرة ثم هدأ الاهتزاز وساد المكان صمتٌ مميت.

في داخل العنبر، وبعدَ خروج كلِّ المرضى بدأ المشهدُ في التكشير عن أنيابه، بعد أنِ انقشع الدخان عن ركن العنبر كاشفًا عنْ هولٍ جديد، كان سلام جالسًا أمامَهما وخلفه يقف أشيَل صامتًا كعادته كأنهما خرجا من العدم، فتراجع إسماعيل يائسًا وهو يلطم وجهَه لا يدري ماذا يفعل، وكذلك صفوان الذي حاولَ أن يتحدث لكنه فشل في فتح فمه، وكأنَّ هناك مَن اقتلع لسانه مثل إسماعيل، فانفجرث دموعه في فزعٍ واستجداء، أما سلام فقد بدث ملامحه جامدة وهو ينظرُ إليهما نظرةً طويلة صامتة، مما جعل أفئدتهما تهوي لا يدريان ماذا سيفعل بهما، ولم يطلِ انتظارهما فقد بدأ الفحيخ ينتشر في كلِّ مكان، مئاتٌ من الأفاعي ظهرت من العدم وانتشرث متّجهة مباشرة ناحية الركن الذي يقفان فيه، بدأث تقترب منهما في بطءٍ كأنها جاءت خصيصًا لهما، كان ما يحدثُ وما يرياه فوق احتمالهما، فقد بدأ الظلام يغرق المكانَ فجأةً ولم يبقَ إلا صوتُ الفحيح الصادر عن الأفاعي، والتي بدأث تلتصق بأقدامهما وتلتف حلوها صاعدة إلى أعلى، وأخيرًا نطقَ سلام وسط الظلام الدامس قائلًا:

الإنسان لا بدّ أنْ يكفر عن ذنبه يا صفون، الإنسان لا بدّ أن

يدفع ثمنَ ما ارتكبته يداه يا إسماعيل، الرحمة الوحيدة التي كانت تعيش بينكم هي زينب، وقد اختفت تاركة إيايَ من سوء طالعكما، فلاقسمكنّ برأسها أن أجعلكم جميعًا تتمنّون الموتَ في اليوم ألفَ مرة، لم يعجبكم وجهُ سلام المجذوب، إذًا فلتروا جميعًا وجهَ سلام الشيطان. كانت نبرة صوتِه مرعبةً، عذاب جديد يُضاف إلى عذابهما المقيم، ثمّ تلاشى صوت سلام شيئًا فشيئًا ولم يبق سوى صوت الفحيح.

بعدَ تلك الواقعة دخل الحراش والممرضون العنبر مسرعينَ بعد أن تمكنوا أخيرًا من فتح الباب، فوجدوا إسماعيل وصفوان مُلتصقين بالحائط، وهما يصرخانِ ويضربان الهواء في رعبٍ بطريقة غير مفهومة، وصفوان يصرخ كالمجنون: السماح يا شيخ سلام، أبعدِ الأفاعي عني، ووجدوا إسماعيل يزوم باكيًا، وقد التصق بالجدار وصدره يعلو ويهبط في صعوبة، وصوتُ شهقاته يُسمع في كلّ العنبر، كانت حالتهما يُرثى لها حقًّا، مما اضطرّ الممرضون لتقييدهما في غرفة معزولة عن المرضى لشدّة خطورتهما على بقية النزلاء.

***

## (الكامب)

بدأ القلقُ يسود الكامب عندما علمَ فرانك- بالمصادفة- بما حدثَ لصديقه صفوان الذي اختفى فجأةً من أمام مقرّه الدائم أمامَ المحكمة. انتشر الخبرُ بسرعة داخلَ الكامب أنّ صفوان العرضحالجي دفع ببطولة ثمن تعاونه مع الإنجليز،

غضبَ مستر جورج لما أصاب أحدَ أهمّ رجاله في الميدان، واحدًا من أكثر المخلصين الذين تعاونوا مع الإنجليز، ليس كبقيّة المصريين المخرّبين الذين كانوا يعتبرون أنفسَهم أصحابَ حق، وهم لا يعرفون أنهم يكفيهم شرفًا أنْ يكونوا تحت حمايةِ التاج البريطاني، هم للإنجليز كبقيّة المستعمرات التي تنتشر في كلّ مكان، لم يكنْ مستر جورج يفهم ما بالُ هؤلاء الفلاحين الملاعين الذين يفكرون في مُعاداة بريطانيا علانية؛ لذا كان غضبُه عظيمًا لما علم بما حدثَ لرجله المخلص صفوان، فأجرى بعضَ الاتصالات لمتابعة الأمر، وأصدر أمرَه للمأمور بضرورة القبض على الجناة، كان على يقين تامٍّ في داخله أنّ مَن فعل هذا بصفوان هو أيضًا مَن تجرّأ على الدخول للكامب لسرقة السلاحليك، لكن المجرم الوحيد الذي دلّهم صفوان عليه هو سلام، وقد ماتَ ودُفِنَ كما ذكرتِ الأوراق الرسمية، إذًا لا بدّ أنّ هذه مجموعته من المخربين المصريين الملاعين الذين لا بدّ أن ينتهي بهم الحالُ على المشانق ليكونوا عبرةً لغيرهم، وبدوره كشف (باتريك لوين) تحرّياته في كلّ المركز حتى فوجئ محمد الأسيوطي به يتّصل عليه ليطلبَ منه تحريات عن كل أصدقاء سلام في (المحمودية)، المكالمة التي انتهت بعد شدٍّ وجذبٍ أنهاها الأسيوطي بجملةٍ واحدة بعد أنْ أغلق الهاتف غاضبًا: يلعن أبوكم ولاد كلب.

الأسيوطي بعدَها بدقائق جاءه اتصالٌ آخر من المأمور يطلب منه تكثيفَ جهوده للعثور على من هاجم صفوان في

القطار، أخبره أنّ ضابط المخابرات البريطانية قلبَ الدنيا وأرسل برقيةً لرؤسائه يخبرهم بأنّ مديرية الغربية أصبحت بؤرة كبيرةً لما يسمّون أنفسهم بالفدائيّين، وشدّد عليه بأنهم لا يريدون مشاكلَ جديدة، يكفيهم (المحمودية) بما فيها من مصائب.

في اليوم التالي، فوجئ مستر جورج بخطابٍ فوق مكتبه، لا يعلم مِن أين أتى ولا من الذي وضعه!، أمسكه في شكٍّ وفتحَ المظروف الأصفر فوجدَ رسالة كُتبت بخطّ اليد بإنجليزية سليمة، نصُّها الواضح يتوعّد بريطانيا بانتقام لم ترَ مثله لمقتل سلام قائدِ المقاومة في مديرية الغربية، كادَ مستر جورج يفقد وعيَه من هول المفاجأة والصدمة، كيف وصل هذا الخطاب لمكتبه؟ كيف تجاوز الفاعلُ كلّ تلك الاستحكامات العسكرية، يمكنه إذًا أن يصلَ لرأسه مباشرة، تحسس رقبتَه بالفعل عندما جاء هذا الخاطرُ في عقله وصرخَ على الحراس، وبعدَ لحظات ضرب البروجي في كل أنحاء المعسكر، وسادَ الاضطرابُ لوجود دخيلٍ مِن المخربين داخل أسوار الكامب، وبالفعل فتشوا كلّ شبر في المعسكر، لكنهم لم يجدوا أثرًا لمخلوق، وكأنّ الفاعل شبحٌ انشقت الأرض وابتلعته، تمّ إبلاغ القيادة فأرسلت (باتريك لوين) مرة أخرى للتّحقيق في الواقعة، ولوضْع خطةِ حراسة جديدة معَ مستر جورج، وبالفعل بدأ الجوُّ يزداد توترًا في كلّ المركز، وشدّدت الحراسةُ على كلّ مخارج ومداخل المعسكر، كأنّ بريطانيا في حالة حرب جديدة. كان مستر جورج خائفًا على شمعته

التي أصبحت في مهبّ الريح، يكفيه أنّ صفوان أنقذه مرةً من الفضيحة، فسرقة السلاح من معسكره خطأ كبير يمسّ شرفه العسكري، والآن دخول متسلّل لمكتبه ووضع خطاب تهديدٍ عليه هو فضيحة جديدة بكل المقاييس؛ لذا أعطى أوامرَ صارمة بنشر فرقٍ إضافية حول الكامب لتمشيط محيطِه طوال الليل، كان عليهم مسحُ كلّ شبر في الأرض المحيطة بالمعسكر بطريقةٍ دائرية تشبه الطواف، في حالة استثنائية أرهقتِ الجنود، ومع دخول الليل كان القمرُ في تلك الليلة يبسطُ نفوذه على كلّ بُقعة في السماء فكشفَ عن المنطقة المحيطة بالأسوار، فبات التسللُ إلى داخلها أمرًا مستحيلًا، أمّا في داخل الكامب، فقد كان الوضع لا يقلُّ توترًا عن خارجه، الصمت يطبق على كلّ نقاط الحراسة كأنهم يرهفون السمعَ تحسّبًا لهجوم عدوٍّ ما، وفي سكون الليل شقّ الصمتَ صوت صرخة عالية أفزعتِ الجميع وسمعَها كلُّ مَن في الكامب، لكنّ تلك الصرخة لم تأتِ من الأسوار الخارجية، بل من داخل الكامب، وبالتحديد من داخل مكانِ إقامة باتريك لوين نفسه، فعندما اطمئنّ على مع الميجور جورج على تقوية أضعفِ النقاط في أسوار الكامب، ونشر فرقٍ إضافية خارج المعسكر لتمشيط المنطقة بشكل مُستمر، لجأ أخيرًا إلى غرفته لينعمَ بشيءٍ من الراحة بعدَ اليوم الطويل، إلا إنّه فوجئ بشبحٍ ينتظره داخلَ الغرفة التي أعدّت له للنوم، كان يقف في منتصف الغرفة المظلمة منتصبَ القامة، وما إن دخلَ باتريك للغرفة لم يمهله وانقضّ عليه في قوةٍ، وضربه ضربةً قوية أطاحت به على الأرض ليستفيقَ باتريك

من صدمته وهو ملقًى على الأرض لينظرَ ناحية مهاجمه، ليفاجئ بأنّ الواقف أمامه هو سلام بنفسه، لكنّ هيئته كانت مُختلفة بعض الشيء فقد بدَا قويًا عنيفًا، إلا إنّ الملامح هي نفس ملامح سلام التي حفظَها طيلة فترة التحقيق معه، لم يفهم باتريك لوين كيف أتى سلام بكلّ تلك القوة، فقد قطعَ المسافة التي تفصلهما في لمح البصر، وحمله ليضرب جسدَه بالسقف ثمّ يصطدم بالأرض في عنفٍ من قوة الضربة، نظرَ في دهشة لا تخلو من الخوف لسلام قائلًا له في فزعٍ: كيف عدتَّ من الموت؟

أجابَه سلام في نبرةٍ مُرعبة: مَن قال لك إني عدتُّ من الموت؟ ثمّ صفعه صفعةً ثانية فاصطدم بباب الغرفة كأنه طفلٌ صغير، متألمًا في صوت عالٍ، ثم ركلَه سلام فطارَ وتتدحرج في الهواء ليخترقَ الباب ويرتمي في ساحة الكامب صارخًا قبلَ أن يفقدَ الوعي، وفي سكونِ الليل قبل أن يتبيّن الحراش مصدر الصرخة، كان سلام يحمل باتريك لوين على كتفِه فاقدًا للوعي كدميةٍ صغيرة في قوة غريبة، إلا إنّ الجنودَ بدأوا في التجمع شاهري أسلحتَهم محاولين إطلاق النار على ذلك الدّخيل، لكنهم لم يستطيعوا، فقد فوجئوا ببنادقهم تطيرُ في الهواء وتُرمى بعيدًا خارج أسوار الكامب في مشهدٍ غريب مُفزع، فما كان منهم إلا أن فرّوا من أمام سلام الذي بدا لهم خارقًا، لكنه لم يتجه إلى الباب، بل ألقى جسدَ باتريك على الأرض عندما وصلَ بالقرب من القبو الذي كان الإنجليز يستخدمونه كسجن، وبضربة

واحدة أطاحَ بالباب الفولاذي الضخم، فوجدَ بداخل السجن الرجلين الضخمين اللذين يرافقان باتريك لوين ويعاوناه في الاستجوابات، دخولُه الخارق لم يعطِ لهما فرصةً للتفكير، ففي لمحِ البصر قطع المسافة التي تفصله عنهما قبلَ أن يرفعا السلاحَ في وجهه، وكما فعل بباتريك لوين اصطدمَ بهما في قوة هائلة، فارتطما بالحائط المقابل، والذي تشقق لقوة الضّربة وضخامة أجسامهما، وسقطَا على الأرض كالحجرين بلا حراك، ثم حملَ الجسدين الضخمين في سهولة كأنه يحمل طفلين صغيرين وخرجَ من السجن. كانتِ الساحة قد امتلأت بمجموعات جديدة من الجنود، وأخذ البروجي يضرب ويشقُّ سكونَ الليل والكشافاتُ القوية تركز كلّ أضوائها على ساحة الكامب، ثم تجمد المشهد تمامًا وساد الترقب، كان الجنود يختبئون خلفَ سواترهم الرملية، ومعهم مستر جورج الذي خرج فزِعًا من نومه، وكأنه كان يتوقع ما يحدث بعدَ خطاب التهديد الذي وجدَه على مكتبه، لم يعبأ بهم سلام عندما خرجَ من السجن حاملًا للحارسين في سهولة غريبة، ثمّ انحنى وحمل جسدَ باتريك لوين ووضعَه فوق الجسدين الضخمين على كتفه كأنه لا يحمل شيئًا، لكن مستر جورج أصدرَ أمرًا للجنود بعدم إطلاق النار حتى لا يقتلون باتريك لوين بالخطأ، وفجأة انتشر دخان غريب في كلّ أنحاء الساحة بشكل سريعٍ متزايد. أخفى سلام وغنيمتَه عن العيون، وبعد انقشاع الدخان لم يجدوا له أثرًا ومعه الأسرى الثلاثة، سقطَ مستر جورج على ركبتيه كالحجر من هوْل الصدمة غير مصدّق لما حدث، واضعًا يديه على رأسه في ذهول.

وفي خارج الأسوار انتشرَ الجنود بكلابهم ينبشون الأرضَ بحثًا عن ذلك الدّخيل، الذي اختطف ثلاثة من الإنجليز منهم ضابطٌ في المخابرات البريطانية، على مرأى ومسمع من قائد الكامب وقواته، ولم يتمكنوا حتى من المساس به، لكنْ بعضُ حراس السجن الآخرين استطاعوا تحديدَ هويّته، كانت فضيحة بكلّ المقاييس، كاد القائد يفقد عقله مما حدث خوفًا من أن ينتشر الخبرُ ويصل إلى القيادة، لكنهم في خضمّ ذهولهم لم ينتبهوا إلى الرجل الذي يراقب المشهد من بعيدٍ من فوق إحدى الأشجار المرتفعة البعيدة عن الأسوار، يجلس ساكنًا في ظلام الليل كالنمر، له لحية شعثاء وشعرٌ لم يحلَق منذ شهور، مازالت آثارُ الجراح على جسدِه شاهدة على المعاناة التي عاناه داخل ذلك الكامب، بعد لحظات ظهرَ دخان كثيفٌ أسفل الشجرة التي يختبئ فوقها، وظهرَ بعدها سلام آخر حاملًا ثلاثة أشخاص على كتفه، إلا إنّ هيئته تغيّرت سريعًا ليعود إلى جسده الحقيقي، ويلقى بالأجسام الثلاثة التي بدأت تفيقُ وتتوجّع من ضرباته المهولة، نظرَ إليه سلام من فوق الشجرة قائلًا: أحسنت يا أشيَل.

نظر إليه أشيَل مبتسمًا لأولِ مرّة منذ وطأ عالمَ البشر وهو يقول: لقد كنت قائدًا للجيوش في قبيلتي، لكني لم أرَ مثل خطتِك هذه، لماذا رفضتَ أن أدخل لهم بهيئتي الحقيقة لأثير فزعهم، وطلبتَ منّي أن أتخذ هيئتك وجسدك؟ أجابه سلام وهو ينزل مِن على الشجرة قائلًا: الشيء الوحيد الذي سيفزع الإنجليزَ هو إيهامهم بفكرة الفدائيين، سينتشر الخبرُ في كلّ

مكان، وسيسود الفزعُ أكثر بينهم، أمّا فكرةُ الجن فلن يعلنوا عنها للملأ حتى وإنْ قطعتهم إربًا. ثمّ أردف: في البداية، كانَ الخطابُ الذي وضعتَه أنتَ على مكتب قائد الكامب، والآن بعدَ هذه الواقعة وما بعدها سيطير النوم من عيونهم.

سأله أشيَل: وماذا سنفعل بهؤلاء الكلاب الثلاثة؟ ابتسم سلام لأولِ مرّة منذ عودته للحياة قائلًا في خبثٍ: سأخبرك.

***

معَ نور الفجر كان الهواء شديدًا يضرب وجهَ باتريك لوين، عندما فتح عينه في صعوبة كان يشعر بضغط رهيب في رأسه، وكأنّه غُلّق من قدميه، حاول أن يرفع رأسَه ففشل تمامًا حتى بدأ بصرُه ينقل لعقله صورة لأشجار ومنازل بعيدة لكنْ بشكل معكوس، لينقل له عقله النتيجةَ النهائية للتحليل، إنه بالفعل معلّق من قدميه بالمقلوب، ثم بدأت المعلومةُ التالية تصل إليه من عقلِه البطيء، إنه معلّق على مكان شاهقٍ الارتفاع. ضربه الفزعُ الشديد لما اتضحت له الحقيقة الكاملة، كان معلقًا على طرفِ المدخنة المجاورة لبيت المداخن، مكان لم يصلْ إليه إنسانٌ من قبله، خفق قلبه حتى كادَ يتوقف من الخوف وهو يترنّح والهواءُ الشديد يضربه كأنه ريشةٌ في مهبّ العاصفة، استجمع أنفاسه ليصرخ ولكن مع كلّ انتفاضة من جسده يهيئ إليه أنه يسمع تمزُّق بعض الخصلات من الحبلِ القديم الذي يربط قدميه في طرف المدخنة، كان يرى المحمودية ومنازلها من ذلك الارتفاع الشاهق تبدو كعلبِ السجائر التي تغطيها الشبورة الكثيفة، حاول التقاطَ أنفاسِه

مع حالة الرّهاب التي ضربت أوصالَه فخيّل إليه أنه يعيش أسوأ كوابيسه، ثمّ وصل لسمعه صوتُ أنينٍ يأتي من الجانب الآخر من المذخنة على نفس الارتفاع، ثم بدأ الصوتُ يبكي وينتحب كالأطفال، ليكتشف أنها أصواتُ حرّاسه ومرافقيه وقد غُلّقوا معه في نفس الحبل، ليبدأ الجميعُ في الصراخ طالبين المساعدة، ولكن هيهات، فلا قدمٌ تجرؤ على أن تقتربَ من بيت المداخن بعدما حدث، لا في الليل ولا في النهار، لم تصل صرخاتهم إلا إلى سلام الذي كان يجلس أسفلَ المدخنة ويتكئ بظهره عليها في لامبالاةٍ مُنتظرًا أشيَل حتى يستيقظ من غفوته، بعد لحظات أحسّ باتريك بالحبال تتمزّق، وفوجئ الثلاثةُ بأجسادهم تهوي من أعلى المدخنة في سرعةٍ قبل أن يظهر في الأفق كيانٌ مَهيبٌ يلتقطهم كصغار الطيور، ويلقي بهم أمام أرجل سلام.

لينطقَ بإنجليزية سليمة قائلًا:

هل أتعبكم ارتفاعُ المدخنة، كنتم بحاجةٍ إلى الهواء البارد قبل أن نبدأ.

نظرَ إليه الحارس في رعبٍ وهو يقول لزميله:

إنّها جثة المصري.

أمّا باتريك فقد أخرسه ما يرى تمامًا.

كان ينظر لسلام في رعبٍ ربما لم يذقْ مثله في حياته التي كان فيها دائمًا الآمرَ الناهي، لم يكن يصدق عينيه، فالجالس أمامَهم في هدوءٍ قد ماتَ وذفن، حاول باتريك الوقوفَ لكنه

كان يشعر بأنه ملتصقٌ تمامًا بالأرض، فقال في رعبٍ:

مَن أنت؟

جاءَه الردُّ من خلفه بصوت قويٍّ رهيب يشبه زئير الأسد:

أنا مَن يأخذ أرواحكم.

التفتَ الثلاثة فإذا بهم يروا أشيَل أمامَهم بهيئته وشَعره الطويل وعينيه الغاضبتين، يطفو فوقَ الأرض وخلفه عباءته الدُّخانية السوداء، عجز الثلاثة عنِ النطق قبل أن يحملهم أشيَل ويقذف بهم داخل بيت المداخن،

فقدَ الثلاثة وعيَهم على الفور من اضطدامهم القوي بالحوائط كأنهم دمى صغيرةٌ بين يدي أشيَل، كانت غضبه عظيمًا هذه المرّة، عندما تأكد من أنّ هؤلاء الثلاثة أذاقوا سلام عذابًا فوقَ احتمال البشر، جعلوا منه إنسانًا آخر غير الصديق الذي عرفَه قبل ذلك؛ لذا أقسمَ على أن يجعلهم يحلمون بالموت ليتخلصوا مما سيفعله بهم.

استيقظَ الثلاثة أخيرًا على دلوٍ من الماء البارد الذي يشبه مياهَ القطب الشمالي، ليجدوا أنفسهم مقيّدين من أيديهم في السقف، وسلام يقف أمامهم قائلًا:

بمَن نبدأ؟

نظروا ليدِه فوجدوه يحمل السوطَ الذي كانوا يجلدونه به في الكامب، لم يمهلهم وهوَى عليهم بكل غلٍّ يمزّق جلودهم، وصرخاتُهم تشقُّ الصمت، وباتريك يقول باكيًا:

إنه صفوان جاسوش الميجور جورج.

لم يردّ عليه سلام وهو يبصقُ على الأرض وقد تطايرت دماؤهم على وجهه، قبل أن يقول له:

أنا سأحكم عليكم بقانون بريطانيا العظمى.

قال له أشيَل: هوّن عليك، لو أردتّني أن أقتلع رؤوسهم في لمح البصر لفعلت، ولكني لن أتخطى إرادتك أبدًا.

جحظتْ عيونهم وهُم يرون سلام يُلقي السوطَ من يده وهو ينظر إليهم في اشمئزاز قبل أن يبصق على الأرض ويخرج من بيت المداخن، ليخرج خلفَه أشيَل فيتبادلانِ الحديث لدقائق قبلَ أن يعود إليهم وحده، نظر إليهم نظرة غاضبةً قبل أن يقول لهم: مَن سيكون وليمتي الأولى؟

لتدوّي بعدها صرخاتٌ رهيبة من باتريك لوين ومساعديه.

***

في الصباح التالي، وعندَ دخول القطار لمحطة البندر وسطَ الضباب الصباحي الكثيف، فوجئ العمال برجل مقيدِ بالمقلوب كالذّبيحة في مقدمةِ القطار، فقاموا مُسرعين بالإشارة لسائق القطار، فتوقّف على الفور قبل أن يكتشف ما أذهلَه تمامًا، لا يعلم مِن أين أتي ذلك الرجلُ المقيّد، ولا كيف.. ومتى تم تقييذه بهذه الطريقة؟، وعلي الفور تم إخطارُ ناظر المحطة الذي ترك صينيةَ الإفطار الصباحية، ليهرعَ سريعًا لرؤية تلك البلوة الجديدة، قاموا بفكّ الرجل المقيد سريعًا

فوجدوه يهذي باللغة الإنجليزية، وقد تمزّقت ثيابه وأُدمي جسده من آثارٍ تشبه ضربات السياط، فأُسقط في يد ناظر المحطة، فقد كانتِ المصائب كلُّها في تلك الأيام تأتي ممّن يرطمون بالإنجليزية. شدّ الناظر على الفور إشارة سريعة إلى المركز فأرسلَ قوةً للمعاينة، وبعد أن فتّشوا الرجل للتعرُّف على هويّته وجدوا في جيبه خطابَ تهديد جديد، يخبرهم أنّ هذا الرجل المقيّد كالذبيحة هو (باتريك لوين) ضابطُ المخابرات البريطانية، الذي أسَرتْه المقاومة انتقامًا لمقتل قائدهم سلام، كانت حالته الصحية يرثَى لها، لا يعلم أحدٌ ماذا رأى ليخرفَ ويهذي هكذا بلا توقف؟، توقف قلبُه من شدّة الصراخ والانفعال، ولفظَ أنفاسه الأخيرة قبل أن يصلَ إلى المستشفى، عندما وصل الخبر للميجور جورج لطمَ على وجهه، وتيقّن أنها نهاية مستقبله العسكري، ولن يشفعَ له أحد إلا إذا قدّم لهم الفاعل الذي اقتحم المعسكر على مرأى ومسمع منه، ووضع رأسَه في الوحل عندما اختطف ضابطًا للمخابرات البريطانية واثنين من الحراس دون أن يُصاب بخدشٍ صغير، شنقه بحبلِ الفضيحة قبل أن تشنقَه المحاكم العسكرية البريطانية لتقصيره، وعلى الفور انقلبتِ الدنيا في كلِّ المركز، وانتشر جنودُ الإنجليز في كلِّ مكانٍ كأنهم في حالة حربٍ لا يعلم الناس عما يبحثون، ولماذا أصيبوا بهذه الحالةِ من الهياج؟ حرص الإنجليزُ على كتمان الأمر تمامًا، وهدّدوا ناظرَ المحطة ومعانوه وتوعّدوهم إذا تسرب الخبرُ خارجَ المحطة، حتى لا تهتزّ هيبتُهم في عين الفلاحين المصريين، لكن ما اكتشفوه كان مفاجأةً مدويّة لهم،

فعلى كلّ الجدران تقريبًا، وفي كلّ الشوارع الكبرى تم لصقُ ورقة كتبث باللغة العربية والإنجليزية تعلن مقتل ضابط المخابرات البريطانية (باتريك لوين) انتقامًا لمقتل سلام قائد المقاومة، وأنه سيتمُّ اقتحامُ الكامب اليوم في تمام الثانية ظهرًا، وفي خضمّ هذا التوتر البالغ لمقتل باتريك لوين بتلك الطريقة المهينة كان الجنودُ على استعدادٍ لإطلاق النار على أي نملةٍ تقترب من أسوارِ الكامب بعدَ تلك المنشورات التي انتشرت وقرأها الجميع. في الميدان الواسع وفي ذلك الصباح الملتهب، وقف أحدُ موظّفي المحكمة الابتدائية يمسك بالمنشور ويتأمّل فيه في تعجبٍ وقد لمعت عينُه قبل أن يقاطعه أحدُ الباعة الذي اقتحم شروده قائلًا:

هو إيه اللّي مكتوب في الورقة دي يا أفندي؟

قال له الموظف: يبدو أنّ هناك حركةً لمقاومة الإنجليز في البندر ونحن لا ندري.

سأله الرجل: يعني إيه مقاومة؟

قال له: أناس يرفضون بقاءَ الإنجليز في مصر.

قطبَ البائع عن حاجبيه قائلًا: الله يخرب بيتهم، هيجيبولنا وَجع الدماغ، إحنا مالنا ومال الإنجليز، ما يفضلوا هو إحنا شايلينهم على دماغنا.

نظرَ إليه الموظف مستغربًا، ثمّ قال: ولكنهم يحتلّون بلدًا ليس بلدهم.

قال له البائع: يا بيه دا كلام كبير علينا، دي حاجة ما بين الكُبرات وبعض، إحنا منفهمهاش، يعني هنفهم أحسن من الخديوي عباس نفسه.

مالَ الموظف عليه قائلًا: ولكنّ الخديوي أيضًا يرفض وجودهم.

مطّ الأخير شفتيه قائلًا: يا أفندي دا كلام جرايد، والله من ساعة القلق اللي حصل في البندر وأنا مبعبش بمليم، عساكر الإنجليز كانوا بينفعونا، بس بقالهم فترة مبيخرجوش من الكامب.

قال له الموظف: وكيف تقبل بأنْ تبيع لهم؟

قال الرجل: يا بيه أنا ببيع لأي حد؟

قال له الموظف وهو ينظرُ في عينيه مباشرةً: على العموم يجب أن تأخذَ حذرك، صفوان العرضحالجي، شمعته فاحت وعلمَ الجميع أنه كان جاسوسًا للإنجليز، وانتهى به الأمر عندما انتقم منه أحدهم وقطع يده.

ابتلعَ الرجلُ لعابه في صعوبة وهو يتأملُ وجهَ الموظف قبل أن يقول:

طب وأعمل إيه؟

مالَ الموظف على أذنه قائلًا: سوف أشتري منك اليوم، ومُرّ عليّ كلّ يوم وسأجعل كل موظفي المحكمة يشترون منك قدرَ استطاعتي شرط ألا تبيع شيئًا للإنجليز.

هزّ البائع رأسَه مسرورًا وانصرف ببضاعته والموظفُ يتأمله مبتسمًا قبل أن يدخل إلى حجرته التي تطلُّ على الساحة الخلفية من المحكمة، كانت تقريبًا من النوافذ القليلة التي ترى الكامب المرابط خلفَ المحكمة من بعيد، كان هناك سؤالٌ واحد يدور في رأسه، هل هناك فعلًا مقاومة؟ هل حقًّا سيقتحمون الكامب؟

***

في نفس الوقت، كانتِ الاستعدادات داخلَ الكامب على قدمٍ وساق، أضاف الميجور أربعَ نقاط حراسة خارج أسوار الكامب الرئيسية، أكبرها أمامَ البوابة الأمامية للمعسكر، أجولة ممتلئةً بالرمال وضعت بعضها فوق بعض أمامَها سلك شائك كبير يتصل ببقيّة النقاط الأربعة على هيئة مربع كبير حول المعسكر، الأمر الذي جعل التسللَ للكامب أمرًا مستحيلًا. كان الميجور يدوزُ في المعسكر كالنمرِ الهائج لا يطيق أن يحادثَه أحد، يصرخ بأعلى صوته عليهم باليقظة فهُم لا يعرفون مَن هو عدوُّهم بالضبط، عندَ البوابة الأمامية كان الجنود يختبئون خلف السواتر الرملية الجديدة في تحفُّز، وبدون سابق إنذارٍ هبّت رياح شديدة في المنطقة الواسعة أمام الكامب جعلت الرمال والأتربة تتطاير وتصنع سحابةً كبيرة أخفتِ الساحة الأمامية مؤقتًا قبل أن تنقشع عن رجلين ملثّمين يتجهان نحو البوابة، صرخ فيهم الحراس بالتوقف لكنهم لم يستجيبَا فأمرهم قائدُ النقطة بإطلاق النار مباشرة بأوامر من الميجور شخصيًا، وعلى الفور دوّى صوتُ

طلقات الرصاص الذي اخترق جسدَ الرجلين وأزداهما على الأرض، فانتفض الميجور داخل الكامب لما سمعَ الصوت، وهبّ على الفور يستكشف الوضع، فوجئ بالحراس ومعهم قائدهم يقتربون من الرجلين الذين قُتلا للتّو على أبواب المعسكر، كشف اللثام عن وجه الرجلين، فوضع يدَه على رأسه من الصدمة عندما اكتشف أنّ هذين الرجلين ما هما إلّا الحارسان المختطفان وقد ارتديَا جلبابين من جلابيب الفلاحين، بعد أن ألبسهم سلام تلك الجلابيبَ وهمَا فاقدي الوعي، وحملهم أشيَل في عنفٍ وطرحهم أمام المعسكر، وهمس لهما بعد أن عقد لسانهما عن الكلام قائلًا:

اهربا.

فلم يدركِ الحارسان الفخّ الذي وُضعا فيه، وهُرعَا كالمجانين لدخول الكامب، فلم يتمكنا من تحذير زملائهم الذين قتلوهم على الفور، الأمرُ الذي أفقدَ الميجور الكلام، وتلفّت حوله شاهرًا مسدسَه الشخصي، وقد أصابته نوبة جنون مفاجأة فأخذَ يلوّح بمسدسه في الهواء كأنه يحارب أشباحًا لا يراها، صارخًا: أين أنت أيها الملعون؟

مِن نافذة المحكمة، وعلى مرمى البصر كان موظفُ المحكمة يراقب المشهدَ بصعوبة وسمع طلقات الرصاص، ورأى الإنجليز يقتلون رجلين بجلاليب مصرية، لكنّه استنتج أنها مكيدةٌ لأنه رأى قائدَ الكامب يصرخ كالمجنون ويلوح في الهواء، ثمّ رآهم يحملون الجثتين في تأثر، ويدخلونهما إلى داخل المعسكر.

في منتصفِ اليوم، كانت المنشورات المكتوبة يدويًا قد انتشرتْ في كل مكان تقريبًا، الناس بدأوا يتساءلون عن سلامٍ وعنِ المقاومة التي يقودها، عندما ذهبَ ذلك الموظف إلى المقهى في الليل وجد الحديث يدور في همسٍ عما حدَث، كانتِ المناقشة مُحتدمة بين الناس، وبرغم اختلاف الآراء فقد كان الاسمُ الوحيد الذي ظلّ يتردد هو اسمَ (سلام)، فقال أحدهم:

سلام هذا ومَن معه يحرثون في البحر، اسألوني أنا، أبي كان في هوجة عرابي وجلس يبكي داخل البيت شهورًا وماتَ بعدها كمدًا عندما تمت محاكمتهم.

ردّ عليه في همسٍ: لكنْ سلام ربما فعلَ هذا يفعل ما يعجز عنه الكثيرون.

ردّ ثالث عليهم: هل تظنون أنّ الإنجليز لن يقدروا عليهم، أراهنكم أننا سنجدهم معلّقين على المشانق أمام الكامب حتى يردعون مَن يفكر في معاداتهم.

نظرَ أحدهم إلى الموظف قائلًا: وأنت.. ما رأيك؟

قال مبتسمًا: أرى أنها محاولةٌ جريئة من سلام هذا، ولا أخفيكم سرًا، أشعر أنهم سينتصرون عليهم.

تعجّب أصدقاؤه من كلامه وقال أحدهم: ينتصرون على الإنجليز! هل جننت يا رجل؟ إنّ قوات البوليس المصري نفسَها لا تستطيع دخول الكامب. وهذا اليوم انتهى دون أن

نسمع عن شيءٍ جديد.

ابتسمَ الموظف قائلًا في ثقةٍ: الأيام بيننا.

***

لم يعد في إمكان الميجور أن يخفي الأخبارَ أكثر من ذلك، فوصل الخبرُ سريعًا للقيادة العامة للقوات البريطانية، ووصل بعدَها لمكتب مندوب المخابرات البريطانية في مصر. وفي اليوم التالي وصلت سيارة عليها علم بريطانيا على جانبيها تتقدّمها سيارتان عسكريّتان مليئتان بالجنود، نزل منها وفد مكون من خمسة ضباط للمخابرات ومندوب عن مكتب الحاكم العسكري ومندوب من مكتب القنصل البريطاني في مصر، سقط قلبُ الميجور جورج وكاد يغمى عليه عندما أخبرَه الحراش بوصولهم، كانت مهمّتهم محددة؛ التحقيق في كلّ الوقائع التي حدثت منذ القبض على سلام حتى العثور على الضحايا الثلاث، وذلك قبلَ أن يُكتب التقرير النهائي الذي سيتم وضعه على مكتب اللورد كرومر، وبدأت التحقيقاتُ الدقيقة والطويلة مع كل فردٍ في المعسكر بلا استثناء، وخاصّة المقربين من الحارسين المقتولين، وكانت المفاجأةُ الكبرى التي أسفرت عنها التحقيقاتُ المكثفة، عندما أخبرهم أحدُ الجنود أن أحدَ الحارسين المقتولين أخبره أنه عندَ دفن سلام اختفث جثته بعد حفر الحفرة، وأنهما لم يخبرَا باتريك لوين بذلك خوفًا من عقابه، كانت تلك المعلومة سببًا في تغيير مجرى التحقيقات والأحداث كلها بشكلٍ جذري، وأصبح الاحتمالُ الأول هو أن سلام نفسه مازال

حيًا، وأنه لا بدّ من وضعه في خطةِ البحث عن الفاعل، ولا بدّ من الرجوع لمسقط رأسه للبحث والتحقيق.. الرجوع إلى (المحمودية) التي تحمل في بطنها كلّ التفاصيل والأسرار، وبالطبع تمّ الاستعانةُ بالبوليس المصري ورئيس المباحث محمد الأسيوطي الذي أخذ أوامرَ مباشرة من الحكمدارية بالتعاون التامّ مع ضباط المخابرات البريطانية ومستر جورج قائد الكامب، قَبِلَ المهمة على مضضٍ ومضى وهو يسبُّ بالعامية المصرية، ورافق القوة الإنجليزية إلى أن وصلوا إلى (المحمودية)، واستقبلهم العمدة وهو يهرولُ خلف السيارات التي تقلُّ الجنود، الوحيد الذي كان يركب حصانًا هو محمد الأسيوطي بعد أن رفضَ مرافقتهم في سياراتهم، قائلًا للمخبر المرافق: مركبش مع ولاد الكلاب دول.

فوجئت قواتُ الهجانة بالموكب الضّخم تصاحبه الخيول وقوة من المركز بقيادة المأمور بنفسه ومحمد الأسيوطي، مرّ الموكبُ سريعًا من نقطة الحراسة دون أن يتوقف واتّجهوا مباشرة لدوار العمدة وفوجئ الناس في المحمودية بهذا الجيش الصغير يملأ الشوارع، ونزلَ من السيارة الأولى الميجور جورج بشاربه العريض وملابسه العسكرية النظيفة، تقدم في بطءٍ ناحيةَ العمدة وهو يرمقه متأملًا قبل أن يسأله في عربيةٍ:

هل تعرف سلام عبد الله أبو حسين؟

أجابه العمدة: أعرفه جنابك، لكنّه اختفى من المحمودية منذ أشهر، وبعده اختفت زوجته.

سأله الميجور: ألم يظهز في القرية بعدها؟

أجابه العمدة: ولا مرّة جنابك. ثم سأله: هل فعل شيئًا؟

تجاهل الميجور سؤالَه وقال له: هل له أصدقاء في القرية؟

أجابه العمدة: لا جنابك لا يوجد غير شحات كان يعطف عليه واختفى هو الآخر.

هزّ الميجور رأسه قائلًا: دلّنا على منزله.

اتّجه الموكب مباشرة لمنزل سلام القديم ترافقهم قواتُ الهجانة والغفراء والعمدة بنفسه، اقتحموه فلم يجدوا به أحدًا، كانتِ الأتربة تنتشر في كلّ مكان، وتغطي كلّ شيء، وخيوطُ العنكبوت نسجت على الباب والنافذة دليل على غيابِ اللمسة البشرية لفترة طويلة عن المكان، فاتجهوا إلى منزل عبد الله أبو حسين والد سلام، عندما كسروا الباب وجدوا البيتَ فارغًا من الأثاث، ومن كلّ مظاهر الحياة، وبحثوا في كل أنحاء (المحمودية) فلم يجدوا أثرًا لعبد الله أبو حسين ولا لزوجته، وبالطبع لم يجدوا أثرًا لسلام الذي كان في أعين الجميع مفقودًا منذ شهورٍ طويلة هو وزوجته.

قاموا باستجواب الكثير من أقرباء عبد الله أبو حسين، فأخبروهم أنهم لا يعلمون عنه شيئًا، وعندما سألوهم عن سلام أجمع الجميعُ على غيابه هو وزوجته منذ فترة طويلة، ولا يعرف أحدٌ أين اختفوا.

وبالطبع عادتِ الحملة خاويةَ الوفاض خائبة الأمل، لم

تحقق نصرًا، ولا وصلث لمعلومة مفيدة، الوحيد في الحملة الجزّارة الذي يشعز بالسعادة في داخله هو محمد الأسيوطي، كان إحساش الشماتة يملأ صدره لأن الإنجليز لم يهتدوا لشيء في (المحمودية)، لا يعلم لماذا صارث قضية سلام تشغل ذهنَه كلّ ثانية؟ عشرات من الأسئلة تنتشر في رأسه في سرعة باحثةً عن جواب، هل حقًّا سلام مازال حيًّا؟ وأين هو؟ وأين كان؟، وأين ذهبث زوجته زينب بعد غيابه؟ هل حقًّا له صلةٌ بكل ما يحدث في الكامب بشكل أو بآخر؟ ما حدثَ يفوق قدرات فردٍ واحد، بل هو يفوق طاقة البشر، الرعبُ الذي يحكي به الجنودُ الإنجليز عما رأوه في ليلة اختطاف (باتريك لوين) كان كبيرًا، فهل حقًّا يتزعم خلية لمقاومة الإنجليز كما يردد الجميع؟ عندما وصلثه أحدُ الأوراق التي لُصقت على كلّ الجدران تقريبًا في البندر شعر بالعَجب الشديد؛ فكلُّ تحرياته عن سلام منذُ اختفائه تخبره بأنه كان منعزلًا لا يختلط بأهالي المحمودية كثيرًا، حتى قصة اعتقال الإنجليز له، وقتلهم له تحت التعذيب، كان يشعر أنه تمّ الزجّ باسمه فيها. كانت الأفكار تضرب بعضها في رأسه وهو عائدٌ إلى المركز كأمواج البحر المتلاطمة، ثم أنارث فكرة واحدة من بينهم كما ينير المصباح في الظلام؛ الإنجليز فتّشوا كلّ ركن في (المحمودية) إلا مكانًا واحدًا لم يصلوا إليه، أُسقِط عمدًا أو زُعبًا، لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه؛ (بيت المداخن).

***

كان الفضول وحشه البوليسي سيقتلانه، لذا ففي الليل بعدَ أن أكل التفكير رأسه، قرّر الإقدام على فعل مجنون لم يخبز أحدًا به، وبرغم ما تعرّض له في تلك الليلة المرعبة التي فاقت كلّ توقعاته يومها، عندما ذهب مع عبد ربه المخبر ناحيةَ بيت المداخن ليلًا، تلك الليلة التي حُفِرت في عقله كنقوشِ الفراعنة التي نقشت على جدران المعابد، لن يمكنه أبدًا نسيان ذلك الكائن المهول الذي كان يجلس فوق المدخنة ويخترق عقله مِن على ارتفاع أكثر من أربعين مترًا في الظلام الدامس، لم ينسَ تلك الكلمات التي ترددت في عقله وقتها:

(ارجعْ ولا تأتِ مرةً ثانية، فلولا أنّ دمك ليس ملوثًا كدمائهم لنزعتُ أحشاءك من داخلك، وشنقتك بها)

برغم كلّ هذا دفعه رأسه الصعيدي، فحمل سلاحه الأميري وركب حصانَه حاملًا مصباحًا زيتيًا، وخرج من المركز منطلقًا صوبَ (المحمودية) التي تبعد كيلومترات قليلةً عن البندر قطعها في وقت قصيرة، ثم تجاوز (المحمودية) في اتجاه بيتِ المداخن، الذي يقع في أقصى الغرب يقبع وحيدًا كالوحش الذي ينتظر فريسةً جديدة، ومن بعيد كان ضوء القمر الخافت ينعكس على المنزل الصامت كالقبر، وبالأخصّ على مدخنته التي تشق السماء في جبروت غريب، حاول أن يتعلمَ من خطئه السابق فلا قِبلَ له باقتحامِ حرم ذلك المكان، فأوقف الحصانَ على مسافة بعيدة من المدخنة وربطه في شجرة، ثمّ أطفأ المصباح وتسللَ على قدميه ووصل لأقرب

نقطة يسمح بها قلبه، وظل يراقب المكان من بعيد على ضوءِ القمر، كان الجوُّ هادئًا ساكنًا تمامًا فظلّ أكثرَ من ساعة يدقق النظر ويرهف السمع، ولكن لم تظهر حركةٌ واحدةٌ تنمُّ عن وجود أحدٍ بالمكان، فهمّ أخيرًا بالرحيل، استدار فجأةً فوجد أمامه... رجلًا له لحية ضخمة وشعرٌ طويل، انعكسَ القمر على وجهه فأظهر كتلةً من الغضب محفورةً على ملامحه البارزة المليئة بالجروح، تجمد محمد الأسيوطي في مكانه للحظات، ثمّ قال وهو يتحسّس سلاحه الميري في قلقٍ: من أنت؟

أجابَه سلام في هدوء: من جئتَ تبحث عنه.. أنا سلام.

نظرَ الأسيوطي حوله في قلقٍ، وجالَ ببصره يمينًا وشمالًا، لولا أنْ قال له سلام في اطمئنان وهو يجلس على حجر كبيرٍ في هدوء: لا تقلق.. لا يوجد أحدٌ غيري كما ترى.

سأله الأسيوطي: أين كنتَ مختفيًا؟، لقد جاءت لي زوجتك تبحث عنك!

دمعت عينا سلام قائلًا: زينب!! يا ليتني أراها ثانيةً. سأله الأسيوطي: أين ذهبت هي الأخرى؟.. وأين كنتَ أنتَ قبلها؟ لا أخفيك سرًّا لقد شغلتني قضيتك أكثرَ مما تتصور، علمت من مصادري أنك كنتَ معتقلًا في الكامب الإنجليزي.

نظرَ إليه سلام قائلًا: أنا أضع بين يديك قضيةَ عمرك.. قضية سوف تحكيها لأبنائك وأحفادك.. سوف أحكي لك كلّ شيء، ولكنْ دعنا نمشي قليلًا فقد اشتقتُ للسير مع أحدٍ من البشر.

قامَ الاثنان يمشيان في هدوءٍ، لا يعلم محمد الأسيوطي لماذا سرَى الاطمئنانُ في نفسه سريعًا عندما ابتعد عن تلك المنطقة، لدرجة أنه لم ينتبه إلى ذلك الكيان المهيب الذي يجلس فوقَ طرف المدخنة يسمع كل كلمة يقولها، يراقب أنفاسَه وضرباتِ قلبه، يشعر بصدقِ حديثه من كذبه، كان أشيَل يريد أن ينقضَّ عليه عندما دخل إلى منطقة المداخن لولا أنْ منعه سلام قائلًا:

دعْني أتحدّث إليه، ولتوفر غضبَك لما هو آت. لكنْ أشيَل أخبره أنه سوف يراقبهما، وإذا آنسَ من ذلك الدخيل غدرًا سوفَ يتخطفه كما تتخطّف الجوارح فريستها. فقال له سلام: صفقة عادلة يا صديقي.

كانت خطواتُهما تبتعد عن المدخنة في بطءٍ وإن كانتْ واضحةً لأشيَل ولحواسه الخارقة، وبلا مقدمات شعر بوجود شخصٍ ثالث غير سلام ومحمد الأسيوطي في المكان، حضورٌ قويٌ بقوة ليست بشرية لكنه عجز عن تحديد مكانها أو معرفة صاحبها، حاول أن يغمضَ عينيه ويركز تفكيرَه لكنه فشلَ حتى في تحديد كنهها، نزل من فوق المدخنة على الفور يتلفّت يمينًا وشمالًا، ثمّ فوجئ بصوت من خلفه يقول:

لقد ضعفت حواسُك يا فارس بني عاصف.

تجمّد المارد الجبارُ في مكانه من هول الصدمة، كان يعرف جيدًا صاحبةَ الصوت، قاوم نفسه كثيرًا قبل أن يلتفت ليجد كتلةً من النور تتشكل أمامَه في بطءٍ لتخرج منها.. الكاهنة

( هند بنت الأحمر)... أمه.

خرجت ترتدي ثوبًا أبيضَ لا يختلف كثيرًا عن لون شعرها الفضي الذي يشبه خيوط الحرير، تضع على رقبتها قلادة بها فصٌ من الياقوت الأحمر تنبض في هدوء كأنها قلبٌ يتحرك، سقط أشيَل على ركبتيه أمامها وقد عجزت قدماه على حمله، فهوَى تحت رجليها كالخرقةِ البالية يبكي، بعد أن عجز لسانُه عن النطق، فمحنته التي فرقت بينهما لا تقل بحالٍ عن محنة سلام، كان إحساسه بالظلم وبالعجز كبيرًا، تذكر انكسارَه وقت هروبه من السجن بمساعدتها وصوتها يرنُّ في عقله:

اهربْ يا أشيَل، اهرب ولا تعُد.

كان إحساسه بالخزي مَهولًا وقتها، فكيف لقائدِ الفرسان أن يترك سيفَه ودرعه ويفرّ كما تفرُّ الخراف من الذئب، لكنه لم يملك أمرًا آخرَ وقتها، إمّا الهروب وإما الموت، كانت مرافقته لسلام ومساعدته له إنما هي تكفيرٌ عن ذنبٍ لم يفعله، إحساسه بالظلم جعل مِن قضية سلام قضيته، ثم تظهر أمُه هكذا أمامه بلا مقدمات! كان هذا فوق تحمله فلم يقوَ حتّى على رفع رأسه إليها. تقدّمت منه ومسحت على رأسه واحتضنته في رفقٍ، ثمّ قالت له مبتسمةً:

قمْ أيها البطل، قمْ ولا تبكِ، وهل كنتَ تظنُّ أن تتركك أمُك لقمةً سائغة لذلك الكلب الذي كادَ لك؟، الوزير الآن رأسه معلّقٌ في ساحة العقاب حتى يكون عبرةً لكل بني النار، وعقابًا لشعبك الذي خذلك بعدَ كلِّ ما فعلت من أجلهم، ولحُسن

حظّك كشف الجساسون الذين يحرسونَ الملك الخدعة، بعدَ أن أخبرهم أحد الخدم بأنه رأى الوزير يضعُ السمّ للملك قبل أن تدخل عليه، كان لا بدّ لي من البحث عن شاهدٍ داخل القصر، بالطبع كان الجميع يشعرون بالخوف من الوزير الذي فرض نفوذَه سريعًا عليهم، فكان مصيرُ كل مَن يخالفه هو القتل، لكنني أخيرًا نجحت في الوصول للشاهد بعد رحلةٍ مريرة من البحث.

كان أشيَل يستمع إليها غيرَ مصدّق لما تقول، فصاح مندهشًا: كيف ذلك؟. ابتسمت وهي تقول:

هذه حكايةٌ أخرى طويلة تعرفها عندَ عودتك للقبيلة لقيادة قواتك مرةً أخرى، فبني (شاكن) يحشدونَ جيوشهم .. أيها الملك.

تجمّدت ملامح أشيَل من الذهول للحظات، ثمّ قال لها: هل تقصدين أنّ.... ابتسمت قائلة:

أنتَ الآن الملك أشيَل بن مُزخَم، ملك بني عاصف المختار، كلهم أرادوا التكفيرَ عن خطيئتهم عندما تخلوا عنك، فخرجوا للمُناداة بتوليتِك منصب الملك. ثمّ أردفت قائلة: ألم أقلْ لك لا تقلق وأمُك على قيد الحياة، أخرجتك من القبيلة هاربًا، وأعدتُك إليها ملكًا.

نظرَ إليها أشيَل قائلًا:

ومَن قال إنّني سأقبل بأن أكون ملكًا عليهم؟، هم لا يستحقون.

كان كلامه مُباغتًا لها، فاقتربت منه وهي تحتضن رأسه قائلةً:

لا تتعجّل في الرد الآن.

بكى على صدرها في حرقةٍ لم يذق طعمَها من قبل وهو يقول:

خذلوني يا أمي بعد أن قدّمت أرواح جنودي للموت دفاعًا عنهم، هتفوا لي عندما كنتُ أدافع عنهم، ثم سبّوني وقذفوا وجهي بالحجارة وأنا مقيّد، فقط عندما أخبرهم الوزير أنني مَن قتل الملك! كيف تريدين منّي أن أكون ملكًا على هؤلاء؟!

كان إحساسه بالظلم عظيمًا يأكل حشاشةَ قلبه ويحرق روحه بلا رحمة، الآن وقد زُدّ له حقه وشرفه العسكري مازالت مرارةُ الظلم تقبع في حلقِه، لن يمحوها إلا أنْ يردّ لسلام حقّه كما يريد ويتمنى، نظر إلى أمه قائلًا وهو يمسح دموعَه: وماذا عن زينب زوجةِ سلام؟ هل تعرفين مكانها؟ قالت له: نعم، عندما تلقّيت رسالتك، وجدتها فاقدة للوعي داخلَ بيتي، ولم يكنْ من الممكن أن أتركها في عالم الجن حتى تستعيدَ وعيها، لم يكن قلبها ليتحمّل ذلك، فقد كان الجساسون في كلّ مكان وكانوا سيشمّون رائحتها لا محالة، لذا نقلتها فورًا لتعيش مع امرأةٍ من بني جلدتها، امرأة تُدعَى (جيهان واصف)، تلك المرأة سمعتُها في ليلة تبكي على صغيرها الذي مات، فعصرتْ قلبي وذكرتني بك، فألقيت زينب أمامَ بيتها وتأكدت أنها ترعاها حقَّ الرعاية، حتى ترزق بمولودها، ثمّ ابتسمت له

وهي تقول: أما كنت تقول لأقرانك وأنتَ صغير: "أمي الكاهنة تعرف كلّ شيء"؟

نظرَ أشيَل للقمر في صمتٍ وكأنه يفكر، ثمّ قال لها ملتفتًا: إذًا.. مازال لديّ مهمة واحدة هنا.

***

في الصباح، كانت (المحمودية) تبدأ يومها الجديد، إلا إن ضبابًا كثيفًا أغرق كل شيءٍ على غير العادة، إذا نظرت إليها من السماء ستشعر أن بحيرةً كبيرةً من الضباب ابتلعت القرية كلها، لم يظهر من تفاصيلها إلا طرف مدخنة بيت المداخن، إلا أن ذلك لم يمنع الفلاحين من الخروج لأعمالهم محاولين في صعوبة الاهتداء وسط كثافة الضباب الذي غطى كل شيء، كان يومًا مريبًا لاحظ فيه الجميع علامات غريبة تظهر في كل شوارع القرية، كان بعضهم يقسم أنه سمع همسًا خافتًا لا يعلم مصدره، وبعضهم أخبر أصحابه أنه كان يشعر بتباين كبير في درجات الحرارة، فبرغم برودة الجو صباحاً، إلا أنه كان يشعر بحرارة شديدة عندما كان يمر ببعض الشوارع، وكأنّ هناك أفرانًا مخفية في بعض الأماكن، في نفسِ الوقت وبعدَ شروق الشمس مباشرة، وصلَ محمد الأسيوطي إلى مكتبه مبكرًا على غير عادته، عندما وصل المركزَ لم يلتفت لأحد من العساكر الذين يؤدّون له التحية، كانت خطواته في الرواق تبدو سريعةً وغريبة في ذلك الصباح، قال له العسكري الذي يجلس أمام مكتبه:

صباح الخير جنابك.

لم يردّ عليه الأسيوطي وكأنّه لا يسمعه، كأن عقلَه يحترق بالتفكير في أمر ما، بعدما دخل مكتبه طلب فنجانًا كبيرًا من القهوة، ازتشفه على عُجالة، وكأنه لا يشعرُ بحرارته العالية، لدرجة جعلتِ العامل يتعجب، فقد كان دائمًا يشرب قهوته بعدَ أن تبرد. كان الأسيوطي يدور داخلَ حجرته في توترٍ شديد، ثم وقفَ أخيرًا ينظر من نافذة المكتب والتي تطلُّ من بعيدٍ على الميدان الكبير في وسط البندر، عاقدًا كفّيه خلف ظهره في تأملٍ طويل للمارّة الذين يمتلئ بهم الميدان، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا قبلَ أن يطلب من العسكري أن يحضر له حصانًا آخر، ليريح حصانه من ليلة أمس الطويلة، وبعد دقائق انطلقَ به في هدوءٍ على غير عادته الصباحية مما جعل الجميعَ يتعجبون فنادرًا ما كان يخرج في هذا التوقيت المبكر، وأمرَ بألّا يصاحبه أحدٌ عبرَ الميدان الواسع، ثمّ وصل إلى المحكمة الابتدائية وانعطف حتى وصل إلى الكامب الإنجليزي، وعلى الفور أوقفه الحراش الإنجليز فقال لهم في برود:

محمد بك الأسيوطي، رئيس مباحث البندر، أريد مقابلةَ الميجور جورج في أمر هام.

بعدَ دقائق كان يدخل إلى الكامب بحصانه قبلَ أن يوقفه أمام المبني الإداري الذي يقع فيه مكتب الميجور، نزل عن حصانه وربطه بيدِه قبل أن يصحبَ الجندي الإنجليزي في حراسة مشدّدة إلى مكتب القائد الذي استقبله وصافحه في

توترٍ قائلًا: ما الأمرُ الهام الذي تريد مقابلتي من أجله؟

أجابَه الأسيوطي مباشرة: أنا أعرف مكانَ سلام، ولكن هذه المعلومات غاية في السرية وأخبرك بها على مسئوليتي الشّخصية، وإذا عرفها غيرك سيتسرّب الخبرُ إلى سلام، ولن تراه بقيةَ حياتك بعدها، سلام لم يمت، وهو من فعلَ كلّ هذا بمستر باتريك لوين وحارسيه.

قامَ مستر جورج منتفضًا وهو يقول: وكيف عرفتَ كل هذه المعلومات؟

أجابه الأسيوطي: يختبئ في بيت المداخن، المنطقة التي تقع غربَ المحمودية، وهي الوحيدة التي لم نفتشها، قابلته هناك وهوَ الذي اعترف لي بكلّ هذا. ثمّ أردف وهو يقترب من مستر جورج هامسًا كأنه خائفًا من يسمعه أحد:

ولكنْ أريد أن أحذرك، فهو ليس وحده.

***

دبّ النشاطُ فجأة في الكامب بعدَ خروج محمد الأسيوطي منه، كانتِ الاستعدادات على قدمٍ وساق بعد الإشارة العاجلة التي أرسلها مستر جورج للقيادة، كذلك كانتِ الأوامرُ التي أصدرتْ للجنود بالاستعداد غامضة ومقتضبة، والوحيدُ الذي كان يمتلك التفاصيلَ هو الميجور نفسه، الفرصةُ جاءته أخيرًا لردّ اعتباره، والقبض على ذلك المجرم الذي سخرَ منه أمام الجميع مرّتين؛ مرةً عندما سرق السلاحليك، ومرةً عندما قتل ثلاثة من أفضل عناصر القوات البريطانية،

منهم (باتريك لوين) ضابط المخابرات المخضرم. كان مستر جورج كالغريق الذي تعلق بطوْق نجاةٍ ألقاه إليه القدر، لكنه أقسمَ أنه لن يقع في الخطأ مرّتين، ولن يعود إلا وقد انتصرَ لكرامته التي وضعها ذلك المصري في الطين، لذا قد استعدّ هذه المرة كما يجب، وجمعَ كلّ ما يمكن جمعه من أسلحة وعتاد وعربات مصفحة، كأنه على وشكِ الدُّخول في حربٍ ضَروس، لم يترك في الكامب إلا عددًا قليلًا من الحامية لا تزيد عن عشرين جنديًا، وحشد كلّ قواته، وطلبَ مددًا من المعسكرات المجاورة في كلّ مديرية الغربية كلها، وقبل المغرب فوجئ سكان البندر بفيض من القوات تتدفّق في تتابعٍ مُريب على الكامب الكبير، أفواج تلوَ أفواج تجمّعت أمام الكامب حتى سدتْ كلّ المنافذ المؤدّية إليه، وتوقفت أمامَ المحكمة الابتدائية، وفي سواد الليل تحرك ذلك الجيشُ الضخم في مشهدٍ مهيب في اتجاه (المحمودية)، فوجئت قواتُ الهجانة بمئاتٍ من الجنود، وفيضٍ كبير من العربات، وعددٍ كبيرٍ من الخيول يقودهم مستر جورج شخصيًا، مرّوا من أمام (المحمودية) دون أن يتوقفوا في سرعة كبيرة غير مكترثين بإبل الهجانة التي أصابها الفزعُ من ذلك العدد الكبير، وعندما وصلتِ القوات إلى منطقةِ بيت المداخن كان القمر في السماء يجلس مشاهدًا ما سيحدثُ في تلك الليلة القمرية الكاشفة. كان الصمتُ المطبق يخيّم على تلك البقعة، وعلى ضوء المشاعل والمصابيح الزيتية انتشرَ الجنود الإنجليز كالخطة التي وُضِعَت لهم، حتى أحاطوا ببيتِ المداخن إحاطة كاملة منتظرين أوامر مستر جورج، كانت

خطئه مُحكمة هذه المرة، العدد الذي حشدَه، والقوة التي معه يسمحان له حتمًا بتنفيذها، فنزل من عربتِه منتشيًا، يشعر أنه أصبحَ الآن في مركز القوة، وهو يشير لجنوده بالتمركز حول محيط بيت المداخن بشكل دائري، وكإجراءٍ احترازي أمرَهم على الفور بإطلاق النار بشكل كثيف، وبعد ثلاث دقائق مستمرة من إطلاق النار، سادَ المكان سكونٌ طويل، فأشار لبعض الجنود بالاقترابِ من الجدران التي اخترقها الرصاص فجعلها أشبه بالمصفاة، وعندما اقتربَ الجنود، وعلى ضوء المشاعل ومصابيحهم الزيتية، بدأوا في اكتشافِ ما بداخل بيت المداخن، كانت غرفاته خالية تمامًا وليس بها أثرٌ لإنسان واحد، لكنهم وجدوا السوطَ الذي جلدَ به سلام الثلاثة المختطفين قبل قتلهم والذي يعودُ للكامب، وأخذه أشيَل من السجن عندما اختطفَ الثلاثة، فتيقن الميجور من صدق حديث الأسيوطي، وقفَ مترقبًا نتائج البحث، فأشارَ إليه الجنود إشارة صامتة بأن المكان خالٍ تمامًا، ثم شقَّ كل ذلك السكون والترقب صوتٌ غريب، ضجيج يشبه صوتَ جيوش العصور الوسطى، أصوات أشبه بأصوات الخيول والدُروع الثقيلة والسيوف، وكأنهم يسمعون صوتَ جيش جرار يقترب منهم ويحيط بهم، إلا إنهم لم يروا شيئًا برغم ضوءِ القمر المنشر في كلِّ مكان. كان الصوتُ يرتفع ويزداد، فتلفَّت الجنود الإنجليز حولهم في ترقبٍ، والأصوات التي لا يعرفون مصادرَها تتحرك وكأنها تقترب منهم، وكأنها ستقوم بدهسهم، حاول مستر جورج السيطرة على جنوده الخائفين، لكنَّ الضوضاء والضجيج أصابَا الجميع بالتوتر والخوف،

فبدأ الجميع في التعرق الشديد بلا سبب، وبدأوا يشعرونَ بحرارة كبيرة تحيط بهم لا يعرفون مصدرَها، ثم سادَ صمتٌ طويل، وفجأةً بدأت العربات ترتج بشدة وكأن هناك زلزالًا يحرك الأرضَ من تحتها ويضربها في عنفٍ، وهنا انفرطَ عقد الإنجليز وبدأوا يتدافعون ويتراجعون في عشوائية، والقائدُ يصرخ فيهم قائلًا: أطلقوا النارَ بشكل دائري، وتجمعوا لحماية بعضكم.

تمالك الجنودُ أنفسهم، وتجمّعوا بكلِّ عرباتهم ومعداتهم فشكّلوا دائرة، ووجّهوا أسلحتهم للخارج وأطلقوا النيران بشكل مُستمر حتى نفدتْ ذخيرة الكثير منهم، وعلى ضوءِ الرصاص المستمر والدخان المنبعث من فوهات البنادق، شاهدوا ظلالًا سوداءَ بدأت تتشكلُ في بطء حولهم، يخترقها الرصاصُ ولا يؤثر فيها، بدأت تلك الأشباح السوداء تقترب منهم لتصنعَ حولهم دائرةً كبيرة أخذ محيطُها يضيق شيئًا فشيئًا، ثم بدأتْ نيران المشاعل في يد الجنود تنعكس على وجوهِ تلك الأشباح لتظهر بعضًا من تفاصيلها، كياناتٌ سوداء طويلة ضخمة لها شعر طويل ينسدل على الكتفين، جميعُها تمتلك عيونًا حمراءَ مشتعلة، وخلف كلِّ واحد منهم عباءةٌ من الدخان الأسود، كان لونهم أشبه بسواد الليل، لكنَّ القمر تعمدَ في تلك الليلة إرسالَ أكبر قدرٍ من نوره إلى الأرض ليزيدَ من رعبهم، فقد كانت التفاصيل التي تتشكّل أمامه مريعة، مما جعلهم يتجمّدون في مكانهم، بما فيهم قائدُهم مستر جورج الذي أصابه الخرس، فلم ينطقْ بكلمةٍ واحدة، توقفت

كلُّ تلك الكيانات السوداء على بُعد أمتار من الجنود فشعروا بحرارة كبيرة تلفح وجوههم، وكأنهم أمامَ أفران مشتعلة، ثم ارتفع صوتُ بوقٍ بدائي نَفَخَ فيه أشيَل الذي كان يقف فوق المدخنة ليراقب المشهد، كأنه كان يصدر أمرًا معروفًا لتلك الكائنات المرعبة، وعلى الفور أغلقتْ هذه الكيانات الضخمة الدائرة الكبيرة حول جنود الإنجليز بمعدّاتهم الهائلة وأسلحتهم التي توقفت كلها عن العمل بلا سبب، التفت الجنود لمصدر البوق فرأوا أشيَل يقفُ هائلًا فوقَ المدخنة المرتفعة يمسك بالبوق في يده، وعلى ضوء القمر قفزَ من فوق المدخنة بلا تردد كالنسر الضّخم، طار فوقهم في سرعةٍ كبيرة مخلفًا خلفَه رياحًا ساخنةً جعلتهم يغمضونَ أعينهم ، كان يدور فوقهم في الجو فتظهر صورتُه على قرص القمر وكأنه طائرُ رخٍّ أسطوري، وعندَ مروره من فوقهم في سرعته الهائلة كان ينثر عليهم ذراتٍ من رملٍ له رائحة نفّاذة غريبة أشبه برائحة الثوم تغرق ملابسَهم وأسلحتهم، وكأنما أمطرتها السماءُ عليهم، وبشكل لا إرادي صرخَ فيهم مستر جورج قائلًا: تراجعوا.. تراجعوا. لكنّهم فوجئوا بكلّ تلك الأعداد الكبيرة من الكيانات الضخمة تسدُّ عليهم أيّ نقطة للهروب، ثم دوّى صوتُ البوق مرةً أخرى، فرفعت تلك الكيانات الضخمة أيديها إلى أعلى متشابكةً، ثمّ بدأت في تلاوةِ ترنيمة بلغةٍ غير مفهومة، وبصوتٍ يُشبه الأزيز، مما جعل الجنودَ يلتصقون ببعضهم البعض في رعبٍ لا يدرون ماذا يجب أن يفعلوا!

ثمّ بدأ الدخان يغطي كلّ تلك الدائرة الكبيرة التي تجمع

فيها الجنودُ الإنجليز، وبدأتِ الأرض ترتجُّ تحتهم، وشعروا بطنين هائلٍ في آذانهم استمرّ لدقيقة كاملة، سقطوا بعدها كلهم فاقدي الوعي.

بعدَ دقائق طويلة لا يدرون عددَها استيقظوا، وبرغم الظلام الذي يحيط بهم إلا إنهم لاحظوا أن التفاصيل من حولهم تغيّرت بشكل لا يصدّق، وجدوا أنفسَهم في أغرب مكان رأوه في حياتهم، اختفى بيت المداخن واختفتِ المدخنة واختفتْ تلك الكياناتُ السوداء التي كانت تحيطُ بهم، بل واختفتِ الأراضي الزراعية والأشجار المحيطة بها، كل شيء يعرفونه اختفى تمامًا، وتحتَ ضوء القمر المنتشر شاهدوا صحراء مترامية الأطراف كأنها بلا نهاية.

كانتِ القوة الإنجليزية بالكامل بمعدّاتها وأفرادها تستقرُّ في وسط مساحةٍ من الكثبان الرملية التي تمتد إلى آخر حدودِ رؤيتهم، أمّا ما كان أمامهم فقد كان مريعًا، كانوا يقفون أمام جيش مهيبٍ من الشياطين السوداء والتي كانت أبشع بآلافِ المرات من تلك الكيانات السوداء التي كانت تحيط بهم منذ لحظات، تجرُّ خلفها ذيولًا تشبه السياط مدبّبة الأطراف كالحراب، وكأنّ تلك الوحوش فوجئت بهم أيضًا، مما جعل قائدهم يتشمّم الهواء في تعجب، كأنه اكتشف رائحةً مألوفةً لهم، رائحة عدوٍّ طالَ انتظاره، ثم صرخَ في جنوده الذين كانوا منشغلين بلغةٍ لم يفهمها جنود الإنجليز: إنهم بنو عاصف، انتقِموا منهم واثأروا لشرف جدّتكم الكبرى. وفي لمحِ البصر انقضت تلك الشياطين على جنود الإنجليز، تفتك بهم

بلا أدنى شفقة. فوجئ الميجور(جورج آرثر) بذيل مُشتعلٍ يلتفُّ حول رقبته كالسوط، ويعتصرها محولًا رأسَه لكتلةٍ من الفحم، قبل أن يفصل رأسَه عن جسده، ويقربها صاحب الذيل من أنفه ليشمها، قبل أن يلقيها بلا مبالاةٍ وينتقل لفريسة جديدة.

في (المحمودية)، ومن مكانٍ بعيد، كان سلام يراقب ما حدثَ للقوات الإنجليزية التي اختفت بكل عتادها الكبير، وتركث خلفها دائرةً سوداء كبيرة رآها الفلاحون في الصباح دون أن يجدوا لها تفسيرًا، كان المكان الذي يقف فيه قد اختارَه له أشيَل خصيصًا، وطلب منه عدمَ مغادرة تلك البقعة مهما حدث، وبعد لحظاتٍ سمع أشيَل يقول له: يمكنك الآنَ الاطمئنان... لن يعودوا مرة أخرى إلى هنا. سأله سلام في عجبٍ:

إلى أين ذهبوا؟

أجابه أشيَل: هُم جاءوا لأرضكم طلبًا للحرب، وقد أرسلتهم لمَن يحبّون الحرب مثلهم، هم الآن يحاربون في جنوب الربع الخالي، قبيلة هزمناها بعد أن فقدنا الكثيرَ من أبطالنا، لكنهم جميعا ولدوا بضعفٍ كبير في البصر، ويعتمدون أكثر على حاسّة الشم، وهم بالطبع يعرفون رائحتنا جيدًا، رائحتنا التي التصقت بجنود الإنجليز إلى الأبد.

عقدَ سلام حاجبيه في صمتٍ، ثم قال:

يبقى شرٌّ واحدٌ لا بدّ أن يدفن إلى الأبد.

***

في اليوم التالي، كان الصمت يلفُّ المحمودية في مشهدٍ عجيب، خرج الناس من منازلهم صامتين على غير العادة، لم يقطغ هذا الصمت إلا خطواتُ سلام وقد تبدّلت هيئته، حلق شعره ولحيته وارتدى ملابس جديدة، خطا بخطوات واثقةٍ قويةٍ وسطَ القرية بلا تعجل، وخلفه مائةُ رجلٍ طوال ضخام صارمي الملامح، لهم شعور طويلة ناعمة تنسدل على أكتافهم، لهم ملامحُ بشرية صارمة، يرتدي كلُّ واحد منهم عباءة سوداء، كان مشهدهم ميهبًا وصادمًا، عندما اخترق الركبُ الساحة الكبيرة للسوق، راقبتهم عيونُ الناس في دهشة ورهبة وصمت، فوجئ الركبُ بجنود الهجانة يجولون السوقَ على إبلهم، يحلمون السياطَ السودانية في أيديهم، قطعوا عليهم الطريق قبل أن يستوقفوا سلام، يقول له قائدهم في صرامة:

مَن أنت؟

أجابه سلام في بساطة: سلام.

ردّ عليه القائد وقد تحفّزت كلُّ جنوده وهو يشير للرجال الذين يتبعونه:

ومَن هؤلاء؟ وإلى أين تتجهون؟

جاءَه الردُّ من خلفه في صوت قوي:

أفسخ لهم الطريق فلا قِبَل لكم بهم.

التفتَ قائدُ الهجانة إلى صاحب الصوت، فإذا به يرى أشيَل في هيئة مماثلة لهيئة جنوده، فنظر إليه قائد الهجانة في استخفاف، ورفع سوطَه وهوى به على وجه أشيَل قائلًا:

كيف تجرؤ على أن تُصدر لي الأوامر؟

التفَّ السوط حول رقبة أشيَل الذي وقف صامتًا كالتمثال، فحاول قائد الهجانة جذب السوط، لكنه كان يشعر أنه يجذب جبلًا إليه، ثمّ فجأة وبلا مقدماتٍ ارتفعت حرارةُ السوط في يده، حتى ألقاه في ألم وهو ينظر إلى يده التي كادت أن تحترق، قبل أن يرفع بصرَه إلى أشيَل الذي بدا غاضبًا، لولا نظرة سلام التي منعته من الإطاحة بالرجل. نظرَ أشيَل للقائد نظرة طويلة قبل أن يقول:

الآن، أفسحِ الطريق، قبل أن آمرهم فيُخرجوا أحشاءك ويطعمونها لكلاب القرية.

نظرَ إليه القائد نظرةً مرتجفة قبل أن يهتف في جنوده قائلًا:

أفْسحوا الطريق.

كان هذا المشهد على مرأى ومَسمع من الجميع، وبدأ الهمس يصل إلى أذني سلام:

هذا سلام، لقد عاد، ومَن هؤلاء الذين يتبعونه؟

تحرّك الركب والجميعُ يقفون على جانبي الطريق يراقبونه في ترقبٍ، حتى وصل أخيرًا إلى قطعة الأرض المتنازع

عليها، الغريب أنّ الحرارة المنبعثة من ذلك الركب الغريب جعلتِ الناس يغمضون عيونهم في ألمٍ، وأمام الجميع التفّ الرجال المصاحبون لسلام حولَ قطعة الأرض، ثم نزلوا إليها وبدأوا يصدرون دويًا يشبه دوي النحل، قبل أن ترتفع سحابة مِن التراب فوقهم تُخفيهم عن الأنظار وكأنهم يقومون بالحفر. لاذَ أهل القرية بالصمت وأطبق كلٌ منهم على لسانه في رعبٍ، جمعتِ الأمهات في السوق صغارهنّ في وجلٍ، لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب من سلام الذي بدا مهيبًا صارم الوجه، ليس كسلام الذي عرفوه وعهدوه، العنفوانُ كسا ملامحه وهو يوجّه حديثًا هامسًا إلى أشيَل الذي يسير خلفه كظله، بعدَ لحظات انقشعتِ السحابة الترابية لتكشفَ عن حفرة ضخمة بكل مساحة الأرض، عميقة كأنها بلا نهاية، ولم يخرج منها أحدٌ من الرجال الضِّخام المصاحبين لسلام وكأنها ابتلعتهم، اختفوا تمامًا في مشهد مرعب، وبعد لحظاتٍ وبلا مقدّمات لفظتِ الأرض كومةً من التماثيل الذهبية والآثار الفرعونية بجوار الحفرة الهائلة، فتقدم منها أشيَل وأخرج من جيبه كيسًا ممتلئًا بالتراب، نثرَ ما به على التماثيل الذهبية والآثار، فبدأ لونُها تدرجيًا يتغير، وكأنها تتحول إلى حجارة قبلَ أن تتفتّت إلى ذرات وتتحوّل لتراب لا قيمة له، والحسرة تملأ عيونَ الناس على هذه الخبيئة الضخمة التي حوّلها هذا الرجل المهيب إلى ترابٍ أمامهم، ولم يجرؤ أحدٌ بالطبع على أن يتحرك من مكانه.

التفتَ سلام إلى الناس وسارَ بينهم في هدوء يتأمل

وجوههم، كانت العيون تتعلق به في خوفٍ كأنها تنظر إلى جلّادها الذي يضع السيفَ على رقاب الجميع، كأنهم ينتظرون كلمةً أخيرةً منه تودي بهم جميعًا إلى أعماق تلك الحفرة الهائلة، تأملَ وجوههم الخائفة للحظاتٍ قبل أن ينادي فيهم:

يا أهلَ المحمودية.. هذا يوم حسابكم، آن الأوانُ لكي تذوقوا ما اقترفته أيديكم، ستعيشون ما تبقى من أعماركم كما يحدد لكم القانون الذي أضعه أمامكم، هذه الحفرة بعمق أكثرَ من مائة متر، مساحتها أكثر من عشرة قراريط، الأرض تحتها أصبحت خاوية بلا مساخيط ذهبية، مزّقتم أنفسكم من أجل لا شيء، أشعلتم ناركم بينكم من أجل لاشيء، عاديتموني فقط لأني وقفت لكم كناصحٍ أمين، هؤلاء القوم الذين يصحبونني لا قبَل لكم بهم، لو أمرتهم الآنَ لأحرقوا عليكم بيوتكم، أو لألقوكم جميعًا في هذه الحفرةِ المظلمة التي أصبحوا يسكنون في قاعها، فمن اقتربَ منها فلا يلومنّ إلا نفسه.

نظروا إليه بأعينٍ شاخصة وكأنهم لا يصدّقون أنّ هذا هو المجذوب الهشّ الذي كانوا يسخرون منه، الآن أصبح ضخمًا كبيرًا عصيّ الإرادة عليهم، أُسقطَ في أيديهم وبدأوا يتهامسونَ حتى ارتفع صوت أحدهم قائلًا:

السماح يا شيخ سلام.

لم يلتفت إليهم سلام مرةً أخرى، قبلَ أن يقترب منه أشيَل وأمام أعين الجميع وفي وسط ساحة السوق، بدأ دخان

أبيضُ يحيط بهما للحظاتٍ قبل أن ينقشع، ليكشف الجميعُ اختفاءهما بلا مقدمات، مخلفًا ذهولًا ضربَ في قلوب الجميع وتركَ حفرةً هائلةً من الرعب ابتلعت كل الأمان من أذهانهم.. إلى الأبد.

***

زينب

قبلَ أشهر، وبعدَ اختطاف حمدان الأبيض لها. كان رأسها ثقيلًا كثقل الجبال، لا تدري ماذا حدثَ لها، تشعر أنها تسبحُ في فضاء مظلمٍ بلا هدى، كلُّ ما كانت تشعر به هو حالةٌ غريبة من فقدان الإدراك والعزيمة لفتح عينيها، كأن قوتَها دُفنت تحتَ أطنان من التراب، ذاكرتها صارتْ هباءً منثورًا بلا رابطٍ واحدٍ يجمع شتاتها كأنها وُلدتْ لتوِّها، ألم رأسِها كان أقوى من أن يحتملَه جسدُها الواهن الذي انتشر فيه ضعفٌ لم تشعر به من قبل، كان كفها في رفق يتلمّس فراشًا ناعمًا ترقد فوقَه على ظهرها، وتسلّلت لأنفها رائحةٌ جميلة تشبه رائحة البخور، أما بقية أعضائها فقد فقدت الاتصالَ بها على ما يبدو، إلا إنها في خضمِّ هذا البحر الهائج طفًا على رأسها اسمٌ واحد.. سلام، فكأن اسمه منحها طاقةً خفية، وبلا مقدمات فتحتْ عينيها، ليتسلّل إليها شعاع من ضوء قوي يدخل من فتحةٍ في النافذة، بدأت في ألمٍ تحرّك رأسها الثقيل كأنه يعمل لأولِ مرّة في حياتها، تحاول استكشاف المكان من حولها في بطءٍ، ثم بدأت تشعر بغرابةٍ شديدة مما ترى، الغرفةُ التي كانت ترقد فيها تبدو قديمة إلا إنها أيضًا

تبدو فخمةً بعض الشيء، منظمة على نحو جيد، الأرضية مضنوعة من خشب غالٍ لم ترَ مثله في حياتها، والأثاث يبدو جميلًا وإن كان قديمًا بعض الشيء، كالذي رأته في صِغرها في سرايا الباشا في البندر، عندما ذهبت مع أبيها لزيارة عمها الذي كان يعمل حارسًا هناك، يومَها طلبت منه أن ترى السرايا من الداخل، ووافق تحتَ إلحاحها المستمر، فانتهز فرصة سفر الباشا وأدخلها خلسة قبلَ أن يراه أحدٌ من الخدم. يومها وقفت زينب كالمشدوهة تنظرُ إلى القصر الفخم الذي كان يبدو سقفه في علو السماء في نظرها، كانت تفاصيلُ سرايا الباشا تشبه إلى حدٍّ كبير ذلك المكان الغريب الذي لا تعرف كيف وصلت إليه، كانت الغرفةُ واسعةً ومرتفعة السقف، وعلى الأرضية سجادةٌ حمراء فخمة تملأ غالبيةَ الغرفة، النافذة كانت مغطّاة بستائرَ من الحرير الأبيض الرقيق تحجب جزءًا كبيرًا من ضوء الشمس إلّا بعض الأشعة المارقة نجحت في الإفلات، لتملأ الحجرةَ بظلٍّ غريب أضفى على المكان غموضًا، حاولت بعدَ جهد كبير أن تقوم من سريرها إلا إن جسدَها كان مُنهكًا من أثر المخدّر القوي الذي ملأ رئتيها فجعلها تتنفّس بصعوبة، وما إن حاولت النهوض من مكانها حتى فُتح الباب في رفقٍ، ودخلت منه امرأة ترتدي زيًّا يُشبه زيّ الخدم، تحمل صينية عليها بعض زجاجات صغيرة تشبه زجاجات الأدوية، وضعتها على المنضدة المجاورة للنافذة وانصرفت دون أن تنطق بكلمة واحدة، حاولت زينب أن تسألها عن أيّ شيء لكنها لم تمهلها وأغلقتِ الباب، فأسلمت نفسَها للسرير مرة أخرى محاولة تصفية ذاكرتها لتتذكر آخر ما حدث لها،

لم تكن تتذكرُ شيئًا غير منزلها الذي كانت تجلس فيه وحيدة تُعِدُّ أغراضَها لتركه والبقاء في منزل والد سلام مدة حَملها، بدأتِ التفاصيل تظهر شيئًا فشيئًا فتذكرت أنّ هناك مَن طرق الباب وقامت لتفتحه، وهنا انقطع حبل ذكرياتها وكأنّ هناك سدًّا مَنيعًا بعد هذه النقطة، لم يقطع حبلَ أفكارها إلا صوتُ باب الحجرة يفتح مرة ثانية، وتدخل منه امرأةٌ من أجمل مَن رأت في حياتها، شعرها يشبه سلاسلَ الذهب ينسدل على كتفيها كالحرير، ولها عينان زرقاوان بلون البحر الصافي، ملامحها أشبهُ بملامح زوجات ضباط الإنجليز، لا تشبه ملامح المصريين في شيء، كان من الصّعب تحديدُ عمرها، ولم تكن على ما يبدو تتجاوز الخمسين بأيّ حال من الأحوال، إلا إنّ هناك مسحة من الحزن تكسو ملامحها الرائعة. اقتربت من زينب مبتسمةً وهي تقول لها:

كيف حالك اليوم يا بنيتي؟

أجابتها زينب في ترقُّب: أين أنا؟ وكيف أتيت إلى هنا؟

أجابتها المرأة وهي تمطُّ شفتيها: لا أعلم بالتحديد كيف أتيت إلى هنا، لقد وجدَك الخدم في حديقة القصر، وكنتِ تهذين باسم رجل يُدعى سلام، وحالتك كانت يرثى لها، فأدخلوكِ، وأحضرتُ لك طبيبًا، فأعطاكِ بعض المحاليل الطبية، وأخبرنا أنكِ تعرّضت لمجهود كبيرٍ لم يحتمله جسدكِ، وطلب أن ترتاحي فترة طويلة.

حاولنا أن نفهمَ منكِ شيئًا، لكنّ الاسم الوحيد الذي كنت

تنطقين به هو سلام، ثم مسحت على رأسها قائلةً لها: الآن، بعد أن اطمأننت على صحتك، يبقى أن نعرف قصتك التي تبدو طويلة.

بدأت دموع زينب تنزل في هدوء وكأنّ كلمات المرأة قد نبشت جراحها وأزالت الحجر الذي كان يمنع انطلاق سيل ذكرياتها، فتدفقت التفاصيلُ في سرعة، مما زادَ من حدّة بكائها وارتفع صوتها مما جعل المرأة تأخذها في حضنها في رفقٍ قائلةً لها: هوّني عليكِ، فالحياة مليئةٌ بالغرائب والمعاناة، كلُّ ما أطلبه منكِ أن تفتحي قلبك لي.

ثمّ ابتسمت المرأة وهي تقول: بالطبع تريدين أن تعرفي من أنا؟

هزّت زينب رأسها في حيرة وهي تمسح دموعها، فقامتِ المرأة وخطت ناحية النافذة وفتحت الستارة الحريرية، ووقفت تتأمل الحديقة في هدوء شاردةً، ثم أخذت نفسًا عميقًا وكأنها تستعيد ذكريات مؤلمة، ثم قالت:

اسمي جيهان واصف، كنت متزوّجة من (مرحوم) باشا أحد رجال السياسة، وبعد وفاته أصبح هذا البيت الفخم خاليًا من الحياة كما ترين، يشبه القبرَ بعد مغادرة أحبابه.

سألتها زينب: أليس لديك أبناء؟ أجابتها جيهان وهي تتنهّد: كان لديّ ابن واحد وتوفى هو الآخر، تاركًا برودة عجيبة في هذا القصر الطويل العريض، كان يدرس في أوروبا وتعرّض لحادث هناك ودفن دون أن أراه.

كانت نبرات صوتها صادقة لدرجة جعلت زينب تقوم من سريرها رغم ما بها لتحتضنها، فسالت دموع جيهان ساخنة هي الأخرى، كأنّ المعاناة هي ما جمعت بينهما، فمسحت إحداهما حزنَ الأخرى، والتفتت جيهان إلى زينب بعد أن هدأت قائلة: والآن هل تحكي لي مَن أنت؟، وابتسمت وهي تردف: وتخبريني مَن هو سلام الذي كنتِ ترددين اسمه دائمًا.

قالت زينب: اسمي زينب، أمّا سلام فهو روحي التي فارقتني بلا مقدماتٍ تاركةً جسدي بلا حياة، لا أعلم أين اختفى بالتحديد.

سألتها جيهان: هل هو زوجك؟

أومأت زينب برأسها قائلة: زوجي وكلُّ شيءٍ في الحياة بالنسبة لي، الهواء الذي كنت أتنفسه كان يمرُّ أولًا في رئتيه، كلُّ ما كنت أتذكره أني كنت أبحث عنه، ثمّ طرق باب منزلي رجلٌ ملثم ليلًا وحاولَ تكميم فمي حتى لا أصرخ، ثم أظلمتِ الدنيا أمامي ولا أتذكر شيئًا بعدها.

سألتها جيهان في حيرة: أين كان منزلك؟ أجابتها زينب: في قرية (المحمودية) بمديرية الغربية.

ارتفعَ حاجبا جيهان في دهشة شديدة وهي تقول: الغربية!؟ هذا القصر يقع في القاهرة!!

صُدِمت زينب من الرد، لم تعلم كيف وصلت لهذا المكان بالتحديد؟ كلُّ ما كانت تتذكره خيالات وسط ضبابٍ كثيف يملأ عقلها، تجاهدُ لتتذكرها لكنها كانت تشعرُ دائمًا أنّ هناك

جزءًا غائبًا من الحقيقة، الأيام التي مرت عليها في البحث عن سلام تركت داخلها ندوبًا لا تُمحى، لذا فقد قرّرت الاستسلام لواقعها المجهول حتى تدبر أمرها.

حُسن معاملة جيهان هانم لها جعلها تتغافلُ عمّا لا تفهمه، وفي الشهور التالية بدأت بطنها في الارتفاع لتفصح عن حملها، ونظرًا لضعف جسمِها فقد كان حملها ثقيلًا أقعدَها غالبية الوقت، لدرجة أن الطبيب حذّرها في غير مرة من الخروج من غرفتها إذا كانت تريدُ أن تحافظ على ذلك الحمل، الشيء الوحيد الباقي الذي كان يربطها بسلام، كانت حريصةً عليه أكثرَ من حرصها على روحها، وكانت نزهتها الوحيدةُ هي حديقة القصر المتسعة التي كانت تخفي ما يقع خارجها بستارٍ كثيف من الأشجار، عندما اقترب موعدُ وضعها، ضربها المخاضُ في الليل وحدها بلا رحمةٍ، وحيدةً غريبةً بلا أهل ولا زوجٍ ولا حبيب، كأنّ الدنيا لم تكتفِ بما فعلته بها، كأن المحن قد تركت الدنيا كلها وتجمعت على عتبةِ دارها، كانت صرخاتُها الملتاعة تشق سكونَ الليل، وتنتشر في الجداران والأرض، فترجُّ المكان رجًّا، صرخاتُ ألم ممزوجة بالحسراتِ التي ملأت قلبها وجوفَها كالملح، سالت دموعُها كالخناجر التي غرزت في فؤادها فزادتها أسًى، أغرقت وجهها واختلطت بالعرق الغزير الذي ألجم جسدَها الضعيف، وبلّل فراشها، كانت تشعر بروحها تخرج من جوفِها وترجع مرةً أخرى، كأنها تموت وتُبعث في نفس اللحظة، تشبّثت بفراشها حتى كادت أن تمزقه، وبرغم ما بها من ألمٍ فقد كان المرادُ

هو الذي يسكن حلقَها، كأنها لم يكفِها ما بها من ألم المخاض العظيم فاستدعت في تلك اللحظة محنةَ عُمرها الكبرى التي لم تنته، كانت صرخاتُها تدوّي في كل أنحاءِ القصر وكأنها وحيدة في هذا الكون الشاسع، لم يكنْ يعنيها في تلك اللحظة أن تعيشَ أو أن تموت بمخاضها، وإن كان هذا آخرَ عهدها بالدنيا، فصرخت بعلو صوتها تذعو بآخر دعوة لها في الدنيا قائلةً:

يا رب..

سلام يا رب..

احميه يا رب..

يا رب..

ارفع عنه محنتَه يا رب.

وكأنّ صرخاتها اخترقت حُجُب السماء، وتردّد صداها في الكون كله، فمن يحقّق لها المستحيل ويسدل رحمته عليها وعلى حياتها سوى الله؟! مَن يمكنه أن يزيل ما لا يُزال، وبدون أسباب ينتشلها من هوّة المحال إلى بر الأمان، بل ويجزل العطاءَ ليعوّضها عن صبرها؟!، كانت شهقاتها وصراختها تنطلق متتابعةً بلا توقف، وبلا مقدمات فُتح باب الغرفة ودخلث جيهان بملابس النوم مسرعةً ومعها الخدم، أمسكت بيدها في شدة قائلةً:

اضمدي يا زينب، سوف يأتي الطبيب سريعًاً. وهمست لها:

من أجل سلام.

كانَ لكلماتها فعلُ السحر على قلب زينب الملتاع، فابتسمت وهي تهزُّ رأسها، ومع كل ضربةٍ من ضربات المخاض التي تشبه السياطَ كانت ترى صورةَ سلام أمامها، وبعد وقت قصيرٍ تمت الولادة وزُزقت زينب بمولود جميل يشبهها إلى حدٍّ كبير، قالت لها جيهان هانم: ماذا ستسميه؟

هزّت زينب رأسها مجهدةً وهي تقول: لا أحد سيسمّيه غير سلام. كان العرق يغمر جبهتها وقد شحب وجهها فصار كوجوهِ الموتى. هزّ الطبيب رأسه وهمس لجيهان هانم قائلًا: لو نجت من عملية الوضع ستكون معجزة. كانت زينب قد غابث عن الدنيا، رأث نفسها تحت نفس الشجرة التي كانت ترى سلام مصلوبًا عليها، لكنه هذه المرّة لم يكن معلقًا عليها كما كانت تراه، كان يجلس بالقرب منها على صخرةٍ يتأمّل مشهد الغروب في هدوء، وقد طالت لحيته وشعرُه وبرزث ملامحه، بدَا حزينًا شاردًا لا يتكلم، نظرت إليه مذهولةً من منظره، تحسست جراح وجهه الغائرة، وشفتيه المتقرحتين اليابستين، ثم نزلث بأناملها على رقبتها فاصطدمت بآثار القيد الحديدي في رقبته كأخذودٍ ظالمٍ مهيب، لامست آثارَ السوط التي ظهرت من تحت ملابسه، فرفعتها على الفور لتكشف عن غابةٍ محترقةٍ اختلطت فيها الألوانُ في مشهد مُرعب من ضربات السوط القاسية، التفتت إليه ووضعت رأسه على صدرها واحتضنتها منتحبةً كالمجنونة، نزلت دموعها ساخنةً وهي تقول له:

ماذا فعلت بك الأيام يا حبيبي؟

نظر إليها نظرةً خاوية، محاولًا كذبًا إخفاءَ ذلك الثقب الأسود الذي تكون داخله، حاول التماسك للمرة الأخيرة وهو يقول لها:

أنا بخير.

ثمّ انفجر باكيًا، عندما احتضنته أمّ أنقذت وليدَها من بين الأمواج الهادرة، فظل يكرر وهو يبكي: أنا بخير.. أنا بخير.

لكنها كانت تعلم أنه يكذبُ عليها للمرة الأولى في حياته.

ثمّ بدأت الصورةُ في الاهتزاز، وصوتُ جيهان هانم يوقظها في رفقٍ قائلةٍ:

زينب، هناك مَن يريد أن يراكِ.

تنبّهت إلى أنّ الصوت يأتي من الحجرة التي ترقد بها وليس من داخل حلمها، ففتحت عينيها في بطءٍ فوجدت جيهان هانم تقف بجوارها تمسح على جبهتها التي تتصبّب بالعرق، وما هي إلا لحظاتٍ حتى فتحت الخادمة الباب ودخل رجلٌ أنيق يرتدي حلةً بيضاء، شعره طويلٌ ناعمٌ منسدلٌ على كتفيه، تشبه ملامحه إلى حد كبير ملامح (حبيب المجنون)، إلا إنه كان وسيمًا نظيفًا، ابتسم لها في رفقٍ وخلفه امرأة رائعة الجمال لها شعر يختلط لونه الذهبي بلون الفضة، ترتدي فستانًا أبيضَ، تحمل في يدها لفافةً من الحرير الأبيض وملابس جديدة للمولود، ثم أفسحوا جميعًا الطريقَ لآخر

شخص تتوقّع رؤيته في تلك اللحظة.. سلام.. يرتدي ملابس نظيفةً وقد حلق لحيته الطويلة وشعره الذي لم يحلق منذُ شهور، اقتربَ منها في بطءٍ ومدّ يده يمسح على شَعرها المبلل بالعرق هامسًا لها في رفق: أنا هنا يا زينب، لم يردّ الله دعاءك.

وضعت يدَها على وجهه كأنها تتأكد من ملمسِه، تتحسّس جراح وجهه الغائرة، وملامحه البارزة التي تغيرت وتبدّلت، ثم انفجرث دموعها واهتزّت الكلمات في حلقها قائلةً:

ماذا فعلت بك الأيام يا حبيبي؟

قال لها وهو يمسح دموعها: إنها قصةٌ طويلة يا زينب نحكيها فيما بعدُ، بعدَ الاطمئنان عليكِ.

فمدّت يدها للفراش الذي يجاورها، وأمسكث بالمولود وأعطته له قائلةً:

لم أردّ أن أسميه حتى أراك.

تأمّله في فرحةٍ غامرة، ثمّ قال لها وهو يشير للرجل الذي يرتدي بدلةً بيضاء والمرأة الجميلة التي ترافقه:

اسمُه حبيب.

***

بعدَ مرور شهر.. سادَ الميدان صمتٌ غريب لم يعهده البندرُ من قبل، كانتِ الشمس الدافئة ترسل نورها لكل بقعةٍ في الساحة الواسعة. كان الهواء باردًا ومنعشًا بشكلٍ يبعث

السعادة الغريبة في النفس. كانت وجوه الباعة الجائلين تحمل في طيّاتها مزيجًا غريبًا من الرفق واللين، وإن كان البؤس والفقر محفورين فيها حفرًا، ثم فجأة خرج من خلف المحكمة الابتدائية رتلٌ كبير السيارات والعربات التي تخصُّ الجيش البريطاني تحمل معداتٍ وأغراضًا كثيرة، انطلق ذلك الرتلُ خارجَ البندر كله في سرعةٍ مثيرًا خلفَه الأتربة والغبار. كان المشهدُ غريبًا للسكان، فسأل أحدُهم الآخر قائلًا: هو فيه إيه؟

أجابه: بيقولوا الإنجليز بيخلّوا الكامب اللّي ورا المحكمة وسلّموه للمركز خلاص. قال له صاحبه: عقبال ما يغورا من مصر كلها. كان أحدُ الباعة الجائلين يسمع ذلك الحوارَ في إرهاق واضحٍ على وجهه، بعد أن تعب من اللفِّ ببضاعته الثقيلة، فحطّ رحالَه أمامَ المحكمة الابتدائية، بالتحديد في تلك البقعة التي كان يجلس فيها صفوان العرضحالجي قبل أن يفقدَ عقله هو وصديقه إسماعيل السباعي، ويقضيان في المستشفى ما تبقى من حياتهما، عندما جلس البائع يلتقط أنفاسَه ويمسح عرقه الغزيرَ بعد أن يئس من بيعِ بضاعته بسبب حالةِ الهدوء الغريبة التي تسود الميدان، فوجئ بشابٍّ طويل يقف أمامَه مباشرة قائلًا: بكم تبيع كلّ هذه البضاعة؟ نظر إليه البائع متعجبًا قائلًا: يا بيه بلاش تتّريق عليّا الله يكرمَك. جلس الشابُّ أمامه القرفصاء وأخرجَ من جيبه عملة فئة الخمسين قرشًا، وأعطاها للبائع قائلًا: الشمس شديدة اليوم، خذْ بضاعتك وغذ لأولادك. قالها وتركه متّجهًا في

خطواتٍ هادئة ناحية المركز والبائع يتابعه ببصره لا يكاد يصدّق ما حدث، تذكر عندَها دعوة زوجتِه الصباحية عندما اشتكى لها من ضيقِ الحال فقالت له: ربنا يبعت لك الحنيّن اللي يحسّن بيك. أمّا الشابُّ فقد دلفَ إلى داخل المركز في خطوات هادئة، ثم سأل أحد العساكر: أين مكتب محمد بيه الأسيوطي؟ قال له العسكري: نقوله مين؟، قال له الشابُّ مبتسمًا: صديق قديم.

بعدَ لحظات كان ذلك الشابُّ المنمقُ يدخل إلى مكتب محمد الأسيوطي والأخير يستقبله في غرابة كأنه لم يتعرف عليه، فبادره الشابُّ معرِّفًا إياه بنفسه بعد أن خلتِ الغرفة: أنا سلام يا محمد بيه، وقد جئت لأودعك. نظر محمد الأسيوطي في عجبٍ وقد تهلّلت أساريره وقام يحتضنه قائلًا: لم أعرفك بعد أنْ حلقت لحيتَك الطويلة وشعرك، وغيرتَ الملابسَ القديمة التي كنت ترتديها.

ثمّ مال عليه هامسًا وهو يكتم الضحكة: ما أخبارُ مستر جورج؟

ابتسم سلام قائلًا: لا تقلق، لقد سافر بعيدًا ولن يعود، ولن يظهر في مصر كلها مرة أخرى، الفضل يعود لزيارتك له التي أقنعته بأنّ بيت المداخن به أكثر من خمسين فردًا من الفدائيّين يستعدون للهجوم على الكامب.

قال له الأسيوطي: هل علمتَ أنّ القيادة البريطانية أصدرت أمرًا بإخلاء الكامب بناءً على تقرير عاجل من المخابرات

البريطانية، بالطبع لم يعلنوا الأسباب صراحةً.

هزّ سلام رأسَه: رأيتهم وأنا آتٍ إليك يخلون ما تبقّى من الكامب، خرجوا منه كالمجانين مرعوبين بعد أن طاردهم شبحٌ سلام كلّ ليلة، يسير في الكامب بعد اختفاء جورج وقوته حتى رفض الجنود التواجد في الكامب من الرعب، أعتقد أنّ هذا الاسم لن تنساه بريطانيا كلها.

ضحكَ الأسيوطي حتى سعلَ من كثرة الضحك ثمّ قال: يا ليتك استمعتَ إلى الإشارات العاجلة التي أرسلتها المخابرات البريطانية للحكمدارية تطلب منهم المساعدةَ في إخلاء الطرق وتأمين الإخلاء... يا ليتني أعيش حتى أراهم يهربون من مصر كلها.

أجابَه سلام: لا تنسَ أننا زرعنا الفكرةَ في العقول، وأعتقد أنها شجرةٌ سوف تضرب بجذورها في أعماق الأرض، وسيأتي ذلك اليوم لا محالة.

همسَ له الأسيوطي: الإنجليز الآن ينبشون الأرضَ بحثًا عنك، لا يمكنهم تقبل فكرة اختفاء الفرقة العسكرية بمعداتها وأسلحتها دونَ أثر، ولقد سمعت أخبارًا من عمي سليمان باشا الأسيوطي وهو أحدُ المحامين المخضريمين المطلعين على المطبخ البريطاني السياسي في القاهرة، أنّ اللورد كرومر يطلب القبض عليك بالاسم.

قال سلام في هدوءٍ غريب: دعهم يبحثونَ كما يريدون، فلن يمكنهم قتل رجل ميتٍ بالفعل.

سأله الأسيوطي وهو يتلفّت حوله: وماذا عن صديقك الـ....؟

قال له سلام: هل تصدقني لو قلتُ لك إنّ ذلك المارد كان أرحم عليّ من بني البشر، الذين حوّلوا حياتي إلى جحيم بلا سبب، كنت رحيمًا بهم حتى دمّروا حياتي، كنت فقط أريد أن أخبرهم أني أملك وجهًا آخر أسوأ من وجوههم، وجهًا يمكنه أن يحوّل حياتهم إلى جحيم، جلاد لا يرحم إنْ أراد البطش بهم.

سأله الأسيوطي: وماذا عن المحمودية؟

أجابه سلام: لا شيء سيحدث بعد الآن، الأرضُ المتنازع عليها تحوّلت إلى حفرة لن تردمَ إلّا بعد يتعلم الجميع الدرس، لن يجرؤ أحدُهم على الاقتراب منها بعد الآن.

ضحكَ الأسيوطي بصوت عالٍ وهو يقول:

لقد أخبرني العمدة أنهم يريدون أن يقيموا مولدًا سنويًا، ويسمّونه مولد الشيخ سلام، بل ويفكرون في بناء مقام لك بجوار الأرض لعلك تصفحُ عنهم وتردمَ الحفرة، ويريدون تغيير اسم القرية إلى (كفر الشيخ سلام).

ضحكَ سلام في هدوء: لن يتغيروا أبدًا، سيفكرونَ في طريقة جديدة للعودة لحياتهم القديمة.

سأله الأسيوطي: وماذا عن زوجتك؟ ألم تعرف مكانها؟

ابتسم سلام قائلًا: زينب ترسلُ لك تحياتها، تشكرك أنك

قابلتها بعد أن لفظها الجميع، الآن أصبح اسمها أم حبيب. فاحتضنَه الأسيوطي قائلًا: مبروك عليكم.. أتمنى لكم حياةً هادئة أينما كنتم بعدَ كلِّ ما مررتم به.

فأخرج سلام من جيبه ورقةً مطويةً أعطاها له قائلًا:

هذه أمانة ائتمنك عليها، بها عنواني، إذا نزلتَ إلى القاهرة أتمنى أن أراك.

قالها وانصرف تاركًا محمد الأسيوطي يفكر فيما يفعل ليسجل ما مرّ به، فأخرج دفترًا فارغًا من درج مكتبه وبدأ يكتبُ في منتصفِ السطر "مذكرات محمد الأسيوطي".

عندَ عبوره الميدان مرةً أخرى شاهد سلام طفلًا صغيرًا يتشاجرُ مع أصدقائه، يريدون أن يأخذوا منه ورقة مطويّة في يده لكنه استماتَ عليها بقبضةٍ من حديد، لم تثنيه ضرباتُهم عن التخلي عن ورقته الصغيرة، كان إصراره غريبًا جذبَ انتباهَ سلام، فابتسمَ وهو ينتزعه من بينهم، ويرفعه لأعلى ليحميه من هذه العركةِ الكبيرة، مسح الفتى وجهه من الأتربة، وعلى وجهه علاماتُ النصر، وابتسامته تتّسع وهو يتابع أصحابَه، وقد فشلوا في انتزاعها من كفه الصغير، قال له سلام:

لماذا يضربونك؟

أجابَه الفتى مبتسمًا وهو يمسح وجهَه من الأتربة: كنت أزور بعضَ أقاربي في هذا البندر، وأخذت هذه الورقة من على الجدران، وكانوا يريدون أن يأخذوها منّي، وأخرج

الورقة وأعطاها لسلام فأخذَها من يده الصغيرة ليفاجئ بأنها أحد المنشورات التي كتبها، وانتشرت في كلِّ أنحاء البندر، وفيها تهديدُ سلام للإنجليز بالانتقام، فقال له:

هل تعرف ما الذي في هذه الورقة؟

هزَّ الصغير رأسَه في اعتزازٍ قائلًا: هذه ورقة سلام.

قال له سلام: ما معنى ورقة سلام؟

قال له: نحن نطلق عليها اسم ورقة سلام، وقد انتزعتها من فوق الحائط المجاور لمنزل أقاربي.

قال له سلام: ولماذا تحتفظ بها؟

نظرَ له الصغير في شكٍّ وذكاء: أأنت لستَ من البندر؟

ضحك سلام وقال له: لماذا تقول هذا؟

قال له: كلُّ الناس يتكلمون عن ورقة سلام، والجميع يتسابقون للاحتفاظ بها.

رفعَ سلام حاجبيه في دهشةٍ حقيقية وهو يقول: ولماذا؟

قال له: لأنه السببُ في هروب الإنجليز.

لم يكنْ سلام يصدق أذنيه، وهو يسمع هذا الكلام من فتى في السابعةِ من عمره، فأخرج سلام من جيبه قرشًا وهو يُعطيه للصغير الذي رفض تمامًا أنْ يأخذه، فنظر إليه سلام في تعجب، ثمَّ قال له:

ما اسمك يا غلام؟

قال له الصبي: يوسف الجندي.

ثمّ رفع الفتى رأسَه لسلام قائلًا: وأنت ما اسمك؟

ضحكَ سلام وهو يحتضنه في رفق، ويضع القرشَ في جيبه مائلًا على أذنه وهو يهمسُ له ويشير إلى اسمه في الورقة:

أنا سلام.

قالها وترك الصغيرَ رافعًا حاجبيه وانصرفَ قبل أن ينادي عليه الصبي وهو يركض خلفه قائلًا:

ولكنْ سلام قد مات!

التفتَ إليه سلام وقد توقّف لينظر إليه في عينيه قبل أن يشير إلى صدره قائلًا: سلام لا يموت.. أنت أيضًا سلام.

قالها واختفى في زحمةِ الميدان الكبير، والصبيُّ يبحث عنه وسط الزحام كأنه كان يحدّث شبحًا للتّو، لكنه نظر إلى حيث اختفى وركضَ إلى بيته قائلًا في زهوٍ: أنا سلام.

***

## الوداع

كان سلام يجلس أمامَ النيل في القاهرة ينظر إلى صفحةِ المياه في هدوءٍ، كأنه يحاول أن يغسلَ قلبه مما علِقَ به، يحاول جاهدًا أن يخلع ثوبَ الجلاد الذي ارتداه للمرّة الأولى في حياته، حتى سمع مَن يقول له:

كنتُ أعلم أني سأجدك هنا.

نظرَ بجواره فوجد "حبيب" يجلس على المقعد المجاور له، يرتدي حُلّة بيضاءَ وقد أسدل شعرَه الناعم الطويل على كتفيه، وبالقُرب منهما يجلس ثلاثةٌ من الرجال الأشدّاء لهم نفس هيئة حبيب المنمّقة، ولهم نفس الشعر الطويل. نظر إليهم سلام فقال له حبيب:

هؤلاء حرّاسي.

ابتسم سلام قائلًا:

تقصد حرسَ الملك أشيَل بن مرخم.

ابتسم حبيب مهمومًا وهو يقول:

سوف نخرج للمعركة الكبرى غدًا، وقد جئت لأودّعك.

هزّ سلام رأسَه وهو يشيح بوجهه وقد أغرقت الدموع وجهه قائلًا:

لا يا أشيَل، ما بيننا لا يمكن أن ينتهي أبدًا، ستظلُّ صديقي إلى الأبد.

قال له أشيَل: إلى الأبد يا سلام، اعلم أني أراقبك، ولن أسمحَ لمخلوق أن يمسك وزينب بسوء مادمت حيًّا.

قالها وقد اختفى صوته. نظرَ سلام لمكانه فوجدَه خاليًا، لكنه وجدَ صندوقًا خشبيًّا على المقعد، فتحه فوجد به العديدَ من العُملات الذهبية، أغلق الصندوقَ وظلّ يحدق في ماء

النيل وهو يمسح دموعه التي سالت في صمتٍ.

***

في عام ١٩١٩م، قامت الثورة، وقاد الطفلُ الذي قابله سلام في الميدان النضالَ في مديرية الغربية، وأعلن استقلاله عنِ المملكة المصرية للضّغط على الإنجليز، في واحدة مِن أجرأ أوراق الضغط في التاريخ، الطفل الذي يُدعى (يوسف الجندي)، الطفل الذي أصبح رئيسًا لما عُرِفَ يومًا باسم (جمهورية زفتى).

لكنّه ظلّ يحتفظ طيلة حياته بورقةٍ صغيرة كتبت بخطّ اليد، كتبها رجلٌ ضعيف همّش كانوا يطلقون عليه اسم المجذوب، رجل يدعى (سلام عبد الله أبو حسين)، ورقة عُرِفت باسم (ورقة سلام).

[تمّت بحمد الله]

٨ / ٣ / ٢٠٢٢

لا تغلق الكتاب، هناك مشهدٌ إضافي في النهاية.

(القاهرة) عام ١٩٣٢ م ..

جلس محمد الأسيوطي في شرفة منزله في حي المنيل في القاهرة الذي استقرّ به بعد أن أنهى خدمته في البوليس المصري، كان يجلس أمامه رجلٌ يقترب من الستين من عمره، يضرب الشعر الأبيض رأسه كله تقريباً، يرتشف قهوته في هدوء وهو ينظر للشارع من تلك الشرفة العالية، دخل أحد الخدم عليهما قائلًا لمحمد الأسيوطي:

فيه واحد إنجليزي عاير يقابلك يا محمد بيه.

نظر إليه الأسيوطي متعجبًا ثم قال: يقابلني أنا..؟؟، مطّ شفتيه وهو ينظر إلى رفيقه والذي بدا كأنه لا يسمع ما يدور حوله، ثم قال للخادم: خليه يدخل. ودخل إلى الغرفة الملحقة بالشرفة وهو يخرج مسدسًا من درج مكتبه ويضعه في ملابسه ، وبعد لحظات استقبل الرجل في الشرفة والذي بدا عليه أمارات الذكاء، يرتدي زيًا انجليزيًا خالصاً، خلع قبعته وهو يعرّفهُ بنفسه قائلًا في عربية ضعيفة:

اسمي (فردنان ريتش)، مستكشف بريطاني وعضو بالجمعية الجغرافية الملكية بلندن، كنت أجمع معلومات عن حياة الميجور (جورج آرثر) الذي كان يخدم هنا في مصر منذ ثلاثين عاماً، وعرفت من خلال السجلات أنك كنت تخدم في البوليس المصري في (مديرة الغربية) أثناء وجوده هناك، هل تتذكر أية معلومات عنه؟

قال له الأسيوطي مبتسماً: للأسف لا أذكر هذا الاسم. ثم

صرخ في شدةٍ صعيدية، جعلت الرجل ينتفض أمامه وهو يقول: سلام.. واد يا سلام.

دخل عليهم على الفور شابٌ في العشرينيات من عمره قائلًا للأسيوطي: أفندم يا بابا.

قال له الأسيوطي: وصّل يا بني الخواجة للباب أحسن يتوه، وكان هذا إيذانا بانتهاء الحديث القصير، ثم التفت إلى الرجل الذي يجلس أمامه في الشرفة يتأمل المارة في هدوءٍ، ثم قال له:

قهوتك بردت يا سلام، نظر إليه سلام قبل أن ينفجر الاثنان ضحكًا وملأت ضحكاتهما الميدان والشوارع ومصر كلها.

أسامة عبدالظاهر